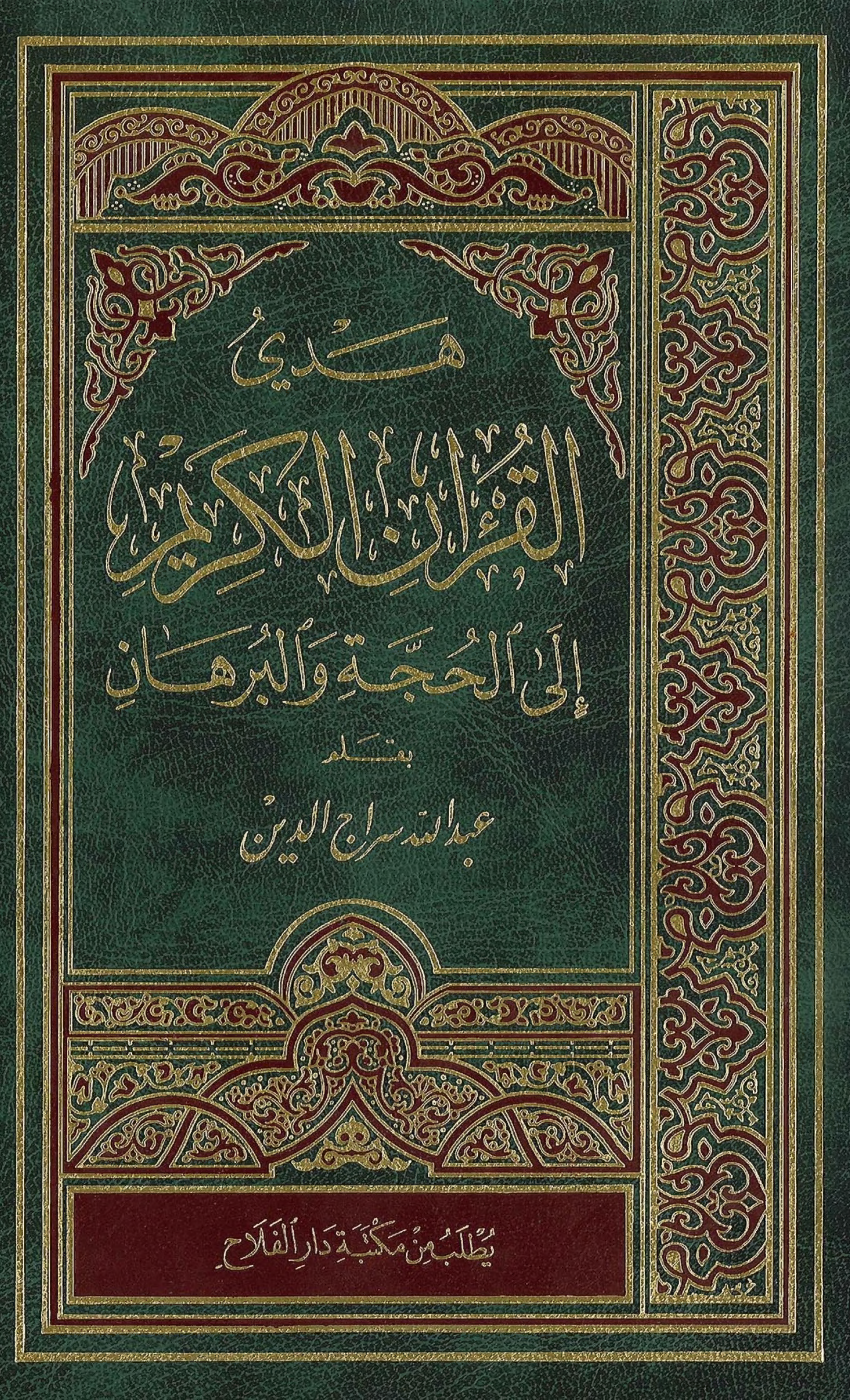
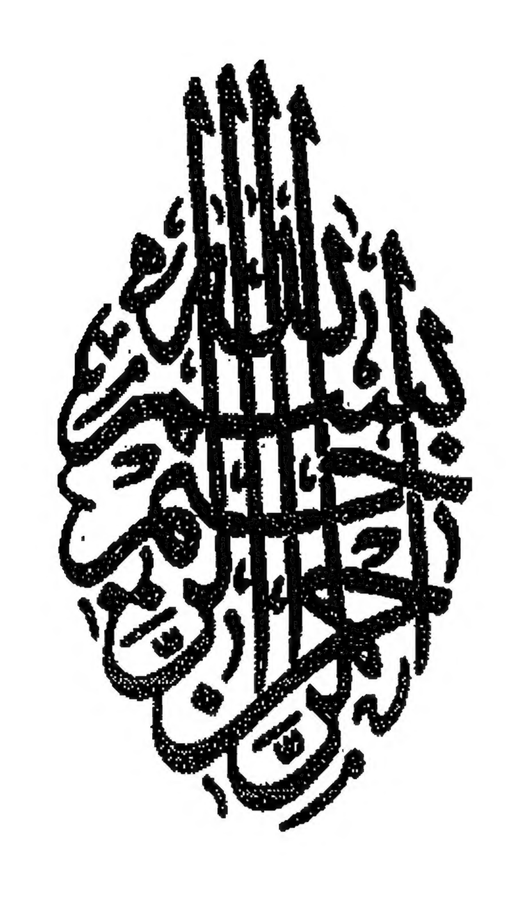


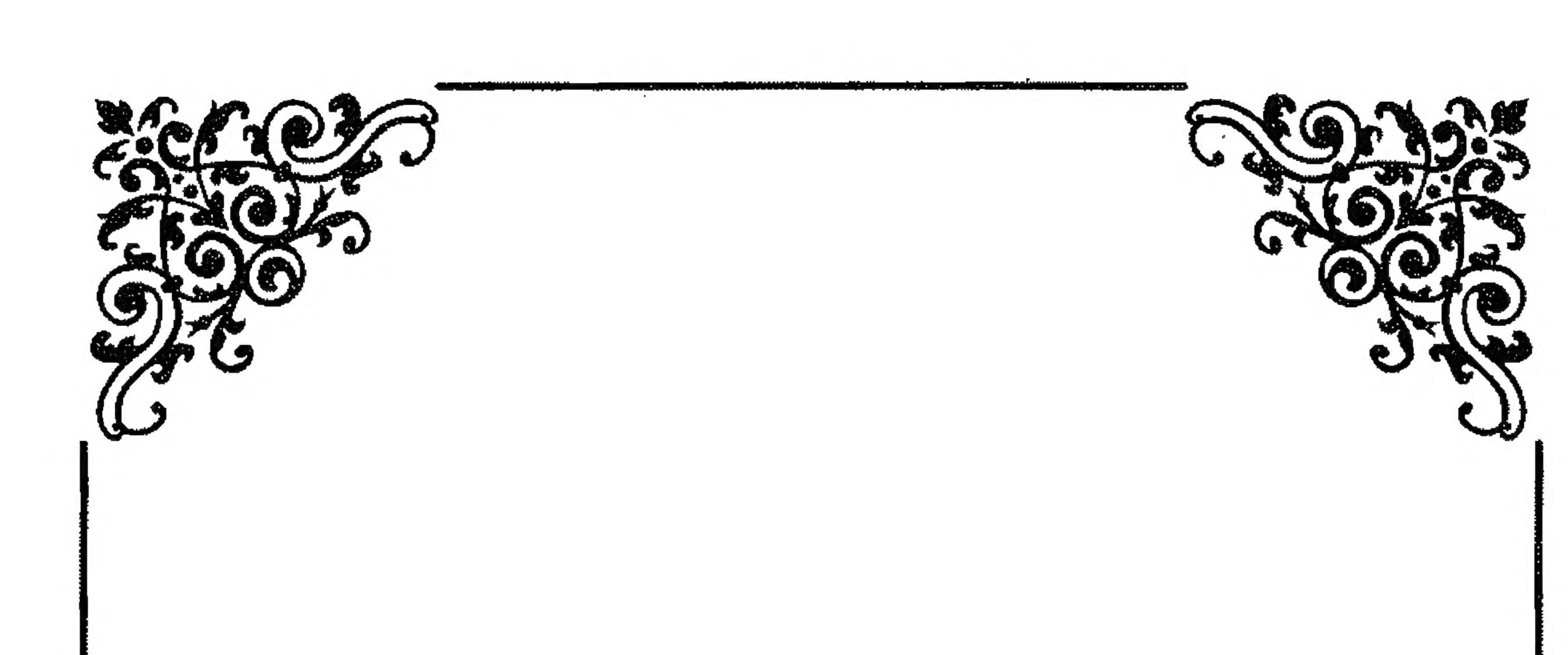
هدى
القرآن الكريم
إلى الحجة والبرهان
بقلم
عبد الله سراج الدين
يطلب من مكتبة دار الفلاح

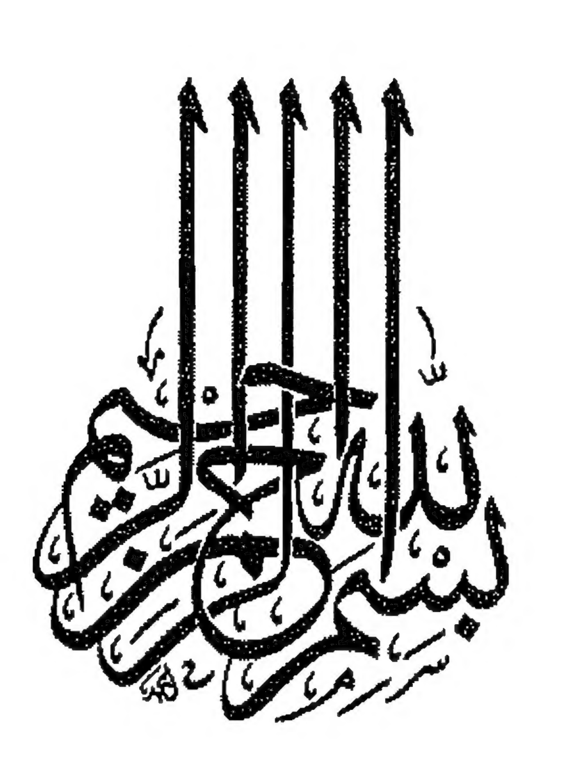


أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن أكابر المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين









هدى القرآن الكريم

إلى الحجة والبرهان

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح
حلب - أقيول

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م

مطبعة الصباح
دمشق ـ هاتف ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (٢٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم علىٰ سيدنا محمد خاتم الأَنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم إلىٰ يوم الدين .

وبعد :

فاعلم أيها الإنسان المُفَكِّر ، والعاقل المتبصِّر ، أنَّ الدين الإسلامِيَّ الحنيف هو قائم علىٰ الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، في جميع ما جاء يدعو إليه من : عقائد وعبادات ، ومعاملات ومبادلات مالية ، ومعاشرات زوجية ، وفي سائر مبادئه وَمَضامينه .

وأَنَّ الحُجَجَ والبراهين التي جاء بها الدين الإسلامي هي مَوجَّهةٌ لذوي الأفكار المستقيمة ، والعقول السليمة ، التي تعقل المراد مما جاء عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، الناطق عن وحي من الله تعالىٰ : الوحي القرآني ، والوحي النبوي ألا وهو : كتاب الله تعالى ، وسنة نبيِّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

وذلك لأن ما جاء عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو منار هَدْي وضياء ، ورشاد وسَداد ، يَسْتنير العقل بضيائه ، ويهتدي بنوره إلىٰ معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة حقِّها مِنْ باطلها ، وما يترتَّب عليها مِنْ خير وَشَرٍّ ، وَنَفْع وضرٍّ ، وما تؤدِّي إليه من نتائج حسنة أو سيئة ، وعواقب سليمة أو ذميمة .

فإنَّ ما جاء به رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو للعقول السليمة كالشمس المضيئة لأولي الأبصار السليمة ، فإنَّ حاسَّة البصر وحدها لا تنفع صاحبها شيئاً ، ولا تُظهر له مِنْ الخفايا شيئاً ما لم يكن ثَمَّة نُورٌ خارجيٌ آخر يلتقي معه نور البصر ، كما أن ضياء الشمس وجميع النيِّرات لا تنفع مَنْ فَقَدَ نور البصر .

فإِذَا مشىٰ نور البصر علىٰ نور الشمس أو القمر ، أو غيرها من النيِّرات : اهتدىٰ البصير إلىٰ مصالح الأمور .

وهكذا فإنَّ مَنْ فَقَدَ نُور العقل لا ينفعه نور الوحي المحمدي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، كما أنَّ نور العقل إذا لم يستضيء بنور الشرع المحمدي فإنه يتخبط في المتاهات ، ويتقلب في الضلالات ، ولا يَعرف حقيقة ما ينفعه وما يضره ، وإلىٰ هذا يرشد الله تعالىٰ عباده فيقول : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ ﴾ أي : برسول الله سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

ومِنْ هُنَا يَعلم العاقل أَنَّ الله تعالىٰ بَعَثَ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله

وسلم إلىٰ العالم ومعه نور من الله تعالىٰ ، يضيء للعقول طُرق التَّفكُّر والتَّذكُّر والتبصر ، فبِهِ يعلمون الحق عِلْماً جازماً ، وتستنير به قلوبهم ، فيؤمنون إيماناً صادقاً بلا شك ولا ارتياب.

وفيهم يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

ومن أجل ذلك جاءت التكاليف الشرعية ، والخطابات الإلٰهية موجهة للعقلاء البالغين ، مرفوعة عن الصبيان والمجانين ، فإذا بلغ العاقل سنَّ الحُلُم صار موضع الخطاب بالتكاليف الدينية ، والأوامر الربَّانِية.

ذلك لأنَّ هذا الدين المحمَّدي جاء بالمعقولات المبرمة ، والقضايا المحكمة ، التي يُوقن بها كلُّ مُنْصف عاقل ، ولا يزيغ عنها إلا متكبر جاهل . وعلىٰ هذا الهدي المحمدي سار الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم إلىٰ يوم الدين ، لأنَّهم أُولو عقول سامية ، وأفكار نَيِّرةٍ.

قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالىٰ وجهه: (إذا سمعتم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حدثنا فَظُنُّوا به الذي هو أهدىٰ ، والذي هو أهنأ ، والذي هو أبقىٰ).

وفي رواية عنه: (إذا حَدَّثْتُكم عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حديثاً فظُنُّوا به الذي هو أهداه وأهناه وأبقاه). ا هـ.

والمعنىٰ: أيقنوا بأنَّ ما جاء عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو أهدىٰ ما يكون إلىٰ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ؛ ولا أسعد منه ، ولا أرشد منه ، ولا أنفع منه.

ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرْعِهَا سمعك فإنه خَيْرٌ تؤمر به، أوْ شَرٌّ تُنْهىٰ عنه).

وقد سُئِل بعض الأعراب فقيل له: بم عرفتَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؟.

فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: لَيْتَه ينهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: لَيْتَه أمر به.

وقد أذعنت عقلاء البشر وحكماؤهم لِحَقِيْقَة ما جاء به رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، واعترفوا بمعقوليته وحكمته؛ فأسلموا لذلك واستسلموا.

فهذا المنذر بن ساوىٰ، لما بَعَث إليه النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بكتاب مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، يدعوه فيه إلىٰ الإسلام. قال له العلاء حين قدم عليه:

(يا منذر إنك عظيم العقل فلا تُصَغِّرْه في الآخرة، إنَّ هذه المجوسية ـ أي: التي تدين بها ـ هي شرُّ دينٍ، ليس فيها تكريم للعرب، ولا علم عند أهل الكتاب، إنهم يَنكحون ما يُستَحْيىٰ منه، ويأكلون ما يُتكرَّم عن أكله ـ أي: من الخبائث والنجاسات ـ ويَعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة.

ولستَ ـ يا منذر ـ بِعَديم العقل ولا الرأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يَكذب في الدنيا أن لا تُصَدِّقه، ولمن لا يخون أن لا تأمنه، ولِمَنْ لا يُخلِف أن لا تثق به.

فَإن كان هكذا، فهذا هو النبيُّ الأمِّي صلَّىٰ الله عليه وآله

وسلَّم ، الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: لَيْتَ ما أمر به نَهىٰ عنه ، وما نَهىٰ عنه لَيْتَه أمر به ، أَوْ لَيْتَه زاد في عَفْوه ، أو نقص من عقابه[1] ، إذ كلُّ ذلك جاء منه علىٰ أُمْنِيَّة أهل العقل وفِكر أهل النظر).

فقال له المنذر: قد نظرتُ في هذا الذي في يدي ـ أي: دين المجوسية ـ فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونَظرتُ في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يَمنعني من قبول دينٍ فيه أُمنِيَّة الحياة وراحة الموت؟.

ولقد عجبتُ أمسِ ممَّنْ يَقْبله ـ أي: يدخل في دين الإسلام ـ وعجبتُ اليوم مِمَّن يردُّه ـ أي: لا يدخل فيه ـ مع أنَه جاء بالمنطق السليم ، والعقل القَويم ، وإن من إعظام ما جاء به أن يُعظَّم رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وسأنظر. ا هـ.

أي: سأنظر فيما أصنع من الذهاب إلىٰ هذا الرسول الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، أو مكاتبته ، أو نحو ذلك ، وليس مراده النظر في القبول أو الرد ، لأن قوله: وعجبتُ اليوم ممن يردُّه فيه اعتراف منه بأنه دينٌ حق ، وقد انشرح صدره.

ولما قدم المُهاجر بنُ أبي أمية المخزومي رضي الله عنه ، علىٰ الحارث بن عبد كلال أحد ملوك حِمْير ـ وقد بعثه إليه النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ قال له المهاجر:

(يا حارث إنَّك كنت أَوَّل مَنْ عرض عليه المصطفىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم نفسه ، فخطئت عنه وأنت أعظم قدراً ـ أي: من

---

(١) أي: عقوبته على الجرائم: كالقصاص والحدود والتعازير ونحو ذلك.

غيرك من ملوك حمير ـ وإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا أسَرَّكَ يومك فخف غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارهم ، وبقيت أخبارهم ، عاشوا طويلاً ، وأَمَّلوا بعيداً ، وتزوَّدوا قليلاً ، فمنهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النِّقَم.

وأنا أدعوك إلىٰ الربِّ الذي إن أردت الهدىٰ لم يمنعك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد.

وأدعوك إلىٰ النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن ممَّا يأمر به ، ولا أقبح ممَّا ينهىٰ عنه.

واعلم أَنَّ لك ربَّاً يميت الحيَّ ، ويحيي الميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور). ا هـ.

فالدعوة إلىٰ دين الله تعالىٰ قائمةٌ علىٰ المنطق السليم ، والعقل القويم ، والبرهان المستقيم ، ولذلك ترىٰ أيُّها العاقل أنَّ القرآن الكريم جاء يدعو إلىٰ المنهج الساطع مع البرهان القاطع ، وجاء بالهدىٰ مع بيِّنات من الهدىٰ: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ، وجاء يهدي إلىٰ سبيل الرَّشاد مع الحجة علىٰ جميع العباد.

وها أنا أذكر وجوهاً من الأدلة القرآنية علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ومن أجل ذلك ترىٰ أن الله تعالىٰ أمر رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنْ يَتْلو علىٰ الناس آيات الله تعالى ، داعياً لهم إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة ، وداعياً إلىٰ الهدىٰ ودين الحق: بالدليل الساطع ، والبرهان اللامع ، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ .

فقد أمر الله تعالىٰ رسوله الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بتلاوة القرآن علىٰ الناس داعياً لهم ، وهادياً إلىٰ الله تعالىٰ ودينه القويم ، وشَرْعه الحكيم ، ثم بَيَّن نتيجة ذلك أن منهم: من يهتدي ، ومنهم مَنْ يَضلّ بعد ما بلغته الدعوة ، وقامت عليه الحجة ، وأضاءت أمامه المَحَجَّة .

كما بَيّن الله تعالىٰ أنَّ مِن أعظم مواقف النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مع العالم ، ومِنْ أَهَمِّ وظائفه التي أمره الله تعالىٰ بها: تلاوة القرآن الكريم علىٰ العباد ، وتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم ، وبذلك يهتدي العباد إلىٰ سبيل الرشاد ، قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ .

وقد قام رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بذلك أَحَقَّ القيام وأكمله ، وأقومه وأحكمه وأحسنه ، يتلو علىٰ العباد آيات الله تعالىٰ ، وَيُسمعهم ذلك حال كونهم أفراداً وجماعات ، في مجالس خاصة ، وفي محافل عامَّة ، فمنهم مَن اهتدىٰ بنور ذلك الهَدْي ، ومنهم من أعرض وَجَحَدَ بعد ما ظهر له نور الحق وبرهان الصدق: عناداً وكِبْراً ، كما هو شأن كل جبَّار عنيد ، يعرف الحق ولا يَعترف به ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

* * *

القرآن الكريم
كتاب هدي ودعوة إلىٰ منهج الحق
مع الحجج والبينات من الهدىٰ والفرقان

إن كلَّ مَنْ تلا آيات القرآن الكريم أوْ سمعها وتَدَبَّرها يتضح له جَلِيّاً أنَّه جاء بالهدىٰ الثابت بالبينات ، بحيث يحمل العقلاء علىٰ أن يعقلوا ما تضمنته آياته ، وما اشتملت عليه بيِّناته ، ينهض بِأولِي الألباب إلىٰ التبصُّرِ في بصائر آياته ، ويدعو الحكماء إلىٰ التفكر في أحكامه وحِكَمِهِ ، وفي علومه ومعارفه ، وفي معانيه ومفاهيمه ، وأسراره وعجائبه التي لا تنقضي ولا تنفد ، مهما امتدَّت العصور ، وتطوَّرتِ القرون والدهور.

ويَتَبَيَّنُ ذلك من وجوهٍ عديدة لا تُحصىٰ ، وإنما أذكر منها أطرافاً موجزة ، تضيء للباحث المُفكِّر المُتَدبِّر طُرُقَ بحثه وتفكيره وتدبره ، فيعلم يقيناً أنَّ القُرآنَ هو: كتاب دعوةٍ وبرهان ، ودَليل وتِبيان ، لجميع الطبقات ، وعموم البيئات ، علىٰ مَمَرِّ العصور وامتداد الدهور:

الوجه الأول: القرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ ليعقله العقلاء ،

ويتفهمه الحكماء ، لأنه الكتاب الحكيم ، قال الله تعالى : ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ .

فهذا إعلان من الله تعالىٰ لعباده ، صَدَّر بِهِ هذه السُّوَر الكريمة ، يُعلمهم أَنَّ ما جاء به هذا القرآن الكريم هو الحق المحكم ، والمعقول المبرم ، ليس فيه مصادمة للعقول السليمة ، بل إن تلك العقول السليمة لتتلقَّىٰ ما جاء به هذا القرآن الكريم بِحُسْن القبول ، مع الانقياد والتسليم له ، كما أنه لا يستطيع العقلاء أَنْ يَنقضوا الحقَّ الذي جاء به هذا القرآن الكريم ، أو يَرُدُّوه. ويتضح ذلك من جوه متعددة:

أ ـ لقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي الناس إلىٰ العقائد السليمة ، والأعمال الشرعية الحكيمة ، والآداب والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فلو أنه جاء بما ينافي ويعارض عقلاء المكلَّفين لبطلت الحكمة في إنزاله ، وعاد الأمْر عليه بالنقض ، لأنه حينئذ لا تتقبله عقلاء المكلفين؛ فَضْلاً عَنْ أَنْ تعمل بمقتضاه ، وتتحقَّق بما جاء به من عقائد وأعمال وأخلاق ، فإنَّ العمل بغير المعقول لا يَسُوغ عند أهل العقول.

ولكن الأمر الواقع هو أَنَّ الله تعالىٰ بَيَّن في كتابه العزيز الأدلَّة المعقولة المقبولة المحكمة ، ليتلقَّاها العقلاء بالقبول والتصديق ، وليعملوا بمقتضاها ، سواء في ذلك: الأدلة علىٰ الأحكام الإِلٰهية

الإيمانية الاعتقادية ، والأحكام الشرعية العملية.

ب ـ إنَّ مورد التكاليف والخطابات الإلٓهية التي جاء بها القرآن الكريم هو العقل ، فإذا فُقِدَ العقل ارتفع التكليف ، كما هو ثابت في الشرع قَطعاً ، وفي ذلك يقول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «رُفِعَ القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ ، وعن الصبي حتىٰ يَشبَّ ، وعن المعتوه حتىٰ يعقل»[1] ، وفي رواية لأحمد: «وعن المجنون المغلوب علىٰ عقله حتىٰ يَبْرأ».

وهذا واضح في أن ما جاء به الكتاب وكذلك السنة النبوية هو معقول ، بحيث يلزم العاقل المكلَّف أن يعمل بمقتضاه ، فلو أنه كان علىٰ خلاف ما تقتضيه العقول السليمة؛ لكان لزوم التكليف علىٰ العاقل أشَدَّ وأثقل من لزومه علىٰ المعتوه والصبي والنائم ونحوهم ، لأنه لا عقل لهؤلاء يَحْمِلهم علىٰ التصديق بما جاء به؛ أو عدم التصديق.

وأما العاقل فإنه ـ والحالة هذه ـ يأتيه ما لا يمكن تصديقه به عقلاً بل يردُّه العقل ، ومع ذلك هو مُلزم به اعتقاداً وعملاً ، وهذا تكليف بما لا يطاق ، لأنه تكليف العاقل بما لا يُعْقل ، وإن الله تعالىٰ لا يكلف بما لا يطاق.

فإذا كان التكليف بما لا يُعقل ساقطاً عن الذين لا عَقْل لَهُم ، لزم من باب أولىٰ أنْ يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً ، لأنهم حينئذ كُلِّفوا بما تنافيه العقول وترده.

---

(١) عزاه في (الفتح) إلى الترمذي وابن ماجه ، والحاكم ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

إذاً مَنِ المكلَّف بهذه التكاليف الواردة في الكتاب؟ ولمن تَتَوَجَّه الخطابات الإلَهية؟؟!!.

وبناءً على ذلك فَإِنَّ نزول الكتاب الكريم يكون عَبَثَاً ؛ والله تعالىٰ منزَّه عن العبث ، بل له الحِكَم الربانيَّة في إنزاله عزَّ وجلَّ الكتاب ، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنَّ في هذا الكتاب الكريم تربية العالم وصلاحه وفلاحه ، وهداه ونجاحه ، فمن ابتغىٰ الهُدىٰ والفلاح والرشاد والنجاح في غيره فقد ضَلَّ وخاب وخسر . وذلك لأن الذي خَلق العالَمَ هو أعلم بما فيه صلاحه ونجاحه ، ومِنْ ثَمَّ كان الحقّ كلُّ الحقِّ ، ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة: أنَّ الذي يخلق هو الذي يَحْكُمُ وَيُشَرِّع لا غيره ، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فالخالق هو أعلم بما خلق ، والصانع هو أدرىٰ بمصلحة مصنوعه ، وهذا أمر معلوم بالبداهة.

فالله تعالىٰ الذي خلق الإنسان هو أعلم بما أودع فيه من قُوىٰ ومدارك ، وطاقات وقابليات ، وهو أعلم بَكَمِّها وَكَيفها ، ونسبها ومقاديرها ، ويعلم ما فيه من الدواعي والشهوات ، وما يُصلحها ويُعدِّلها ويكمِّلُها ، وهو أعلم بما يفسدها ويضرّ بها.

إذاً فهو سبحانه له الأمر والتشريع ، وإصدار الأحكام التي فيها مصالح العالم وخيره ونجاحه ، لأنه العليم الحكيم ، الذي يضع

الأشياء في مواضعها دون إفراط ولا تفريط ، ويضع الدواء حيث الداء.

وإنَّ حكمة كل حكيم تابعة لعلمه ، وإنَّ علم الله تعالىٰ هو العلم الذي إليه المنتهىٰ؛ ولا منتهىٰ له ، وحكمته فوق كل حكمة؛ ولا حدَّ لها.

فجاء دين الله تعالىٰ قيِّماً مُبرماً ، وجاءت شريعة الله تعالىٰ معقولة محكمة ، فيها كل خير وصلاح وفلاح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما أودع فيه من القوىٰ ، وما فيه من أمشاج مختلطة ودواعي مختلفة ، ثم إنه هداه السبيل ، وبيَّن له طريق الخير من الشر ، وما فيه صلاحه وفساده ، وسعادته وشقاوته ، بواسطة الشرائع التي أنزلها علىٰ رسله صلوات الله تعالىٰ عليهم ، فقامت الحُجة ، وأضاءت المحَجَّة ، فكانت النتيجة بعد تبصر الإنسان واختياره: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ج ـ لو جاء القرآن الكريم إلىٰ الناس بما ليس بمعقول لردَّه الكفار لأوَّل مرة ، بحجة أنه غير معقول ، وأنه مخالف للعقول ، لأنهم كانوا في غاية الحرص علىٰ ردِّه ونقضه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا ذلك ، لأنهم عَقَلُوه وعَرَفُوا أَنَّ ما جاء به هو الحق.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

والمعنىٰ أنهم يَعلمون عِلْمَاً جازماً أنها الحق، ولكنهم يَجحدون بعد علم، ولا يعترفون عصبية وكبراً.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

والمعنىٰ أنهم يجادلون في آيات الله تعالىٰ بغير برهان ولا حجة، بل يدفعون الحق الذي جاءهم به القرآن بالباطل الذي عندهم، ويردُّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، وهم في ذلك لا يَبلغون ما يَبْتَغونه من إجحاد الحق القرآني، وإعلاء باطلهم المختلِفِ، لأنَّ الحق لم يَزَل مَرفُوعَ الراية، وأما الباطل فهو موضوع الغَاية من البداية إلىٰ النِّهاية، فَاسْتَعِذْ بالله مِن حالهم.

فعنادهم الناشىء عن كِبر النفس، والعصبية الجاهلية، ذلك أعماهم وأصمَّهم، فراحوا يفترون الكذب، ويصفون القرآن الكريم بأوصاف متناقضة، وفي هذا دليل بطلان كلامهم، وحَقِّيَّةُ كلام الله تعالىٰ.

فتارة يقولون: هو سحر، وتارة فيه شعر، وتارةً يقولون عنه: مفترىٰ، وتارة يقولون: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾، وتارة يقولون عنه: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

هذا تناقض منهم ، لأنها أقوالٌ كاذبة ، والكذب ليس له حقيقة حتىٰ يثبت عليها ويستقر.

وإليك هذه الواقعة شاهداً علىٰ ما سبق:

روىٰ الحاكم في (مستدركه) ، والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقرأ عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القرآن ، فكأنَّهُ ـ الوليد ـ رَقَّ له ـ أي: رقَّ قلب الوليد لعظمة القرآن ـ.

فبلغ ذلك أبا جهل ، فَأَتاه فقال له ـ أي: للوليد ـ: يَا عمّ إنَّ قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنَّك أتيتَ محمداً لتتعرّض لِما قِبَلَه.

فقال الوليد: قد عَلمتْ قريش أَني مِن أكثرهم مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه ـ أي: في القرآن ـ قولاً يبلغ قومك أنك مُنكر له ، أو أنك كاره له.

فقال الوليد: فماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، فوالله ما يشبه الذي يقول ـ محمد ـ شيئاً من هذه ، والله إن لقوله ـ أي: قُرآنه الذي يقرأه ـ لحلاوةً ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومُغْدِق أسفله ، وإنَّه ليعلو وما يُعلىٰ عليه ، وإنه ليُحطِّم ما تحته.

فقال له أبو جهل: لا يَرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه ـ أي: حتىٰ تقول غير الذي قلت ـ.

قال الوليد ـ لأبي جهل ـ: فدعني حتىٰ أُفَكِّرَ ـ ففكَّر ـ فلمّا فكّر

قال: هذا سحر يؤثر ، يأثره ـ أي: ينقله ـ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن غيره ، فأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ الآيات.

فلقد عرفوا الحق الذي جاء به القرآن الكريم وعقلوه ، واعترفوا به وأقـرُّوه ، ثم جحدوا بآيات الله تعالىٰ ظُلماً وعناداً ، وتعصُّباً لجاهليتهم.

وهذا كما هو في المشركين ، كذلك الأمر في كَفَرةِ أهلِ الكتاب قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يَعلَمون الحق الذي جِئْتَهم به عِلْماً جازماً ولكنهم يكتمونه.

د ـ إنَّ من تدبَّر في آيات القرآن الكريم ، يرىٰ فيها أنواعاً من البيِّنات والبراهين العقلية ، التي يُعلِّمها الله تعالىٰ عباده المؤمنين ، ليقيموا بها الحجة علىٰ أهل الباطل ، ويَرُدُّوهم إلىٰ الحق المبين:

فيقول سبحانه في برهان التوحيد والردّ علىٰ المشركين: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الآية.

ويقول: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ الآية ـ وسيأتي توضيح هذه الأدلة في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ الزاعِمين أنَّ هذا القرآن الكريم تَلَقَّاه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من أَعْجَمِيٍّ

زَعَمُوْهُ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وفي سياق الردِّ علىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ هذا القرآن الكريم جاء به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مِنْ كُتب مَنْ قبله، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

ويقول في ذلك أيضاً: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ هذا القرآن الكريم قد افتراه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

فَتحدَّاهم وأثبت عجزهم في حالِهم، وَسَجَّل عليهم عجزهم في مآلهم، وَعَجْزَ كلَّ مَنْ يأتي بعدهم، ثم أنذرهم عذابه لعلهم يرجعون إلىٰ صوابهم واعترافهم بحقية كتاب ربهم سبحانه.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ أدعياء الربوبية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري الخالق الصانع: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري البعث والقائلين بعدم

القدرة علىٰ ذلك: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي: يعيدهم ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

فَخَلْقُ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، والذي قَدَر علىٰ خلق الأكبر فهو من بابٍ أولىٰ قادر علىٰ إعادة الأصغر بَدَاهةً. وسنأتي علىٰ توضيح هذه الأدلة في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

هـ - إنَّ كلَّ مَنْ قرأ القرآن الكريم، يرىٰ أَنَّ الله تعالىٰ حين يَذْكر آيات الإيمان والتوحيد: يُنبِّه العقلاء إلىٰ التعقل والتفكر فيها، كما أنه سبحانه حين يذكر آيات التشريع: يَحُثُّ عباده علىٰ التعقل بما فيها:

فيقول سبحانه في آيات التوحيد: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ والمعنىٰ: إنَّ قضايا التوحيد والإيمان معقولة: فاعقلوا.

ويقول سبحانه في آيات التشريع، بعد ما ذكر أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والقتال في سبيل الله، وأحكام الخطبة والزواج، وأحكام الطلاق والعدَّة، وغيرها من الأحكام التشريعية، يقول سبحانه بعد ذلك كله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كما في سورة البقرة.

إذاً فالقرآن الكريم جاء يُنادي العباد العقلاء، ويخاطبهم في

إطار العقل ، وَمُحيط الفكر ، ليعقلوا ما نَزَل به من الأوامر المعقولة المحكمة ، المدلَّل علىٰ حَقِّيَّتِها بالأدلة القاطعة ، فإذا عقلوا ما جاء به القرآن الكريم صار عندهم علم جازم بحقية ما جاء به ، وما فيه من مصالح العباد وسعادتهم ، فيدخلون في دائرة العلم الجازم ، الذي ينتهي بصاحبه إلىٰ كل خير ، ويبعده عن كل شر.

قال تعالى: ﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعقلون فيعلمون . وإن العلم الجازم ليَحملُ صاحبه علىٰ العمل بمقتضىٰ ما عَلِمه ، ما لم يصدَّه عن ذلك عناد الكبر أو اتباع الهوىٰ ، وهذان أعظم أسباب صَدِّ الناس عن الاعتراف بالحق والإذعان له ، فإنَّ العلم الجازم بحقية الحق لَيحملنَّ صاحبه علىٰ الإذعان للحق وَيُلزمه بذلك.

قال تعالىٰ في قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: هل آمنتم علىٰ علمٍ قطعي بذلك ، بعد أَنْ عقلتم وفَكَّرتم وتبصرتم ، أم أُخِذتُم بالمسايرة والمغافلة والمغالطة؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: نحن علىٰ علم جازمٍ بحَقِّيَّة رسالته، وحقية ما جاء به ، وعِلْمُنا بذلِك حَمَلَنا علىٰ الإيمانِ بما أُرسل به ، وما وصلنا إلىٰ العلم الجازم إلا بعد تعقل وتبصُّر.

فالعلم الجازم يَحْمل صاحبه علىٰ العمل بموجبه ، ما لم يحجبه العناد أو الهوىٰ كما تقدم ، قال تعالىٰ في الكفار: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ فهذا هو عناد الكبر . وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ وهذا هو اتباع الهوى . وإِنَّ اتباع الأهواء يؤدي إلىٰ الفساد ، قال تعالى:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ .

فقد تبيَّن لك أيها العاقل مِمَّا تقدم ذِكْره: أنَّ ما جاء به القرآن الكريم هو المعقول المحكم ، فما علىٰ العقلاء إلا أَنْ يعقلوا ، وما علىٰ الحكماء والفطناء إلَّا أنْ يتدبروا ويتفكروا ، لأن في آياته الكريمة منار العقول ، ومنابع الحكمة ، ومعاقل العلم ، ومستنبط الفهم ، ومواقع التذكر ، وميادين التفكر ، وأجواء الاعتبار والتبصُّر ، فإذا عقلوا علموا أنَّه الحق؛ فيجب عليهم أن يخلعوا ربقة الهوىٰ ويؤمنوا به .

ولذلك وبَّخ سبحانه الذين لا يعقلون ما جاء به هذا الكتاب الكريم فقال سبحانه: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .

ونعىٰ سبحانه علىٰ الذين يُعرضون عنه ، ولا يستمعون إليه ويعقلون ما جاء به فقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ .

وهذا شأن المبطل الضَّال ، والجاحد المعارض ، والمعاند الذي لا يريد الحقّ ، فإنه يعرض عن كل ما يهديه إلىٰ الحق ، ولا يسمع القول الحق ، ولو أنه ألقىٰ سمعه إليه ، وأحضر قلبه لديه: لاهتدىٰ به ، وانجذب إليه. فإنَّ الحق يجذب القلوب والعقول التي تبتغي الحق وتميل إليه .

فَمَنْ قصد الوصول إلىٰ معرفة الحق ، فطريق الحق واضح مُبيَّن في القرآن الكريم ، ولكن الواجب علىٰ القاصد أن يتجرَّد من ثوب الكِبر النفسي ، ويتباعد عن الهوىٰ النفسي ، فلا بدَّ له أن

يعرف الحق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم هو الحق ، ولا بدَّ أنْ يعترف به.

أما إذا لم يتجرد من ثوب كبريائه ، ولم يتجنَّب داعية هوىٰ نفسه: فَإِنَّ القرآن يوصله إلىٰ معرفة الحق لا محالة ، ولكن كبر نفسه وهواها يَصدَّانه عن الاعتراف به ، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي: أنَّ سبب عدم استجابتهم وإقرارهم واعترافهم ليس هو عدم معرفة الحق؛ بل يعرفونه ، لأن الحقَّ بَيِّنٌ أبلج ، ولكن سبب ذلك اتباع أهوائهم المنحرفة.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعلَمون أنَّه الحق ، ولكن لا يعترفون ولا يُقرُّون به جحوداً وكبراً ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

الوجه الثاني: إنَّ القُرآن الكريم جاء ينادي العقلاء بالتبصُّر ببصائره ، وبالتدبُّر في آياته ، وبالتذكر بذكرياته ، ويُحذر من الغفلة والغشاوة والعماوة:

قال الله تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

وهذه البصائر القرآنية هي بيِّنات القرآن وأدلته وحججه ، وقد

بيَّنها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي قال الله تعالىٰ له: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

فهي بصائر تبصِّر القلوب وتنور العقول ، كالنيرات المنيرات للأعين البصرية ، فمن فتح عَينَيه للنور اهتدىٰ للأمور ، ومشىٰ سالماً آمناً ، دون تَخَبُّط ولا تخليط ، ومَنْ تعامىٰ بأَنْ أَغمض عينيه سقط في المهاوي ، وهلك في المهالك ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

والعمىٰ الذي يَجعل صاحبه شقياً في الدنيا والآخرة هُوَ عمىٰ القلب عن نور الرَّبِّ ، النازل علىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، فأخبر سبحانه أَنَّه أنزل هذا الكتاب الكريم للتذكر والتفكر فيما جاءهم به ، وخصَّ سبحانه بالتذكر والتفكر أهل العقول السليمة وهم أُولو الألباب ، لأنَّ شأن مَنْ عقل دلائل الخيرات وطرق السعادات أن يسلك مسالكها ، وينتهج منهاجها ، بُغْيَةَ الوصول إِلىٰ لبابها وكمالها ، وقِمَمِ عَليائها.

جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فقال: وما تَدَبُّر آياتِه إلا اتباعه بعقله ، أما والله ما هو ـ أي: التدبُّر ـ بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتىٰ إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن وما أُسقِط منه حرفاً ، وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه ، فما يُرىٰ

القرآن في خُلُق ولا عمل. اهـ أي: بل الواجب أن تظهر آثار القرآن في خُلُقِ القارىء وعمله.

وقد ذمَّ الله تعالىٰ الذين لا يتدبَّرون القرآن الكريم وشنَّع عليهم، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وأما التذكُّر والانتفاع بذكرياته فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وفي هذا خبر من الله تعالىٰ مُؤَكَّد عن أمر عظيم الوقع، حقيق النَّفع، إذا توفَّرت شروطه لا يمكن تخلّفه، وفي هذا نوع من التحدِّي لمن لا يثق بذلك ويصدقه.

وذلك أن مَن كان له قلب، ومن شأنه أن يعقل به، وأحضر قلبه وجمعه علىٰ تفهم هذا القرآن وتدبُّره، ولم يَتَسَبَّب في إعراض قلبه وتفرّقه، فإنه لا بدَّ أن ينتفع بهذا القرآن الكريم، وتحصل له الذكرىٰ التي تنفعه في الأولىٰ والأخرىٰ.

كما أنه لو ألقىٰ السمع وأصغىٰ مقبلاً علىٰ هذا القرآن الكريم، فلا بدَّ من أن ينتفع به، وتحصل له الذكرىٰ والطمأنينة القلبية، والقناعة العقلية.

وقد قال العلامة المفسر ابن عطية: والقلب هنا ـ أي: في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ ـ قال: هو عبارة عن العقل، إذْ هُو ـ أي: القلب ـ محله. اهـ.

يعني: أَنَّ القلب محل العقل، فأطلق المحلَّ وأراد ما حلَّ فيه وهو العقل.

وفي هذه الآية الكريمة بيان أصناف الناس بالنسبة لتذكرهم بالذكر القرآني وانتفاعهم بذكراه:

فالصنف الأول: هو مَنْ كان له قلب زكيٌّ واعٍ، بحيث إذا جاءه أدنىٰ تذكير وتنبيه تذكَّر وازدجر، واهتدىٰ للحقِّ واعتبر، وسلك سبيله. فهو سليم الفطرة، صحيح الفكرة، كامل الاستعداد، قابل للحق والإمداد، إذا تَجلَّىٰ له نور الله تعالىٰ في كلامه انجذب قلبه إليه، واستسلمتْ نفسه مُطمئنةً لديه؛ وهذا حال كُمَّل الناس، الذين استجابوا لدعوة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين أسمعهم كلام الله تعالىٰ، وإلىٰ هذا الصنف يشير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

والصنف الثاني: مَنْ إذا جاءه الهدىٰ وتُلِيَ عليه كلام الله تعالىٰ يحتاج إلىٰ إلقاء سمعه، وإحضار قلبه، وجمع فكرته، وبذلك يَتبيَّن له وجه الحق الذي جاء به القرآن الكريم، فيعلم حَقِّيَّتَهُ وصدقه، ويؤمن به، ويتشرَّبه قلبه ويذوق حلاوته؛ وإلىٰ هذا الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

والصنف الثالث: مَنْ ليس لَهُ ذلك القلب، ولا عنده ذلك الإلقاء السَّمْعِيُّ، ولا الإصغاء، فهذا النوع يُدْعَون بالمُجَادلة بالتي هي أحسن، فلا بدَّ أنهم يستجيبون ولو بعد حين، كما يتضح ذلك في كثير من الوقائع الآتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

والصنف الرابع: هُمُ المُعَانِدون المُعَارضون، الذين يُدْعون إلىٰ

الحق عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن ، والمناظرة المدعومة بإقامة الأدلة والحجج ، فإذا هُمْ يُعَارِضُون ويُعَاندون بعدما تبين لهم الحق؛ وظهر برهانه ، فهؤلاء بعدما تقوم عليهم الحجة ، وَتُضيء لهم المحجَّة ، يُصار بهم إلىٰ الجدال بالغِلْظَة ، والأَخْذِ بالشِّدَّةِ والعنف ، لاستخراج عنادهم المانع لهم عن قبول الحق وسلوك طريقه.

الوجه الثالث: القرآن الكريم يُعلن للناس أنه جاءهم بالبرهان والنور والبيان ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وفي هذا الإعلام والإعلان العامِّ ، يتحدىٰ سبحانه جميع عقلاء الأنام ، وذلك أنَّ الله تعالىٰ لما أعلم عباده بأن هذا القرآن الكريم جاء بالبرهان القاطع ، والنور الساطع ، فهو بذلك يتحدَّىٰ كلَّ مَنْ تُحدثه نفسه بالمعارضة أو المناقضة لبرهانه ، أي: فَمَنِ استطاع أن يَنْقُضَ برهانه ، ويرد حجته فليتقدم ببرهانه وحجته، وفي هذا منتهىٰ الغلبة والإفحام لكل جاحد ألَدَّ الخصام.

كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: هذه براهين ربِّ العالمين ، فهاتوا أيُّها المُخالِفُون المُنْكرون برهانكم علىٰ ما تَدَّعون إن كنتم صادقين.

وفي هذه الآية الكريمة أيضاً بَيانٌ وتنبيه إلىٰ أنَّ ما جاء به القرآن الكريم فَهُوَ ثابت بالبرهان القاطع الذي لا يُنقَض ، لأنه برهان من رب العالمين ، أقامه حُجَّةً علىٰ جميع العباد: علىٰ مختلف أجيالهم وطبقاتهم ومستوياتهم وتفاوت ثقافاتهم.

ذلك لأن الله تعالىٰ كما أنّه هو الغالب في قدرته وإرادته

وسلطانه ، فهو الغالب في حجته وبرهانه ، وليس بمغلوب جَلَّ وعلا ، قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ ، وجميع حجج المخالفين له داحضة.

ومِنْ ثَمَّ أَمَرَ الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يعلن جاهراً بقوة حجته ، وصدق بَيِّنَتِهِ ، فقال له سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: كذبتم بعد ما بَان لكم نورٌ مبين ، وهو القرآن المعجز ، وما جاءَ فيه من البينات والحجج ، التي تجعل العاقل علىٰ يقين وبصيرة ، دون شك وعماوة ، وفي هذا يقول سبحانه لحبيبه رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ وفي هذه الآية الكريمة إعلان أيضاً بُوضوح سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وإشراق نورها ، وذلك بسبب قوة أدلتها وضياءِ بَيِّنَاتِها.

ولذا قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «تَرَكْتُكُم علىٰ مِثْل البَيْضَاءِ ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ».

وروىٰ ابن ماجَهْ ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ونحن نَذكر الفقر ونَتَخوَّفُهُ.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «الفَقرَ تخافون؟! والذي نفسي بيده لَتُصبَّنَّ عليكم الدنيا صَبّاً ، حتىٰ لا يُزيغ قلب أحدكم إزاغةً إلَّا هِيهْ ، وأيْمُ الله لقد تركتكم علىٰ مِثل البيضاء: ليلها ونهارها سواء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق والله رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ، تَرَكَنَا والله علىٰ مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

الوجه الرابع: الله تعالىٰ يأمر النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُجاهد بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

وجهاد الكفار بالقرآن هو جهادهم بحججه، ومجادلتهم بإقامة بيِّناته، وهذا هو جهاد اللسان بالحجة والبرهان، وهو أكبر وأشدُّ علىٰ المخالفين من جهاد السيف والسِّنان، ولذا سمَّاه الله تعالىٰ جهاداً كبيراً.

وهذه الآية الكريمة تَدلُّ علىٰ أُمورٍ هامَّة، ومن أهمِّها ما يلي:

الأول: الأمر بمجادلة المنكرين ومجابهتهم بالبيِّنات والحجج المزيلة لشبهتهم، والمبطلة لمزاعمهم، والدامغة لأدلَّتهم، حتى تَزول شكوكهم وشبهاتهم، ويتسرَّب نور الإيمان إلىٰ قلوبهم، فتذهب ظلمات الشكوك والشبهات بأنوار الحجج والبينات.

الثاني: قوله سبحانه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ فيه دليل صريح علىٰ أن سيف حجج القرآن هو سيف باتر قاطع، يقطع دابرَ حجج الكافرين، ويَدحض شبهاتهم، ويبطل ضلالاتهم، علىٰ مختلف ألوانها وأنواعها ومنشئها، وأنه ما مِنْ ضَلالةٍ ولا شُبهةٍ ولا باطل إلَّا وفي هذا القرآن الكريم ردٌّ عليه، وإبطال له، بحجج معقولة، وبينات مقبولة، يَعْلَمُ ذلك مَنْ تَدبَّر آيات الله تعالىٰ وتفكر فيها.

ومن أجل ذلك أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يجاهد بالقرآن جميع الكافرين فقال له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا﴾ أي: جاهد بهذا القرآن جميع الكافرين، علىٰ

مختلف مِلَلِهِم ونِحلهم ، وأنواع كفرهم وضلالاتهم ، واختلاف اتجاهاتهم وشبهاتهم.

فلولا أنَّ سيف حجج القرآن قاطع ، ومُدَمِّر لجميع تلك الأبَاطيل والضلالات ، ما أمر الله نبيه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُجاهد به الكافرين علىٰ مختلف شبهاتهم وضلالاتهم.

وهل يَتصَوَّر العاقل أن الله تعالىٰ يُعطي رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم سَيْفاً مَثْلُوماً غير قاطع ، ثم يأمره أن يجاهد به جميع الكفار والمنكرين ، فإنَّ ذلك يعود علىٰ دعوته بالنقض والخذلان.

كلاَّ ثم كلاَّ ـ بل لَمَّا أمره الله تعالىٰ بذلك عَلِمْنا يقيناً أَنَّ في القرآن حجة قاطعة مفحمة لجميع أولئك ، وأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلىٰ عليه ، كما اعترف بذلك الجاحدون.

الثالث: مِنْ هنا يعلم العاقل أَنَّ القرآن الكريم جاء بالبراهين والحجج الدامغة للأباطيل والأضاليل ، مهما تنوَّعت أسبابها ، واختلف ألوانها علىٰ مدىٰ الأيام.

وقد جادل النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جَميع طوائف الكفار ، وأقام عليهم الحجج المفحمة لهم ، كما أمره الله تعالىٰ في هذه الآية ، وفي قوله: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾.

وكانت نتيجة ذلك:

أَنَّ منهم مَنِ اهتدىٰ وأسلم.

ومنهم من عاند ولكنه جنح إلىٰ السلم ، والرضىٰ بالذمةِ ودفع الجزية ، كما عليه أهل الكتاب.

ومنهم مَنْ عاند وعارض ، وقد قامت عليه الحجة ، وأضاءت

له المحجَّة ، فحمله كِبر النفس وعتوها على محاربة النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ، بَعد ما عجز عن ردّ حجج رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وإبطال أقواله ، حين ذاك أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحرب عليهم بعد ما بارزوه بالمحاربة ، فما خالفه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أعداؤه إلا عِناداً منهم ، وميلاً إلى المكابرة بسبب الكبر؛ بعد اعترافهم بصحة حجته وصدق دعوته.

ومِنْ هنا يعلم العاقل أنَّ هذا الدين إنَّما قام على دعائم الحجج والبراهين ، التي فيها ابتلاج الحق وزهوق الباطل ، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾.

وأما قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فهذا بعد إقامة الحجة عليهم.

والمعنى: أنه لا خصومة بعد ما ظهر البُرهان ، وقامتْ الحجة ، واتَّضح الدليل ، لأنه لم يبق بعدُ للاحتجاج والمخاصمة فائدة.

فمتى وضح الحق واستبان ، وظهر نور البرهان ، لم يبق إلاَّ الإقرار بالحق والاعتراف به ، فمن تكبَّر وعاند يقال له: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة فيقضي بالحق للمحقِّ على المبطل ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾.

الوجه الخامس: إنَّ الله تعالى خَاطب العباد مِن قِبَل ألبابهم ، واحتجَّ عليهم بما ركَّب فيهم من عقولهم ، فكلّ بالغ من الجنِّ والإنس مِمَّن أمره الله تعالى ونهاه ، ووعده وأوعده ، بإرسال النذر

وإنزال الكتب وما فيها من الآيات التدوينية المتلوَّة ، وبما أشهده من آثار آياته التكوينية ، فإن الحجَّة على العاقل قائمة ، وذلك لأن الله تعالىٰ أنعم عليه بالعقل ومعرفة البيان ، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ ، وقال سبحانه: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وأخبر سبحانه عن الكفار وعنادهم بعد ما ظهر الحق ، وجاءهم الهدىٰ من الله تعالىٰ وعقلوه ثم أعرضوا عنه معارضين ومعاندين ، فقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: بَيَّنَّا لهم طريق الحق من الضلال ، علىٰ وجه يعقلونه ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

وقال تعالىٰ في الجاحدين للحق الذي بيَّنه الله تعالىٰ لهم ، وكفروا به بعد ما عقلوه وعلموه ، قال تعالىٰ فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يُنكرونها بعد ما عرفوا حَقِّيَّتها ، ويكذبون بها بعد ما عقلوها ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وقال سبحانه في الجاحدين من أهل الكتاب بعد ما عرفوا الحق الذي جاءهم به القرآن الكريم ، وراحوا يُحَرِّفونه: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعلمون عِلماً جازماً بِحَقِّيَّة كلام الله تعالىٰ وآياته ، ويعلمون بطلان ما حرَّفوه وبدَّلوه .

وذلك لأنَّ كل مَن استمع إلىٰ آيات الله تعالىٰ القُرآنية ، وأشهدها قلبه: لا بدَّ أن يَعْلم حَقِّيَّتها ، ويعرف صدق ما جاءت به ، لأنها جاءت آياتٌ لقوم يعقلون ، ولقوم يعلمون ، وآياتٌ

لأولي الألباب ، كما أن كل عاقل أجال عقله فيما يشاهده ويراه من آيات الله التكوينية ؛ فلا بدَّ أن يعلم علماً جازماً بأن الله تعالىٰ هو الحق المبين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

وَمِنْ ثَمَّ أخبرنا الله تعالىٰ عن اعتراف الكفار المعاندين ـ يوم القيامة ـ بتفريطهم وذنبهم ، وأنهم هم الذين جنوا علىٰ أنفسهم وظلموها ، قال تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا ﴾ أي: النار ﴿ فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

فلو أَنهم ألقوا أسماعهم إلىٰ ما يُتلىٰ عليهم من آيات الله تعالىٰ ، وأشهدوها قلوبهم لاهتدوا ، أَوْ أنهم عقلوا عن الله تعالىٰ أوامره التي في كتابه النازل علىٰ رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وتبصّروا حكمتها ومنافعها ، وأنصفوا في مواقفهم معها لعرفوا يقيناً أنها الحق ، ولا هتدوا إلىٰ سبيل الرشاد ، ولكن صدَّهم عن ذلك كله الكبر والعناد ، فسلكوا طريق الشرِّ والفساد ، فالعاقل هو الذي يعقل عن الله تعالىٰ أمره ، ويُعمل في حكمة شرع الله تعالىٰ فكره.

روىٰ أبو نُعيم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «كَمْ مِنْ عاقلٍ عقل عن الله تعالىٰ أمره وهو

حقير عند الناس ، ذميم المنظر : ينجو غداً ـ أي : يوم القيامة ـ وكَمْ مِنْ ظَريف اللسان ، جميل المنظر عند الناس : يَهْلِك غداً يوم القيامة» .

وقال تعالىٰ محتجّاً علىٰ الكفار حين يُدخلهم النار : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ، فاحتج عليهم بعقولهم .

ومِنْ ثَمَّ ترىٰ أن القرآن الكريم يَهيب بالعقلاء حين يذكر لهم آياتٍ تكوينية وتشريعية ، يهيب بهم أن يُهملوا عقولهم ويعرضوا عن التفكر فيها والتعقُّل ، فيقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا تَعْقِلُونَ مَا فيه من التذكير ، وما ذكر لكم فيه .

وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ والمعنىٰ : أين تُصْرَف عقولكم وتؤخذ ، هلاَّ استرجعتم عقولكم وعقلتم بها ، وتفكرتم فيما خلق الله تعالىٰ من شيءٍ ، فإن كل شيءٍ قَلَّ أو كثر ، صغر أو كبر : يدل علىٰ الله تعالى ، وعلىٰ سعة علمه ، وكمال حكمته وقدرته سبحانه .

الوجه السادس : إنَّ الله تعالىٰ وصف القرآن بالحكمة وبالعزة ، وهذا يقتضي وُضوحه في الحجة وقوَّته في الدليل ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

فقد بيَّن الله تعالىٰ لعباده أن هذا القرآن نَزل مِنْ لَدُن حَكِيم عليم ، وأنَّه القرآن الحكيم ، وأنه الكتاب الحكيم .

والمعنىٰ: أن هذا الكتاب أُحكِمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ، فهو المحْكَم بمبانيه ومعانيه ، وكلماته وبيِّناته ، لا خلل في ذلك ولا نقص ، ولا سبيل إلىٰ معارضة ذلك ولا نقض ، فهو الرصين الحصين ، والحق المبين.

وهو الكتاب الحكيم ـ أي: ذو الحكمة ـ الجامع لأصناف الحكمة ، فجميع ما جاء به فهو الحكمة التي فاقت كلَّ حكمة ، بل هو ـ أي: القرآن الكريم كما أخبرنا الله تعالىٰ ـ إليه المنتهىٰ في الحكمة قال تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾. وحُقَّ لِكِتَابٍ جَاءَ بِالحِكْمَةِ البالغة أن تكون حججه دامغة ، وأدلته قاطعة ، وإرشاداته نافعة ، لأن الحكمة منبع كل خير ، ومنار كل برّ: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ ﴾ ، وإنَّ كتاب الله تعالىٰ هو مَجمَع الحكم ، ومنبع العلم ، ومَيْدان الفهم.

وكما وصف الله تعالىٰ الكتاب بالحكيم ، وصفه سبحانه بأنه كتاب عزيز: قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ قال: ممتنع عن الناس أنْ يقولوا مثله.

والمعنىٰ: أنَّ هذا الكتاب هو عزيز لا يُدانىٰ ، ولا يُساوىٰ ، ولا يُسامىٰ ، بل له التفوّق المنيع والمجد الرفيع ، والهيمنة والسلطنة علىٰ جميع ما سواه من الكتب ، فعزَّته تقتضي تعاليه وغلبته علىٰ غيره؛ كما هو مفهوم العزَّة لُغَة ، ولذا كان من شأنِ هذا الكتاب العزيز أنه كما وصفه الله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي: لا يمكن أن يتسرَّب إليه أيُّ باطل.

وهذا العموم المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ يتناول أموراً متعددة نذكر جملةً منها:

الأول: لا يأتي الباطل إلىٰ بَراهينه وحُجَجه، والمعنىٰ: أن حُجج القرآن وبراهينه كلها حق وحقيقة، فهي تُبطل كلَّ ما خالفها من حجة وبرهان، وتُثبت بطلان تلك الحجة والبرهان المخالِفين للقرآن الكريم.

أما حجج القرآن وبراهينه فَإِنَّها لا تُبطلهما أيّ حجة، وأيّ برهان، لأنه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، فحججه غالبة غير مغلوبة، صادعة غير مصدوعة، ودافعة غير مدفُوعة: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾.

الثاني: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ بتبديل أو تحريف كلمة أو زيادة فيه أو نقص، فهذا الباطل بألوانه كلها لا يمكن أن يتسرَّب إلىٰ هذا الكتاب العزيز، فإنَّ الزيادة باطلة ليستْ منه، ومبطلة لإعجازه، لأن الزيادة لا تبلغ حد الإعجاز باعتبار أنها من كلام البشر، والنقصُ منه أيضاً باطل لأنه يُبطل ما هو حق ثابت فيه، ومخلّ بإعجازه، لأنَّ نقص كلمة أو جملة تخل بإعجاز الباقي، ومن البديهي أن إعجاز القرآن هو الوصف الملازم الذي لا ينفك عنه؛ كملازمة العربية له.

فلو أنك جرَّدت القرآن الكريم عن العربية لخرج عن كونه قرآناً، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ

﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

وكذلك صفة الإعجاز لا تنفك عنه ، فإن الله تعالىٰ تحدَّىٰ به الأولين والآخرين بإعجازه ، وأعلن عجزهم عن الإتيان بمثله لإعجازه ، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ الآية ، فلو زِيْدَ فيه أو نَقُصَ: لأخل ذلك بإعجازه ولأمكن الإتيان بمثله.

الثالث: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي: لا يأتي الباطل إلىٰ أحكامه التشريعية ، فإنها قائمة علىٰ عدله وحكمته ، فجميع الأحكام التي شرعها مستندة إلىٰ حكمته سبحانه ، الإلٰهية العالية التي لا تدانىٰ ولا تسامىٰ ، وإن حكمته سبحانه هي مقتضىٰ علمه ، وعلمُه مُحيط بكل شيء ، وهو بكل شيء عليم.

الرابع: لا يأتي الباطل إلىٰ إخباراته الغيبية ، فما أخبر عنه مما مضىٰ وهو المراد بقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ فهو واقع حقاً ، وما أخبر عنه أنه سيكون وهو المراد بقوله: ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ فلا بُدَّ أن يكون ويقع ، وإنَّ تَحقُّقَ وقوع ما أخبر عنه فيما مضىٰ لهو أكبر دليل علىٰ تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما سيكون.

وقد أقرَّت جميع الأُمم والطوائف ما أخبر عنه القرآن الكريم من الوقائع السابقة ، ولم يجدوا سبيلاً إلىٰ إنكار شيءٍ منها ، ولو أنهم استطاعوا تكذيب شيء منها لاحتجوا بها علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولعارضوه ، وقالوا: أنتَ تقول بوقوع كذا ولم يك شيء من ذلك ـ فتكون لهم الحجة.

ولو أن شيئاً من ذلك لم يك مسلَّماً عند الأمم ، ومعلوماً لديهم في جملة الإخبارات التاريخية الماضية ، لما جاءهم بها رسول الله

صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لأن العاقل الحكيم لا يفتح علىٰ نفسه باب نقد واعتراض لا يستطيع إغلاقه ، فكيف يُعلن لهم وقوع أمور لم يثبت وقوعها؟!!.

لا ولا ، وإنَّما جاء القرآن الكريم يُخبر عن أمور واقعية لا يستطيع أحد إنكارها: لا من أهل الكتاب ، ولا مشركي العرب؛ ولا غيرهم.

الخامس: لا يأتي الباطل إلىٰ الحقائق العلمية التي كشف عنها القرآن الكريم أو أقرها؛ مهما امتدت العصور ، وارتفعت الفنون ، وتقدمت العلوم ، واتسعت دائرة الاكتشافات العلمية ، والمخابر والمكبرات والأجهزة الفنيَّة ـ كما سيتضح ذلك بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه الوجوه التي ذكرناها حول الآية الكريمة ، كلُّها واردة عن السلف الصالح ، وإن عموم الآية ليشملها كلها وغيرها ، فإنها غير متنافية بل متنوعة متلازمة ، وإنَّ أمثال هذا في القرآن الكريم كثير كما هو مفصل في أصول التفاسير.

وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها إعلان التحدِّي العامّ لجميع العالم ، بأنَّ من لم يوقن بذلك ، ولم يؤمن بخبر الله عن ذلك ، وراح تحدثه نفسه بالمعارضة والإنكار ، فليتقدم لنقض شيء من تلك الفصول الداخلة تحت عموم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ولا شك أنَّه يَرجع بعد العجز خاسِئاً وهو حسير.

فإنَّ الأمر الواقع قد أثبت حَقِّيَّة ما أخبر عنه القرآن الكريم ، وصِدْقَ ما جاء به من البينات والأدلة، ولم يستطع أحد من

الحكماء ، ولا العقلاء ، ولا أدعياء الثقافة والحصافة: أن يأتوا بدليل قاطع يبطلون به ما أثبت القرآن الكريم حقيته ، أو يُحقّون ما أثبت بطلانه وفساده ، أو يأتوا بما هو أهدىٰ للأمة ، وبما هو أصلح لها من الأحكام التشريعية الإلٰهية الكافلة للمصالح البشرية ، وفي ذلك كله تتجلّىٰ معاني: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

الوجه السابع: إنَّ الله تعالىٰ سَمَّى هذا القرآن الكريم: فرقاناً ، وهدىً ، وبياناً ، وتبياناً لكل شيء ، ونوراً ، وبصائر ، ودعا سبحانه جميعَ العقلاء إلىٰ التفكر فيما جاء به ، والتذكر والتبصر والتدبر والاعتبار ، وفي هذا حجة الله تعالىٰ علىٰ جميع مَنْ كانوا ، وأين كانوا ، ويتضح ذلك من وجوه متعددة:

الأول: إن في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ .

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ .

إنَّ في ذلك كله إعلاناً من الله تعالىٰ عاماً ، وإعلاماً لجميع عباده بحجيَّة هذا القرآن الكريم ، وقوة برهانه ، ووضوح بيانه ، وظهور تبيانه ، وحَقِّيَّةِ هَدْيِهِ ، وهيمنة سلطانه.

وجلَّ الله تعالىٰ الحكيم العليم وعزَّ عن أن يعلن ذلك لعباده ثم

تكون حقيقة الأمر وواقعه خلاف ذلك ، تعالىٰ الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

فإن أَدْنَىٰ مَنْ له حظٌّ من العلم والحكمة يتعالىٰ عن ذلك ، فما ظَنُّكم برب العالمين ، الذي نَزَّل القرآن بعلمه وبحكمته ، قال تعالىٰ : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ .

الثاني : إن في ذلك الإعلان عن القرآن تحدياً صريحاً لجميع العقلاء والحكماء ، والفطناء والعلماء ، وحملاً لهم على التذكر والتدبر في تلك البينات والحجج ، والاعتبار في تلك البصائر ، والتفكر فيما هدىٰ إليه القرآن الكريم.

فلا شكَّ أنهم بعد التفكر والتدبر ، يقفون أمامه موقف المقرِّ المعترف المحجوج ، وَمَن ادَّعىٰ غير ذلك فليتقدم بحجته وبرهانه ، ولِيَردَّ ما أثبته هذا القرآن الكريم إن استطاع لذلك سبيلا ، وأنىٰ لهم ذلك : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ .

الثالث : لذلك دعا القرآن الكريم جميع العقلاء إلىٰ التفكر فيما جاء به ، والتذكر والتدبر والتبصُّر والنظر والاعتبار.

ومعاني هذه المدارِك متقاربة ، تجتمع في شيء ، وتنفرد في شيء آخر ، وهي متلازمة ، وينتهي بعضها إلىٰ بعض ، ويوصل بعضها إلىٰ بعض.

فالتفكر هو : استعمال الفكرة في الأمر الذي يفكر فيه.

والتذكر هو : إحضار ذلك الأمر عنده ، مصحوباً بإحضار العلم

حول ذلك الأمر ، وما يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه.

وقد يطلق النظر علىٰ كل من التفكر والتذكر ، ويقال: نظر فيه أي: فَكَّر وتذكَّر ، لأن النظر في الشيء يَحتاج إلىٰ إحضار القلب ، والتفاته إلىٰ المنظور فيه.

وأما التدبُّر فهو: النظر في أواخر الأمور وعواقبها ، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾.

فالتدبُّر في القول يتطلَّب النظر في أوله وآخره ، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة ، مع التفهم والتبين للمعاني.

وأما الاعتبار فهو: افتعال من العبور ، لأنه يَعْبر منه إلىٰ غيره ، فيعبر من ذلك الأمر الذي قد فكَّر فيه إلىٰ معرفة أَوَاخره ، وهو المقصود من الاعتبار ، ويسمَّىٰ: عبرةً ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

وقد نوَّع الله تعالىٰ الآيات ، وصرَّفها لعباده ، ليقيم عليهم الحجة ويبيِّن لهم المَحجَّة ، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، فهو سبحانه يَذكر لعباده الآيات الآفاقية، والنفسية، المشهودة بالعيان، والمذكورة بالجَنان.

ومن هذه الوجوه المتقدم ذكرها يتضح لك أيُّها العاقل: وجوب التعرُّف إلىٰ كتاب الله تعالىٰ ، والتفكر فيه ، والتدبُّر والاهتمام كل الاهتمام بتعلمه وتفهمه، والاطلاع علىٰ براهينه وبيِّناته، والاستبصار بأنواره ، والاعتبار بأخباره ، والاتِّعاظ بمواعظه ، والائتمار بأوامره، والانتهاء عما نهىٰ عنه، وانتهاج مِنهاجه القويم،

والسير علىٰ صراطه المستقيم. اللهمَّ وفقنا جميعاً لذلك آمين.

وها أنا أذكر بعض الكلمات التي تنهض بالهمم المتقاعسة، وتقوِّي العزائم المتخاذلة، وتدفع بالعاقل نحوَ كتاب الله تعالىٰ، والإِقبال علىٰ تفهمه وتدبُّره إن شاء الله تعالىٰ ـ بعد استكمال الكلام علىٰ هذه الوجوه ـ.

الوجه الثامن: من الوجوه الدالَّة علىٰ أن الدين جاء بقضايا معقولة، وكلُّها عند أهل العقل السليم مقبولة، هو: أنَّ القرآن الكريم جاء يَرسم أَقْوم خُطَّةٍ في الدعوة، ويبيِّن أن الناس في ذلك علىٰ أصناف.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وهذا الأسلوب في الدعوة هو أنجح وأصلح الأساليب، وذلك أن الله تعالىٰ شرع وأمر أن تكون الدعوة إلىٰ سبيله علىٰ حسب مراتب المكلفين في قابليَّتهم، ومقابلتهم، وتقبلهم، وإعراضهم، لأنهم علىٰ أصناف ثلاثة:

الأول: هو صِنْف اللبيب الذكيِّ القابل للحق، الذي لا يعانِد ولا يعارض الحق، بل يستجيب للدعوة متىٰ بدا له نور الحق بدون توقُّف، فهذا يُدعىٰ بطريق عرض الحكمة عليه، وإلقائها بين يديه، فإذا بدتْ له أسرع إليها، وتقبّلها، وتمسَّك بها، وتعشَّقها، كما وقع ذلك للصحابة الكرام حين سمعوا القرآن الحكيم من سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ومن هذا الباب

قصة أكثم بن صيفي حين أرسل وَلَدَيْه إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَسأله: (مَنْ أنت، وما أنت، وبِمَ جئتَ به)؟.

فأتيا النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فسألاه عن ذلك.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أمَّا مَنْ أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» أي: إني أنا المعروف في شرف نسبه وحسبه فوق كل نسب وَحَسب.

«وأمَّا ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله، جئتكم بقول الله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾».

فلما رجعا إلىٰ أبيهما وأبلغاه الأجوبة، وقرآا عليه تلك الآية الكريمة الجامعة، قال: (يا بني إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهىٰ عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً). اهـ.

أي: أسرعوا إلىٰ الدخول في دينه، فإنه جامع لكل خير، ومحذِّر من كل شرٍّ.

الثاني: هو صنف العاقل القابل للحق، ولكن عنده نوع من الغفلة أو الكسل، أو ضعف في العزيمة، أو مَيل للشهوات المحرمة، فَإنه يُدعىٰ بطريق الموعظة الحسنة وهي: الأمر والنهي المقترنان بالرغبة والرهبة، وبالوعد والوعيد، وذكر عواقب المحاسن الكريمة، وبيان عواقب المساوىء الذميمة، وما يُؤدي ذلك إلىٰ ثواب أو عقاب، ويتجلَّىٰ ذلك فيما ذكره الله تعالىٰ في مواعظ لقمان لابنه:

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ ﴾ وفي هذا تَلطُّفُ الواعظ بالموعوظ ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي هذا تنفير عما ينهاه عنه ، وإبعاد له عنه باعتبار أن الظلم سيء ذميم.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أي: يُحضرها للحساب يوم السؤال والحساب ، ليجزي عليها الثواب أو العقاب ، وفي هذا وعد ووعيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ وفي هذا تحذير وتخويف من جناب الله تعالىٰ.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ وفي هذا تنشيط لهِمَّته ، وتقوية لِعزيمته ، وإبعاد له عن الكسل والتقاعس عما أمره به.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: بَطِراً متكبراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ وفي هذا تخويف من عقاب الله تعالىٰ وغضبه.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ وفي هذا تقبيح لفعل القبيح علىٰ وجهٍ بليغ في التنفير منه.

ولا بدَّ في حسن الموعظة من لِيْن المقال ، وعدم مقابلة الجافي بجفوة ، كما جاء في الرجل الذي استأذن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الزنا وأمثاله:

فقد روىٰ الإمام أحمد في (مسنده): أن رجلاً جاء إلىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يستأذنه في الزنا.

فقال النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أترضاه لابنتك»؟

فقال الرجل: لا. فقال: «وكذلك الناس لا يرضونه».

فقال: «أترضاه لأمك»؟ فقال: لا. فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «كذلك الناس لا يرضونه» أي: لأمهاتهم.

فقال: «أترضاه لأختك»؟ فقال الرجل: لا. فقال: «كذلك الناس لا يرضونه». فرجع الرجل وتاب من ذلك.

ولا بدَّ في حسن الموعظة من ذكر عقاب المخالفة، ومن رأفة الواعظ بالموعوظ:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا آخذ بحُجَزكم وأقول: إيَّاكم وجَهنَّم، إيَّاكم والحدودَ، إيَّاكم وجَهنم إياكم والحدود، إياكم وجهنم إياكم والحدود ـ ثلاث مرات ـ فإذا أنا مِتُّ تركتُكم، وأنا فرطكم علىٰ الحوض، فَمَنْ وَرَدَ أفلح» الحديث.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم ومُحقَّراتِ الذنوب ـ أي: صغائرها ـ فإنما مَثَلُ مُحقَّرات الذنوب كَمَثَلِ قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاءَ ذَا بعود وجاء ذا بعودٍ، حتى حملوا ما أنضجوا به خُبزهم، وإن محقَّرات الذنوب متىٰ يأخذ بها صاحبها تُهلكه».

الثالث: هو صنف المعاند المعارِض، بسبب شبهات ضالَّة تمكَّنت فيه، أو شهوات سيطرت عليه، حتى صار كالأسير بين يديها، فهذا الصنف يُجادَل بالتي هي أحسن ـ أي: بالطريقة التي هي أحسن ـ طرق المجادلة والمناظرة التي يتطلَّبها حاله، حتى ينتقل من تلك الحال، ويرتقي درجات الكمال.

والمجادلة بالتي هي أحسن تستلزم أموراً:

الأوَّل: أن تكون الحجة على الخصم قائمة على أساس مسلَّم عند الخصم ومقطوع به عنده، كما أخبرنا الله تعالىٰ عن حجج الرسل صلوات الله تعالىٰ على نبينا وعليهم في مناظراتهم للذين عارضوهم من أممهم وعاندوا.

قال الله تعالىٰ لحبيبه سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ملقناً له حجته على المشركين وغيرهم من الكفرة: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾.

فقرَّرهم بما هم به مقرُّون، واحتج عليهم بما يعرفون، ثم وبَّخهم بعد إقرارهم فقال: ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾أي: فكيف تُخدعون عن الحق بعد ما عرفتموه وأقررتم به، فادعيتم أن مع الله إلٰهاً آخر.

وقال تعالى في تعليم الحجة على من زعم أن عيسى ابن الله، لأنه ولد من غيرأب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ الآية. فأقام عليهم الحجة في كَذِبهم، وأراهم البرهان بما هم به يقرون ولا يختلفون فيه، وهو آدم المخلوق من غير أب ولا أم.

ونظير هذا ما جاء في الرد على اليهود حين قال قائلهم: والله ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾؟! فأفحمه بما هو عالم به.

وقال تعالىٰ مخبراً عن مناظرة الخليل لأبيه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ

﴿تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ وهذا من المقرَّر المعروف عندهم ، لأنهم ينحتون بأيديهم ما يعبدون ، كما قال في موضع آخر : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ مخبراً عن مناظرة الخليل للنمرود: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وفي هذا منتهىٰ الإفحام للخصم ، وإخراسه عن المشاغبة في الكلام ـ كما سيُوَضَّح إن شاء الله تعالىٰ في موضعه ـ .

وعلىٰ هذا المنهج جاءت احتجاجات علىٰ المخالفين والمعاندين ، فكان يأتيهم بالدليل الذي يُقرّ الخصم بصحته وحقيته ، ويحكم علىٰ نفسه ببطلان ما هو عليه ، فَيُذعن للحق ويعترف .

ومن ذلك ما روىٰ الحاكم وصححه ، عن رفاعة بن رافع الزورقي ، أنَّه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتىٰ قدما مكة ـ وهذا قبل خروج الستَّة من الأنصار ـ فأتيا النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

قال: فقلت: اعرض عليَّ ـ أي: الإسلام ـ فعرض النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم عليه الإسلام وقال لهما: «مَنْ خلق السماوات والأرض والجبال»؟ قلنا: الله .

قال: «فمن خلقكم»؟ قلنا: الله .

قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون»؟ قلنا: نحن .

قال: «فالخالق أحقُّ بالعبادة أم المخلوق ، أنتم أحق أن يعبدوكم ، وأنتم عملتموها ، والله أحقُّ أن تعبدوه من شيء

عملتموه ، وأنا أدعوكم إلىٰ عبادة الله ، وإلىٰ شهادة أن لا إلّه إلا الله وأنِّي رسول الله ، وصلة الرحم ، وترك العدوان ، وبغض الناس» أي: وترك بغض الناس.

فقلنا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلاً لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق. أي: فكيف وهو حق وحقيقة ثابتة بالقطع.

فأتينا البيت ـ أي: الكعبة المشرَّفة ـ فجلس عند البيت معاذ بن عفراء ، قال رفاعة: فطفت ، وأخرجت سبعة أقداح فجعلتُ له منها قدحاً ، فاستقبلت البيت فضربت بها وقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه مُحمَّد حقاً فأخرج قدحه سبع مرات.

فخرج قدحه سبَع مرات فصحتُ ـ بصوتٍ عالٍ ـ أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاجتمع الناس عليَّ وقالوا: مجنون ، رجل صبأ ، فقلتُ: بل رجل مؤمن.

ومن ذلك ما رواه ابن خزيمةَ بإسناده ، أَنَّ قريشاً جاءت إلىٰ الحصين ـ والد عمران رضي الله عنهما ـ وكانوا يعظمونه ، فقالوا له: كَلِّم لنا هذا الرجل ـ أي: سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ فإنه يذكر آلهتنا ويسبّهم.

فجاؤوا معه حتىٰ جلسوا قريباً مِنْ باب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «أوسِعوا للشيخ» ـ أي: كبير السنِّ وهو الحصين ـ وكان ابنه عمران وأصحابه متوافرين.

فقال الحصين: ما هذا الذي بَلَغَنا عنكَ ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ـ أي: تذمهم ـ؟

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «يا حُصين كَمْ تعبدُ من إِلَهٍ»؟

فقال الحصين: أعبد سبعاً في الأرض ، وواحداً في السماء.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «فإذا أصابك ضُرّ مَنْ تدعو»؟

فقال الحصين: أدعُو الذي في السماء.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو»؟

فقال الحصين: أدعو الذي في السماء.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «فيستجيب لك وحده وتشركهم معه!!؟ أرضيته في الشكر؟ أم تخاف أن يُغلب عليك؟».

فقال الحصين: لا واحدةً من هاتين.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «يا حصين أسلِم تَسْلَم» أي: لأَنك أقمت الحجَّة علىٰ نفسك ، وبدا لك نور الحق.

فقال الحصين: إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول؟

فقال: «قل: اللهم إني أستهديك لأرشد أمري ، وزدْني علماً ينفعني».

فقالها فلم يقم حتىٰ أسلم.

فقام إليه ابنه عمران فَقَبَّل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأىٰ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم ذلك بكىٰ وقال: «بكيتُ من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه ، ولم يلتفتْ ناحيته ، فلمَّا أسلم قضىٰ حقه ، فدخلني من ذلك الرِقَّة».

فلما أراد حصين أن يخرج قال صلَّى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلىٰ منزله».

فلما خرج من سُدَّة الباب رأتْه قريش فقالوا: صبأ ، وتفرقوا عنه ا هـ كما في (الإصابة).

الثاني: أن يتحمَّل الداعي إلىٰ سبيل الله تعالىٰ جَفوةَ المعانِد وإباءه وتكبُّره عن قبول الحق ، ويُلين له المقال ويلطف الحال.

قال الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام حين أرسله إلىٰ فرعون يدعوه إلى ربه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

فلما ذهب إليه يدعوه قال له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

وروىٰ عَبْدُ بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله تعالىٰ مخاطباً لحبيبه الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن نبيَّ الله صلَّى الله عليه وآله وسلّم لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعَّب له وكَبُر عليه.

فقال له النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم: «أرأيت لو كنت في طريق وعْرٍ وَعْثٍ ، فلقيتَ رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه ، فدعاك إلىٰ طريقٍ واسعٍ سهل أكنت تتبعه»؟.

فقال الرجل: نعم.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «فوالذي نَفْس محمدٍ بيده ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إنكَ لفي أوعرَ من ذلك الطريق لو كنتَ فيه، وإني لأدعوكَ إلىٰ أسهل من ذلك الطريق لو دُعيت إليه».

قال قتادة: وذُكر لنا أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعَّده ذلك.

فقال له النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتَ لو كان لك فتَيَان: أحدهما إذا حدَّثك صدقك، وإذا ائتمنته أدَّىٰ إليك، أهو أحبُّ إليك؟ أم فتاك الذي إذا حدَّثك كذبك وإذا ائتمنته خانك»؟

فقال الرجل: بل فتايَ الذي إذا حدَّثني صدقني، وإذا ائتمنتُه أدَّى إليَّ هو أحبُّ إليَّ.

فقال له نبي الله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «كذاكم أنتم عند ربكم».

قال قتادة: وذكر لنا أن نبي الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لقي رجلاً فقال له: «أسلم».

فقال الرجل: إنك لتدعوني إلىٰ أمرٍ أنا له كارِهٌ.

فقال له نبيُّ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وإن كنتَ كارهاً».

والمعنىٰ: أنَّ كراهتك لَم تلقَ موضعها، لأن الذي أدعوك إليه وهو الإِسلام، هو محبوب القلوب ومرتاح النفوس، وإنما تتوهَّم أنه مكروه لجهلك بحقيقة ما هو عليه، ولذلك يجب عليك أن تدخل فيه، وتتبينه فتعرف جماله وكماله، فحينئذٍ تصير محباً له، متعشقاً فيه، وتذهب هذه الكراهية المبنية علىٰ أوهام وخيالاتٍ فاسدة، فكم من كارهٍ لأمرٍ أحبَّه حين عرف حقيقته.

ومن ذلك ما ذكره الله تعالىٰ لنا من مناظرة الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لأبيه وملاطفته له، واستعطافه إياه، وتحمله غلظته وجَفْوته في سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ:

قال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾.

فانظر كيف أَلانَ القول مع أبيه الكافر، وساق إليه الكلام في أحسن سياق، مع الملاطفة والأدب الجميل، والخلق الحسن، مستصحباً في ذلك نصيحته له قائلاً: يا أبت يا أبت، مطالباً له أن ينتقل عما هو فيه من التمادي في الضلال، منبِّهاً له ومذكِّراً له بأن الشيطان الذي استعصىٰ على ربك الرحمن، الذي يرعاك برحمته ونِعَمِه، فكيف تعبد هذا الشيطان الذي هو عدوٌّ لله وعدوٌّ أبيك آدم وعدوُّك.

إلَّا أن الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لم يذكر من جناية الشيطان، واحتقاره لآدم، وعداوته لآدم وذريته شيئاً، وإنما اقتصر علىٰ ذكر جنايته وذنبه مع الله تعالىٰ رب العالمين، الذي يدعوه إبراهيم إلىٰ عبادته، وتلك الجناية هي عصيانه واستكباره عن أمر الله تعالىٰ بالسجود لآدم.

وقد صَدَّر تلك النصائح بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ تلطفاً واستعطافاً، يستميله برفق ورقَّة إلىٰ جانب بالحق.

وإذا بأبيه يقابل تلك الملاطفة والاستعطاف بغلظة العناد، وفظاظة الكفر، وعتو الكبر، فيناديه باسمه مقابل: يا أبت، فلم يقل له في الجواب يا بنيَّ بل قال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وراح يهدِّد ، ويرعد ، ويزمجر ، ويهجر ، ولم يَك ذلك الموقف العاتي الغليظ يُضعف من ملاطفة الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، بل بقي علىٰ ما هو عليه قائلاً له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ .

الثالث في شروط المناظرة: أن يتوخىٰ الداعية إلىٰ الله تعالىٰ ويتقصَّد وُضوح الحجة ، ليتجلَّىٰ للخصم نور المَحَجَّة.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

فجاء صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يدعو إلىٰ الله تعالىٰ بالبرهان الساطع ، والدليل القاطع ، حتىٰ يكون المتبع له والسائر علىٰ سبيله وراءه علىٰ بصيرةٍ من عقيدته وطاعتهِ ، وسعادته ونجاحه في الدنيا والآخرة ، بلا عَماوة ولا غشاوة ، ولا غِواية ولا ضَلالة.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ .

فمن عَمِي وأغمض عينيه حتى لا يَرى نور الحق؛ فإنه لا يَضُرُّ إلا نفسه ، فإن نور الحق أبْلَج ، وظلام الباطل لَجْلَج.

ومن ثَمَّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تركتُكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» رواه ابن أبي عاصم وغيره ، والسند حسن.

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «والذي نفسي بيده: لقد جئتكم بها بيضاء نَقية» الحديث رواه البيهقي.

ولذلك وصفه الله تعالى في التوراة بقوله سبحانه ـ بعد الترجمة

إلى العربية ـ قال: «ولن يَقْبضه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملّة العوجاء ـ أي: المنحرفة عن التوحيد ـ بأن يقولوا: لا إله إلّا الله ، ويَفْتَح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غُلفاً».

فجاء صلّى الله عليه وآله وسلّم بنورٍ ساطعٍ ، وبرهانٍ قاطعٍ ، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ، ففتح الله به القلوب المغلقة ، وبَصَّر به الأعين العمياء ، وأسمع به الآذان الصمَّاء ، فتجلّى نور الحق ، وقامتْ الحجة على جميع الخلق ، فجزاه الله تعالى عنَّا أفضل ما جازى رسولاً عن أمته صلّى الله عليه وآله وسلم.

جزى الله عنا نبينا سيدنا محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ما هو أهله ، والحمد لله الذي أنعم علينا بنبينا سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حمداً يُوافي نعمه ويكافىء مزيده.

* * *

فصل

الواجب المحتم على كل عاقل
أن يؤثر كتاب الله تعالى على كل كتاب سواه

إنَّ شأن العاقل إذا سمع بكتابٍ لعالمٍ كثير العلم ، أن يتسارع إلى قراءة ذلك الكتاب وتفهمه بتشوُّقٍ وحرص ، وعزم وجدٍّ ، والذي يحمله على ذلك هو وثوقه بعلم ذلك العالم ، ويقينه بأن مضامين الكتاب متفوِّقة في العلم والبيان والتحقيق ، على حسب تفوق ذلك العالم الذي صنَّف الكتاب.

وإن فوق كلِّ ذي علمٍ عليماً ، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى الذي هو بكل شيء عليم ، والذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والذي قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وقد حدَّثنا أصدق خلق الله أجمعين ، وأعلمهم برب العالمين ، القائل: «أما والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له».

حدثنا حديث موسى مع الخضر عليهما السلام ، وأنه جاء عصفور فنقر نقرة من البحر على مشهد موسى والخضر عليهما السلام.

فقال الخضر لموسى عليهما السلام: «يا موسى: ما علمي وعلمك، وعلم سائر الخلائق في علم الله تعالى؛ إلاَّ كما أخذ هذا العصفور من البحر» الحديث كما في الصحيحين.

وهذا المَثَلُ في القِلَّةِ يُوَضِّح لك المراد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

إذا فهمتَ ذلك أيها العاقل اللبيب، فاعلم أن هذا الكتاب العزيز كتاب الله تعالى، أنزله على رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وفيه من صنوف العلم، وفصول الحكمة ما لا يحيط به إلا الله تعالى.

وقد نبَّه الله تعالى عباده، وأعلمهم بذلك، ليُقْبِلوا عليه بقلوبهم وعقولهم، وليفقهوه ويتدبَّروا ما فيه، ويدرسوه بجدٍّ واجتهاد.

فقال سبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾.

وقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة.

وقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

فهو منبع العلم والحكمة، فمنْ كان يَبغي العلم والحكمة فلينظر وليتدبَّر في هذا الكتاب الذي فيه الكفاية، وإليه المنتهى والغاية.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية ، أي: فلا تتطلّع إلى شيءٍ سواه ، فإنَّه يكفي عن غيره ولا يكفي عنه غيره.

وبيَّن سبحانه لعباده أنَّ هذا الكتاب جاء تبياناً لكلّ شيء ، مما تتوقف عليه سعادة الحياة الدنيا وصلاحها ونجاحها ، وسعادة الآخرة وفلاحها ، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ففيه البيان والبرهان ، والحجج والبينات.

وإنّ بيان كلّ مُبَيِّن وبرهانه على قدر علمه ، فإذا أبان الإنسان عن كائنٍ مَا كان بيانه على قدر ما يدرك منه ، وهو لا يحيط علماً به ، فلا يمكنه أن يَبْلغ الغاية في البيان عنه ، وإذا أخبر الإنسان عن أمرٍ مضى ، فخبره على قدر ما بقي من ناقص علمه به الباقي في ذاكرته ، لأن الإنسان يلازمه النسيان ، على أن علمه بما أخبر هو على حسب ما بلغه وعَلِمَهُ من الخبر.

وأما بيان الله تعالى عن الكائنات ، فهو البيان البالغ الغاية والنهاية: لأنه سبحانه قد أحاط علمه بحقائق تلك الكائنات ، وصفاتها ، وعوارضها ، وهو سبحانه لا يَضِلُّ ولا ينسى ، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ ، وقال: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

وهكذا جاءَتِ البَراهِيْن القُرآنية صادِرَةً عَنْ عِلْمِه سبحانه ، صَادِعَةً بِحُجَّته ، قاطعة بِبَيِّنته ، بحيث لا تَعارض ولا تَناقض.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، وقال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ .

إذاً ماذا يجب أن يكون موقفك مع كتاب الله تعالى أيها العاقل؟ .

نعم يجب عليك أن تعرف أنّ هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى رب العالمين ، وهل هُناك أحد أعلم من قائله والمتكلم به؟ ، وهل ينال أحد علماً إلا من قائله سبحانه؟ .

فإذا كان الله عزّ وجلّ هو عندك أعلم العلماء ، بل لا عِلَم لِعالم إلا من تعليمه سبحانه له ما شاء أن يعلمه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ، وقد قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ حتّى يَنْتَهِيَ العِلم إليه سبحانه ، فإنه إليه المنتهى ، وليس له انتهاء ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (مَنْ أحبَّ العلم فليُثَوِّر - أي: فليقرأ - القرآن فَإن فيه علم الأولين والآخرين) .

فإذا عرفتَ ذلك حقاً ، لم تُؤْثر على كلامه سبحانه عِلْماً ولا كتاباً سواه ، بل تُقبل على كتاب الله تعالى بقلبك وعقلك وحواسِّك ، حُبّاً لقائله ، وتعظيماً وإجلالاً للمتكلم به ، لأنه كلام رب العزة والجلال ، الكبير المتعال ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فأفاضت آيات كتابه حِكَماً وحُكماً ، أنزله على عباده ليعرفهم به نفسه: بصفات كماله ، ونعوت جلاله وإفضاله ، ويذكرهم به نِعمه وأيّامه ، ويُنبههم من رَقدة الغافلين ، ويُحيي قلوبهم بحياة الإيمان ، وينور بصائرهم بنور الفرقان ، ويَشفي صدورهم، ويزيل جَهْلهم ، وينفي شُكُوكَهم ، ويَدْحَضَ شُبُهاتهم ،

ويغسل به دَنسهم ، ويوضح لهم سُبُل الهُدى ، ويحذِّرهم من مهواة الغَيِّ والضلال والردىٰ ، ويهديهم سبيل الرشاد ، وما فيه صلاح العباد والبلاد .

جاء لكافة العالم بالهدى ، وبَيِّناتٍ من الهدى والفرقان ، الذي يميز الحق من البطلان .

فهذا كتاب الله تعالى العليم العلاّم ، ذي الجلال والإكرام ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا في أعماق البحار ، ولا في أعالي الأجواء ، فَحُقّ لهذا الكتاب العظيم : أن لا تشبع منه العلماء ، ولا العقلاء الأذكياء ، ولا الحكماء والعرفاء ، ولا أولوا الثقافة والحصافة .

فهو الكتاب العزيز الذي لا يَخلَقُ على كثرة الرَدِّ ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تُحدّ فضائله ومناقبه ، ترىٰ فيه الحجَّة والبرهان كأنها المشاهدة بالعيان ، على مَدَى العصور وتعاقب الأزمان ، مع الإيجاز والإعجاز ، فهو كتاب هَدْيٍ مع البينات ، وكتاب دعوةٍ تُعانِق الحجة ، وهو منهج مع الدليل ، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فيا أيُّها اللبيب العاقل ، أقبل بِكُلِّيتك عليه ، وأكثر من تلاوته مع التدبّر والإصغاء إليه ، فإن الله تعالى الذي أنزله ضَمِن للمُقبلين عليه بعقولهم وقلوبهم أن يُفَهِّمَهُم كلامه ، ويَنفعهم به ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، والذِّكرى تنفع المؤمنين لا محالة .

فاتق الله تعالى أيها المسلم ، وإيَّاك أن تهجر كتاب الله تعالى

وتواصل ما سواه ، وإياكَ أن تكترِث بغير كتاب الله تعالى أو تهتمّ به ، أو تُعَظِّم في نفسك وقلبك وعقلك ما سواه من الكتب ، ولا تعظم كتاب الله تعالى ، أو تثق بعلوم كتب المخلوقات أكثر من ثقتك بعلوم كتاب الله سبحانه ، أو تولَعَ في كتب العباد أكثر من ولوعك بكتاب ربِّ العباد ، ولقد حذَّر الله تعالى هذه الأمة مِمّا تورّطتْ فيه الأمم الكافرة السابقة فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي: واستهزأوا بما جاءتْ به الرسل ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: دمّر الله تعالى عليهم.

بل الواجب عليك شَرعاً وعقلاً وذوقاً ووُجداناً وفطرةً: أن تؤثر كتاب الله تعالى على كل كتاب ، وخِطابَه الوارد فيه على كلِّ خطاب ، ويَعظُم كلام الله تعالى في قلبك وعقلك ونفسك فوق كل كلام سواه.

وإذا كنتَ تُجِلّ كلام العالِم لعلمه فلا أعلم من الله تعالى ، بل له العلم المطلق كله.

وإن كنتَ تُجّلُ كلام الحكيم لحكمته فالقرآن الحكيم فوق كل كلام حكيم.

وإن كنت تجلّ كلام العظماء والكبراء فلا أعظم ولا أجلَّ ولا أكبر من الله تعالى الذي له الكبرياء في السماوات والأرض.

وإن كنتَ تُجلّ كلام الخبير لخبرته فالله تعالى هو العليم الخبير.

وإن كنتَ تُعزّ كلام العزيز لعزته فلله العزة جمّيعاً وهو ربّ العزة.

وإن كنتَ تحترم كلام القُدماء فالله تعالى هو القديم الذي لا أوّل له ولا شيء قبله، وكلامه قديم لم يَتَقدَّمْهُ كلامٌ ـ جلّ وعلا.

فانتبه من غفلتك، واستيقظْ من رقدتك، ولا تكن من الذين أُولِعُوا بكتب أعداء الله تعالى، ونبذوا وراءهم كتاب الله، واتخذوه مهجوراً، وجعلوا كتاب أعداء الله تعالى ديواناً منشوراً، مُقبلين على قراءته ودراسته.

واعلم أيها المسلم أن هذا الكتاب الإلّهي له بيان نازل بالوحي من الرحمن، على أكمل إنسان، وسيد ولد عدنان، سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وقد أحال سبحانه العباد إلى ذلك البيان المُحَمّديّ فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وذلك بعد ما بيّنه له سبحانه حيث قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، فَبَيّنَ الله تعالى القرآن لرسوله الكريم صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم، وأمره أن يُبين ذلك للناس.

فلا بدّ في مفاهيم القرآن من الرجوع إلى هذا الميزان، وهو البيان المحمدي المسمّى بالحديث وبالسنة، المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فما وافقَ هذا الميزان ولم يخالِفْه فهو حقٌّ وعدلٌ، وما كان غير ذلك فهو باطل وظلم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السنة، وقد سمَّاها سبحانه أيضاً الميزان فقال

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ فهذا الميزان هو الحكمة، وهو السنة النازلة من عند الله تعالى ، كما صرَّحتْ بذلك الآية.

فليس كتاب الله تعالى لُعبةً لِلّلاعبين ، ولا مُتـأوّلاً للجاهلين ، بل هو منهاج حقٍّ ، ومنار صدق للجادِّين في علمهم وعملهم ، وبحر العلوم للعلماء الراسخين ، وهو قَوْلٌ فصل (هو الفصل) ، وليس فيه هزل ، جاء بفصل الخطاب ، وليس فيه ارتياب ، وهو البحر في علومه ومعارفه وحِكَمه وأسراره ، فطوبىٰ للعارفين الغارقين ، وللعلماء الراسخين.

فإن بحثتَ عن العقائد فلقد جاءك القرآن الكريم بأقومها.

وإن بحثتَ عن الشرائع فلقد جاءك بأحكمها.

وإن بحثتَ عن الأخلاق فلقد جاءك بأكملها.

وإن بحثتَ عن الآداب فلقد جاءك بأرفعها.

وإن بحثتَ عن القَصَصِ فلقد جاءك بأحسنها.

وإن بحثتَ عن العلوم فلقد جاءك بأوسعها.

وإن بحثت عن العوالم جاءك بالخبر عن أعلاها وأسفلها.

وإن بحثت عن معرفة نفسك جاءك بالبيان عن خصائها وصفاتها ومقاماتها ومنازلها.

وإن بَحَثْتَ عن أخبار الماضين جاءك القرآن بأصحها وأصدقها.

وإن بحثت عن الأمثال فقد جاءك بأمثلها: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾.

وإن بحثت عن تقلبات الإنسان في العوالم الآتية جاءك القرآن الكريم بالجواب الكافي ، والدليل الشافي من كل شك وشبهة.

وإن بحثت عن عالَم المادّة وجَدت فيه بيان كلّ عنصر ومادّة.

وإن بحثتَ عما وراء المادة وجدته يأتيك بالحقائق الثابتة ، ويسير بك على وضوح الجادّة ـ كما سيتضح لك في القسم الثاني الذي يلي هذا القسم الأول إن شاء الله تعالى.

* * *

منهج القرآن الكريم
في دعوته وَهَدْيِهِ للناس

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ الآية.

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لعباده المنهج الذي جاء به القرآن الكريم، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة أمور كبرى، هي البُغية والغاية، وإليها النهاية باعتراف جميع أولي العقل والفطانة، وإقرار ذَوي الحكمة والدراية. وتلك الأمور:

أولها: أَنَّ القرآن الكريم جاء هدىً للناس.

ثانيها: أَنَّ القرآن الكريم جاء ببيِّناتٍ من الهدى.

ثالثها: أَنَّ القرآن الكريم جاء بالفُرقان.

وإليك بيان هذه الأمور مُفصلةً إن شاء الله تعالى:

الأمـر الأول

هو أن القرآن الكريم جاء هدىً للناس، ففي هذا تنبيهات إلٓهيَّةٌ لتلك القضايا الهامّة، التي يجب على العقلاء أن يتنبهوا إليها ويعقلوها، ليكونوا على إيمان جازم بها، وعلى بَيِّنَةٍ من أمرِهم:

أ ـ ينبه الله تعالى العقلاء لشدَّة حاجتهم إلى هذا القرآن الكريم ، الذي جاء بهداهم ، وأنَّ الناس بلا هدىً يتيهون في الضلال ، وإنّ شأن الضالّ في طريقه أنْ يَتَخبَّط ويَحار ، ويَظلّ حائراً دون أن ينتهي إلى طمأنينة وقرار .

فجاء هذا القرآن هادياً لأنه جاء بالنُور من عند الله تعالى ، وإذا جاء النور اهتدى الناس لمعرفة الأمور ، بعد ما كانوا في ظُلمة الحَيْرة والضلال ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

فلم يُخرجهم من الضلال المبين إلاّ هذا النور القرآني المبين ، فإنَّ مَنْ سلك طريقاً مظلماً تعرّض للمهالك والمتاهات والمهاوي ، وأما الماشي على نور فإنه يهتدي إلى حقائق الأمور وينتهي إلى غايته ، ويظفر ببغيته في أمانٍ واطمئنانٍ.

وإذا كان هذا حال الماشي في طُرُق الأرض المحدودة مساحاتها ، والمحصورة مسافاتها ، فما ظنُّك أيُّها العاقل اللبيب في مسيرة الطريق الطويل ، المزدحم بالمهمّات ، المتسلسل بالعَقَبات ، ألا وهو طريق الحياة الدنيا الذي تَسير عليه مدى عمرك كله ، حتى تجتازه وينتهي بك إلى الآخرة؟

اللهمَّ حَسِّن عاقبتَنا في الأمور كلِّها ، وأجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

نعم إنك أيُّها العاقل أحوج إلى النور المحمديِّ الذي يَهديك سُبُل السلام ، ويخرجك من الظلمات إلى النور ، وينتهي بك إلى

مصالح الأمور ، فأنت أحوج إلى ذلك من حاجتك إلى النور المادّي لتمسي على وجه الأرض مسافة محدودة .

وإلى هذا أرشد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمته لتعتبر وتتذكر ، وتشعر بشدة الحاجة إلى ما جاء به من الهدىٰ والعلم حيث قال: «تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء» الحديث له طرق متعددة .

وروىٰ مسلم ، عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالىٰ وجهه قال: قال لي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسَلَّم: «قل: اللهمَّ اهدني وسدِّدني ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسَّداد سداد السَّهم» .

وفي رواية: «قل: اللهمَّ إني أسألك الهُدىٰ والسَّدَاد» ، الحديث .

فلقد جاءنا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بنور من عند الله تعالىٰ .

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ .

وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ .

وهذا النور هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ب ـ تنبيه الله تعالىٰ لعباده وتذكيرهم بما وعدهم به، وما عهد به إليهم يوم أهبط أبويهم إلىٰ عالم الأرض، وهم ـ أي: بنو آدم ـ في صلبه وقال لهم سبحانه: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

فلما أهبطهم إلىٰ عالم الأرض لم يتركهم سُدىً، بل تعهَّدهم بهدْيه وإرشاده وتعليمه سبحانه، وأنْ يُبين لهم طرق الخير والبرِّ، والسعادة والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

وكان هذا عهداً عهد به إليهم: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟، فلقد وفَّىٰ سبحانه بعهده، فله الحمد والمِنَّة، فأرسل الرُّسل، وأَنزل عليهم الكتب وفيها الهدي الإلٰهي، وأمر الرسل صلوات الله تعالىٰ عليهم أن يُبلِّغوا عباد الله، ويهدوهم سُبُل السلام، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، أي: يُبين لهم طريق الخير من الشر، وطريق السعادة من طريق الشقاوة، كما جاء في (صحيح) مسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلاَّ دَلَّ أمته علىٰ ما يَعْلَمُهُ خيراً لهم، وحَذَّرهم مما يَعْلَمُهُ شراً لهم» الحديث.

وفي هذه الآية الكريمة ـ أي: قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ الآية ـ يُردُّ علىٰ مَنْ زعم أنه مضىٰ علىٰ

الإنسان القديم طَوْر الحيوان الوحشي ، وأنه مرَّ عليه دور البهائم والهَمَج ، ويستدلون علىٰ ذلك بما عثروا عليه من صورة إنسان شعره إلىٰ نصفه ، وأنه كان يمشي عارياً ، إلىٰ ما وراء ذلك من المزاعم الباطلة.

والحقُّ أنَّ البشرية منذ القِدَم تَعَهَّدها ربها تعالىٰ بالتشريعات السماويَّة ، والإرشادات الإلَهية إلىٰ ما فيه صلاحهم ، ولذلك تجد أن الخطابات الإلَهية توجَّهتْ إلىٰ بني آدم عقب هبوطهم إلىٰ الأرض.

فيقول سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كما في سورة الأعراف.

فهذه إرشادات وتوجيهات إلَهية عامَّة لجميع بني آدم ، ولذا جاء الخطاب بها بصيغة بني آدم ، ليعمَّهم جميعَهم منذ أهبطهم إلىٰ الأرض ، إلىٰ آخرهم علىٰ وجه الأرض ، وجاءت هذه التوجيهات عقب إهباطهم ، حتى تَعلم أن الله تعالىٰ هو ربُّ العالمين ، لم يترك عباده سُدىً ، بل تعهَّدهم بهديه منذ أهبطهم ، فإنه لم يخلقهم عبثاً ولا لَعِباً ، ولا للعبث واللعب ، بل خلقهم بالحق وللحق.

فما عثروا عليه من إنسان وحشيٍّ حيواني بهيمي ، شعره إلىٰ نصفه ، وعورته بادية ، وأظفاره طويلة ، إن ثبت ما قالوه فذلك

الإنسان هو إنسان لم يكن متمسِّكاً بشرائع الله تعالىٰ السماوية ، ولم يتصف ويعمل بالتوجيهات والإرشادات الإلٰهيَّة ، التي جاءت بالفِطَرِ الدينية المجمع عليها لدىٰ جميع الشرائع ، منذ هبوط آدم عليه السلام ، كما جاء في الحديث المتفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ عليه وآله وسلَّم: «خمس من الفطرة: الختان ، والاستحداد ، وقَصّ الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط».

وهكذا جاءت رسل الله تعالىٰ من لدُن آدم أبي البشر بالهدىٰ من الله تعالىٰ ، لما فيه صلاح العباد والبلاد ، حتى ختم الله تعالىٰ النبوَّات والرسالات بسيدنا محمد صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلَّم ، فجاء بالرسالة العامَّة لجميع طبقات الإنس ، وجميع طبقات الجنِّ ، وإلىٰ جميع الأمم: العرب والعجم إلىٰ يوم الدين ، وقد جَمَعَتْ رسالتُه جميع ما فيه صلاح العالم ومصالحهم ، وسعادة البشرية في الدنيا والآخرة علىٰ مختلف أجيالهم وأطوارهم.

فهديه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أكملُ أنواع الهَدي وأسعده ، وأقومه وأرشده ، كما سيتضح لك قريباً إن شاء الله تعالىٰ بأدلَّته.

فقوله سبحانه: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ فيه إعلان صدق وَعْد الله تعالىٰ ، ووفاء عهده الذي عهد به في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

ج ـ إنَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ إعلاماً بهدي القرآن العامِّ لجميع طبقات الناس، علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وعلىٰ

اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، وعلىٰ اختلاف أجيالهم وقرونهم.

فإنَّ في هذا القرآن المجيد أكمل الهَدْي ، وخير الهدي ، لأوَّل هذه الأمة وآخرها ، وأبيضها وأسودها ، وعربها وعَجَمها ، يهديهم في كل زمانٍ وفي كل مكان ، إلىٰ ما فيه صلاحهم وفلاحهم ، وإلىٰ ما فيه سعادة الفرد والمجتمع ، وإلىٰ سعادة البيئات والجَمَاعات ، والأُسَرِ والعائلات ، وهذا هو الهَدْي القرآني الذي أَنزله الله تعالىٰ علىٰ سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: الرسول العامِّ لجميع الأنام ، فلا أهدىٰ منه ولا أجمل ، ولا أحسن منه ولا أكمل ، بل هو الأهدىٰ والأبهىٰ ، والأجمل والأكمل.

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ولذا كان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول في خطبته مُعلناً ومُبيِّناً: «أَلَا وإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ ، وخيرَ الهدي هديُ محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وشرَّ الأمور محدثاتها. . .» إلىٰ تمام الحديث.

فكلُّ هدي جاء بما ينفع الناس ويُسعدهم ، فَإِنَّ هدي سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أعظم نفعاً وأدفع ضيراً ، وأجمع خيراً وأكبر بِرّاً.

أَمَّا هدي الرسل قبله صلوات الله تعالىٰ عليه وعليهم فهو موجَّه إلىٰ أقوامٍ خاصَّةٍ ، في أزمنة خاصَّة:

قال تعالىٰ في شأن التوراة: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ في شأن القرآن الكريم: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾.

فشتَّان بين هدي القرآن وهدي التوراة، وهدي بقية الكتب الإلٰهية.

وذلك لأن رسالات الرسل قبل بعثة النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كانت خاصة بأقوامهم:

قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وهكذا جميع الرسل.

أمَّا سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فقال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية.

وقال: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الآية.

ومِنْ ثَمَّ كان يقول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الدينُ ما بلغه الليل والنهار».

وقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وكان كُلَّ رسولٍ يُبعَث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعثتُ إلىٰ الأحمر والأسود» الحديث.

فحُقَّ لِمَنْ كانتْ رسالته عامةً أن يكون هديُه أعظم ، وبرهانه أقوم ، لأنه جاء يوجِّـه العالـم كلَّه ، ويواجه العالـم كلَّه ، فلا بدَّ أن يكون هديه خيراً وأبقىٰ ، وحجته أجلىٰ وأقوىٰ .

د ـ قولـه تعـالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ لاَ يَتَعـارض مـع قولـه سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فَإِنَّ قوله سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ معناه : صالح لهداية جميع الناس إلىٰ الخير والسعادة ، وفي هَدْيِهِ الكفاية ، وإليه منتهىٰ الغاية .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ففيه بيان المهتدين بهديه ، المنتفعين ببيانه ، ويوضح لك هذا :

قولك : الماء فيه ريٌّ للناس ، أي : صالحٌ لأن يَرْوِيَهُم .

وتقول : الماء ريٌّ للشاربين ، أي : الذين استقوه وشربوه فعلاً .

وقولك : الطعام فيه غذاء للناس ، أي : هو صالح لأنه يُغذِّي جميعَ الناس .

وتقول : غذاءٌ للآكلين ، أي : الذين تناولوه فعلاً ، وطعموا منه ، فإنهم تغذَّوا به بالفعل والواقع .

فالمتقون هم الذين اهتدوا بهدي القرآن الكريم ، وانتفعوا به حقاً ، لأنهم عملوا بما أرشدهم إليه ودلَّهم عليه ، فصاروا بذلك متقين فائزين بمنافعه ، حيث قبلوه واتبعوه .

وهذا دليل علىٰ رجحان عُقولهم ، فإنَّ المتقي هو الذي يَتَوقَّىٰ المكاره والمحاذير والمخاوف ، وينظر في عواقب الأمور ، ويتعقَّل فيها خوف الوقوع في المهالك ، هذا هو الأصل في معنىٰ المتَّقي لغةً.

وهكذا المتقي إيمانـاً وشرعاً فإنه هو العاقل ، نَظَـر في الأوامر الإلَهية وعقلها ، فعلم أنَّ فيها الخير ورضا الله تعالىٰ وحبه وقربه ، وصلاح الدنيا والآخرة ، فالتزم تلك الأوامر ، ونظر في المناهي الشرعية فعلم ضررها وفسادها ، ونتائجها السيئة فتباعد عنها ، مُتوقِّياً ما يترتب عليها من غضب الله تعالىٰ وعذابه وعقابه وعتابه ، وفساد الدنيا والآخرة.

ولذا كان من شأن هؤلاء العقلاء المتقين ، أنهم يؤمنون بالغيب ولو لم يَروه عياناً ، لأنه قد ثبت عندهم صدق المُخْبِر الذي جاء به ثبوتاً قاطعاً ، فهم يؤمنون به ويعملون بمقتضاه.

أَوَلَيس مِن العقل والحكمة أن يُقبَل خبرُ الصادق الذي ثَبَتَ صدقه عندك إذا أخبرك عن عَدُوٍّ يريد أن يُغيرَ عليك ؟ أو أخبرَك عن مكروهٍ ينالك من حاسدٍ ؟ أو أخبرك عن ماكرٍ بك ، وتأخذ حذرك وتتوقَّىٰ شَرَّ ذلك بأسباب الوقايات ، ولا يكون موقفك في ذلك موقف الجاهل الغافل الذي يقول: هذا ليس بصحيح ، أَوْ ليس بواقع ، وأنا لا أصدِّق حتىٰ أرىٰ بعيني ؟! فإذا فعلت ذلك صَبَّحك العدوُّ أو مَسَّاك ، وحينئذٍ تندم ولاتَ ساعة مندم.

ومن هـذا ما جـاء في (الصحيحيـن) عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: لما نزلتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي صلَّىٰ

الله عليه وآله وسلَّم علىٰ الصفا فجعل ينادي: «يا بَني فِهْرٍ ، يا بني عَديٍّ» ـ لبطون قريش ـ حتىٰ اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَ خَيْلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ»؟

قالوا: نعم. ما جَرَّبْنا عليك إلاَّ صِدقاً.

قال: «فإنِّي نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد».

وفي رواية لهما أيضاً: قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «أَرَأيتكم إن حدثتُكم أن العَدُوَّ مُصبحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقونني»؟.

قالوا: نعم.

قال: «فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد».

وفي رواية للبخاري قال لهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتُم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقيَّ»؟.

قالوا: ما جَرَّبْنَا عليك كذباً.

فقوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هو نَظِيْر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ مع أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاء نذيراً للعالَمين قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

هـ ـ وقوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فيه يُطلق الله تعالىٰ الهُدىٰ ، ولم يُبيِّن إلىٰ ما يهدي إليه هذا القرآن الكريم ، وهذا من باب حذف المعمول للعموم ، ليذهب فهم الفهيم ، ولبُّ اللَّبيب ، إلىٰ أن هذا القرآن الكريم يهدي إلىٰ جميع مجالات الخير والبرِّ ،

والإحسان والفضل ، وما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هدي القرآن هو كذلك وفوق ذلك ، بدليل أن الله تعالىٰ ذَكَرَ في آيةٍ أخرىٰ من سورة الإسراء ما يهدِي إليه هذا القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

هـدي الـقـرآن الكريم للتي هـي أقـوم

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

فلقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي العالم لأقوم السبل النيِّرة ، وأرشد الطرق الخيِّرة ، كما يشير إلىٰ ذلك قوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في الدعاء الذي علمه لسيدنا علي رضي الله عنه ، حيث قال له : «قل : رَبِّ اغفر وارحم ، واهدني السبيل الأقوم» .

فهذا الحديث الشريف شاهِدُ صدق ، يوضح لنا المراد بالتي هي أقوم من الآية الكريمة ، فإن السنَّة بيان لكتاب الله العزيز ، والمعنىٰ : أنَّ هذا القرآن يهدي لأقوم سبل الخير والسعادة ، والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، كما سيتضح ذلك .

ففي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ حصر وتَخْصِيص لهذا القرآن الكريم بهدايته للتي هي أقوم ، وأَنَّ أيَّ كتاب سواه لا يبلغ هذه المنزلة في هداه للتي هي أقوم ، فهو الكتاب المتفوق بهديه علىٰ جميع الكتب المتضمنة للهدي .

وفي هذا أنواع من التحديات للعقلاء المبتغين للهدىٰ ،

وللحكماء وللعلماء المستبصرين بأنوار الهدى ، فإنه يتحداهم أن يأتوا بما هو أهدىٰ منه لمصالح العباد ، وبما هو أدلُّ وأشمل لكل خير وسعادة ورشاد ، كلا بل هو أهدىٰ ولا أهدىٰ منه ، ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ ولا أقوم منه ، ولا أقسط ولا أصلح ولا أحكم منه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ ؟! ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ ؟! ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ ، ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ .

ومعنىٰ أَنَّ القُرآنَ يَهْدي للتي هي أقوم: هو أَنَّه يهدي لأقوم السبل والطرق بالأدلة الساطعة ، في جميع ميادين السعادة والصلاح ، والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

فهو يهدي لأقوم طريق في العقيدة والإِيمان .

ويهدي لأقوم طريق في الشريعة والأحكام .

ويهدي لأقوم طريق في الآداب ومكارم الأخلاق .

ويهدي لأقوم سبيل في حُسْن المعاملات والمبادلات المالية .

ويهدي لأقوم سبيل في تَنْظيم الأحوال الشخصية ، وحسن المعاشرات الزوجية ، وحفظ حقوق المرأة ، وإصلاح النسل والذرية ، ويهدي لأقوم طريق في ضبط نظام الأسرة ، ورعاية حقوق الآباء والأمهات والأبناء ، ويهدي لأقوم سبيل في حقوق القرابة الرحمية ، ويهدي لأقوم سبيل يهتدي فيه العاقل لمعرفة ما له وما عليه ، ولمعرفة بدايته ونهايته ، ولمعرفته مِمَّ خلق ، ولِمَ خلق ، وإلىٰ مَا يستقرّ أَمْرُ المخلوقات .

ويهدي لأقوم طُرق التفكير الصحيح في هذه العوالم ، وفي

عظيم قدرة الله تعالىٰ رب العالمين ، وفي سَعَة علمه ، وسائر كمالاته وصفاته ، حسب ما يمكن للعبد أن يصل إلىٰ معرفته ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

وفَصْلُ الخطاب في هذا الباب هو : أن القرآن يهدي لأقوم طرق الخير والبر ، وإصلاح النفوس والبيئات ، والأفراد والجماعات والمجتمعات ، وإصلاح عمارة الأرض التي استعمر الله تعالىٰ بني آدم فيها ، وإصلاح أمور الدنيا والآخرة . فما من خير وفلاح يعود علىٰ بني الإنسان إلا ومِنَ القرآن هدايته لسبيله الموصل إليه ، وما مِنْ شر يعود علىٰ بني الإنسان إلا وفي القرآن الكريم تحذيرٌ منه وإبعاد عنه .

فهو قُرآن عَجَبٌ ، إليه ينتهي الطلب والأدب ، ما فرَّط الله تعالىٰ فيه من شيء ، يهدي العباد إلىٰ سُبُل الرشاد ،وقال تعالىٰ مخبراً عن الجن لما سمعوه : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

الأمر الثاني

هو أن القرآن الكريم جاء ببينات من الهدىٰ ، فهو يهدي لطريق الحق ، ويأتي بالبينات علىٰ أن هذا هو الحق ، وهذا مُطَّرِد في جميع ما هدىٰ إليه القرآن الكريم من العقائد الإيمانية ، والأحكام الشرعية ، والكمالات الخُلُقِية ، والآداب العامة والخاصة .

الأمر الثالث

هو أن القرآن الكريم جاء بالفرقان ، أي : جاء بما يُفَرق بين

الحق الذي هدىٰ إليه ، وبين الباطل الذي خالفه ، فهو يهدي للتي هي أَقْوَم ، ويأتي بالبينات القاطعة علىٰ حَقِّيَّة ذلك ، ويُبَين الفرق بين حقِّيَّة الحق الذي جاء به ، وبطلان الباطل الذي خالفه ، وما يترتب علىٰ ذلك من آثار ونتائج.

ولا شك أن هذا المنهج القرآني في هديه المشتمل علىٰ تلك الأمور الثلاثة: هو أقوىٰ وأقوم ، وأسدُّ وأحكم ، وأقطع في إقامة الحجة ، وأَبْيَن في وضوح المحجَّة مِنْ كل منهج سواه ، ومن كل أسلوب مما عداه.

وسأذكر إن شاء الله تعالىٰ بَعضَ الأمثلة من الآيات الكريمة ، ليتضح فيها هذا المنهج القرآني المجيد ، وتَتَجلَّىٰ فيها تلك المهام الثلاثة التي سبق ذكرها آنفاً.

وبتلك الآيات التي أذكرها تتراءىٰ واضحة معالم الطُّرق في حجج القرآن الكريم.

من تلك الأمثلة يعبر القارئُ إلىٰ بقية حجج القرآن ، في جميع المواضيع والمبادئِ التي هدىٰ إليها القرآن الكريم ؛ لأن استقصاء جميع ما ورد في القرآن الكريم من البينات ، واستيفاء جميع حججه وبراهينه ، لهو أمر مُعجز لا يستطيعه العقلاء ، ولا العلماء ، ولا الحكماء ، فإنَّ بحر القرآن طَامٌّ ، وهديه عامٌّ ، وهو الذي لا تشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أَنْ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

شواهـد علىٰ ذلك المنهـج القرآنـي ومنها المُنـطَـلَق

هَدْي القرآن الكريم إلىٰ الإِيمان بالله تعالىٰ:

لقد جاء القرآن الكريم يهدي إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ ، وبالبيِّنات والفرقان ، وقد دلت الآيات القرآنية علىٰ أن هناك أركاناً خمسة ، وأصولاً خمسة ، لا بدَّ منها في الإيمان بالله تعالىٰ.

الأول: الإِيمان بأنَّ الله تعالىٰ هو حقٌّ ، أيْ: واجبُ الوجود.

الثاني: الإِيمان بأنه سبحانه هو واحد ، أي: لا شريك له.

الثالث: الإيمان بأنه سبحانه مُتَّصِف بالكمالات ، وله سبحانه الأسماء الحسنىٰ على وصف لا انتهاء له.

الرابع: الإيمان بأنه سبحانه ليس كمثله شيء ، أي: لا مشابهة بينه وبين المخلوقات.

الخامس: الإِيمان بأنَّ جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالىٰ بإرادته وقُدرته ، واختياره ومشيئته.

وقد جاءت الآيات القرآنية في تفصيل الكلام علىٰ تلك الأصول والأركان الخمسة ، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، أذكر هنا طائفةً منها:

الأصل الأول: أن الله تعالىٰ هو حقٌّ واجب الوجود:

اعلم أنَّ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو حقٌّ ـ أي: واجب الوجود ـ هو أوّل واجب إيماني ، فقد قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ

﴿دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ .

والمعنىٰ: أن ربّ السماء والأرض وخالقها هو حقٌّ واجب الوجود ، بدليل هذا الموجود المشهود وهو السماء والأرض ، فهو حقٌّ لا شكَّ فيه ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ولا تشكُّون في ذلك .

وقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : «أنتَ الحقّ ، ووعدك حقٌّ ، والجنَّة حقٌّ . . . » الحديث كما في (الصحيحين) .

فالله تعالىٰ هو حقٌّ ـ أي : واجب الوجود الذاتِّي ـ وأما الجنة والنار وما وراء ذلك فهي حقٌّ بجعل الله تعالىٰ وخَلْقِهِ .

ومعنىٰ الحق في اللغة هو : ما وَجَبَ إثْباته والاعتراف به ، ولا يمكن إنكاره والشك فيه لقوة ثبوته وقطعية حُجيته ، ويقابله الباطل ، فهناك حق الوجود ، ويقابله الباطل وهو العدم ، وهناك الحق الشرعي وهو : ما أحلَّه الله تعالىٰ شرعاً وأثبته ، ويقابله الباطل وهو الحرام ، وهناك الحق الخبري وهو : الصدق المطابق للواقع ، ويقابله الباطل وهو الكذب المخالف للواقع .

فالله تعالىٰ هدىٰ العباد في تلك الآيات من القرآن الكريم ، إلىٰ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو حَقٌّ أي : واجب الوجود ، بحيث يَجِبُ علىٰ العاقل الاعتراف به قطعاً ، والإيمان بوجوده من غير ارتياب ، إذ ليس هناك ثابت تظاهرت الأدلة والبراهين القاطعة علىٰ إثبات وجوده ؛ كما تظاهرت علىٰ إثبات وجود الباريِ جلَّ وعلا .

ومِنْ ثَمَّ حقَّ له أن يتسمَّى بـ ﴿ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي : الذي لا يخفىٰ إثبات وجوده علىٰ أيِّ عاقل ، بل هو الظاهر ولا أظهر وجوداً منه ؛

بحيث لا يُشَكُّ فيه ، كما أنه لا شك في وجود الكائنات المشهودة بالعيان ، قال تعالىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؟!! .

فكما أنه لا شك في وجود السماوات والأرض المشهودة بالعيان ، فإنه من بَابٍ أولىٰ وأحق لا شك في وجود مَنْ أوجد السماوات والأرض ، وهو الله تعالىٰ ؛ كما سيتضح لك الدليل إن شاء الله تعالىٰ .

فهو سبحانه حقٌّ ـ أي: وجوده واجب ـ قديم لا أوَّل له ، باقٍ لا آخر له ، ويقابله الباطل وهو ما كان وجوده ليس بقديم ولا باق ، وهو الممكن الذي لا وجود له من ذاته بل بإيجاد الله تعالىٰ له ، ولذا جاء في الحديث المتفق عليه: «أصدق كلمة قالها شاعر كَلِمَةُ لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» .

أيْ: كل ما سوىٰ الله تعالىٰ هو باطل بالنسبة إلىٰ وجود واجب الوجود القديم الباقي ، لأنَّ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ هو مخلوق بعد عدم ، وهو ممكن الوجود ـ أي: ليس وجوده واجباً ولا ذاتياً له ، بل صار موجوداً بإيجاد غيره ، وهو الله تعالىٰ واجب الوجود ـ.

فهذه الممكنات بعد ما أوجدها الله تعالىٰ ، وأعطاها الوجود الإمكانيَّ المحدود ، هي حق بالنسبة للمعدومات التي لم توجد بعد ، وحَقِّيَّة وُجودها ليست من ذاتها ، بل بتخقيق الوجود لها بقدرة واجب الوجود الذاتي ، وهو الله تعالىٰ القديم الباقي .

﴿ هَٰذَا هُدًى﴾ أي: فالآيات القرآنية جاءت تهدي للإيمان بأن الله تعالىٰ هو الحقّ ، أي: واجب الوجود الذاتي قَطعاً .

البينات من الهدى

وأما البينات من الهدىٰ إلىٰ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو الحقُّ ، فقد جاء ذلك في آيات كثيرة متعددة ، في مناسبات مختلفة :

فمن ذلك : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فَمُشَاهدة السماوات والأرض دليل قاطع على حقيَّة مُوْجدهما .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . . ﴾ الآيات .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

فالله تعالى حقٌّ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فيه تنبيه لأقرب شيء إلىٰ الإنسان والتبصر فيه وهو نفسه .

ومن البيِّنات قوله سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ .

والمعنىٰ : كيف ينكرون حَقيَّة وجود الله تعالى ، وكيف يصح إنكار وجود الخالق مع أنهم شيء موجود حِسّاً وعقلاً ، فكيف يُتصوَّر في العقل أَوْ يمكن في الواقع أن يكون وجودهم صادراً

لا عن شيء متصف بالوجود ، فإنَّ العدم هو لا شيء ، بل هو عدم ، ولا يمكن أنْ ينشأ عنه وجود ، إذاً لا بدَّ لهم من موجد مَوْجُوْد أوجدهم.

فإن ادَّعو أن المُوجد لهم هو أنفسهم ـ أي: أنهم هم الخالقون لأنفسهم ـ فذلك باطل حِسّاً وباطل عَقْلاً ، لأَنَّه يلزم منه أنهم قَبْل إيجادهم لأنفسهم كانت أنفسهم موجودة ، لأنَّ خالق الشيء هو سابق الوجود علىٰ الشيء ، والصانع مقدم الوجود علىٰ المصنوع ، والمؤثر متقدم الوجود علىٰ الأثر ، وهذا كله مَعلوم بداهةً.

وإن ادَّعوا أن آباءهم أوجدوهم فيقال: إن آباءهم هم مثلهم ، فلا بدَّ وأنَّ الذي أوجدهم هُوَ ليس من أنفسهم ، ولا من آبائهم ، ولا من المخلوقات كلها ، لأنهم كلهم كانوا عدماً ، والعدم لا يُعطي الوجود لأنه عدم.

إذاً لا بدَّ وأنَّ هناك خالقاً خلقهم ، وأَنَّ هذا الخالق الذي خلقهم وأوجدهم هو ليس من جنس المخلوقات التي اكتسبتْ الوجود من غيرها بعد عدم ، بل ذلك الخالق هو واجب الوجود: القديم الذي لا أوَّل له ، والباقي الذي لا آخر ولا انتهاء له ، وهذا هو الله رب العالمين ، الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء ، والقدير علىٰ كل شيء ، والمحيط بكل شيء ، وليس كمثله شيء سبحانه وتعالىٰ.

ومما يوضِّح ذلك ويثبته قطعاً: أن هذه الممكنات الموجودة المعبَّر عنها بالعوالم ، هي بجميع أنواعها كانت مسبوقةً بالعدم؛ ثم وُجدتْ ، فلا بدَّ لهذا الممكن الذي وُجد بعد عدم لا بُدَّ له من

موجد يُرَجِّحُ وجوده علىٰ عدمه ، فيخرجه من العدم الذي كان فيه ، إلىٰ عالم الوجود الذي صار فيه ، ولا يمكن أن يُوجَد بِنَفْسِهِ بلا مُوجِدٍ له ، لأنه يلزم من ذلك ترجُّح وجوده علىٰ عدمه الذي كان فيه بلا مرجِّح ، والترجُّح بلا مرجِّح هو مستحيل لدىٰ جميع الموازين العقلية ، كما أنه باطل مستحيل الوقوع لدىٰ جميع الموازين الحسيَّة.

إذاً لا يمكن ترجّح إحدىٰ الكفتين المحسوستين بلا مرجِّح ، فإذا كان ثمَّة كفتا ميزان محسوس تُوزن به الموادُّ وهما متساويتان تماماً ، فإنهما تكونان متعادلتين ، ولا يمكن أن تُرجح إحداهما علىٰ الأخرى إلا بمرجِّح من المثقلات ، أو من ضغطة هواء ونحو ذلك ، وهكذا أمر الوجود والعدم بالنسبة للممكنات ، فإنهما علىٰ حدٍّ سواءٍ ، لا يمكن أن يترجح وجود الممكن علىٰ عدمه إلا بمرجِّحٍ ، فالذي رجح وجود الممكنات علىٰ عدمها بإرادته ، وخَلقها وأوجدها بقدرته: هذا هو الله تعالىٰ الخَلَّاق العليم ، الذي قال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وكما أنَّ الترجُّح بلا مُرَجِّح هو باطل عقلاً وحسَّاً ، فإن التحرك بلا مُحرِّك هو باطل ، وإن التطوُّر بلا مطوِّر هو باطل.

فالعالمُ قبل وجوده كان ساكناً في ظُلْمَةِ العدم ، فتحركُه من سكونه إلىٰ نور الوجود لا بدَّ له من مُحرِّك ، وانتقالُه وتطوره من العدم إلىٰ عالم الوجود لا بد له من ناقل ومطوِّر ، فهل رأيتَ ساكناً من حجر أو مَدَرٍ أو شجرٍ أو نحو ذلك تحرَّك بدون محرِّك مشهود ، أو مغيَّب كثيف أو لطيف؟!.

فحينَ يثور الغبار ، وتتحرَّك الأشجار ، وتتموَّج البحار؛ يعلم العاقل يقيناً أن هناك مُحرِّكاً وهو الهواء ، وإن كان هُو لا يرىٰ الهواء بعين بصره لِلَطَافة الهواء ، وضعف بصره عن إدراك لطافته ، ولكن ثَبَتَ وجود الهواء عنده بعقله بمشاهدة آثاره وهي: إثارة الغبار ، وتحريك الأشجار ، وتمويج البحار ، وتحسسه بآثار برودته وحرارته ، وهذا أمر بديهيٌّ لا يُختلَف فيه. . .

الأصل الثاني: هَدْي القرآن الكريم إلىٰ توحيد الله تعالىٰ:

وهو الإيمان بأنَّ الله تعالىٰ هو واحد ، بِمَعْنىٰ أنه لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وإلىٰ هذا الأصل الإيماني هَدَىٰ الله تعالىٰ عباده بقوله: ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمۡ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وفي هذه الآيات وأمثالها هَدْيٌ للإيمان بوحدانية الله تعالىٰ ، ثم أتبع الله تعالىٰ ذلك بذكر البينات من الهُدىٰ فقال سبحانه بعد قوله: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمۡ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال في بيان الأدلة علىٰ ذلك وهي البينات من الهدىٰ:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ .

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر سبحانه بيِّناتٍ من الهُدى ستةً

مشهودة بالعيان ، ثابتة بالبُرهان ، يعقلها كل عاقل ، ويبصرها كل من أبصر.

فالأولىٰ: هي خلق السماوات والأرض ، وهما العالَمَان المحيطان بهذا الإِنسان ، سماءٌ تظلُّه وأرض تُقلُّه ، وما أودع فيهما من الآيات والمُبْدَعَات.

فلينظر العاقل إلىٰ السماء فوقه كيف بُنيت ورُفعْت ، وإلىٰ الأرض كيف سُطِحتْ ، ولينظر فيما أودع الله تعالىٰ في السماوات والأرض من الآيات ، قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فحثَّ عباده وأمرهم بالنظر في آيات السماوات والأرض ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

والنظر في آيات السماوات والأرض هو التفكُّر والتدبر ، ليقف العاقل فيها علىٰ ما هي عليه من إثباتات ودلالات ومستلزمات ، مِنْ أَنَّ لها صانعاً عليماً حكيماً ، حيَّاً قديراً ، لأنها مصنوعة في أحسن الصُّنع ، والصنع يقتضي صانعاً ، إذ لا يتصور مصنوع بلا صانع ، ولا يتصور الصنع من الصانع إلا إذا كان عالماً بالمصنوع قبل أن يصنعه ، قادراً عليه حكيماً ، فلا بُدَّ في هذا الصانع أن يكون عليماً حكيماً قديراً ، وهذه الصفات تستلزم أن يكون من بابٍ أولىٰ أن يكون حيَّاً يُرِيد ويختار ، وله الاقتدار.

فلينظر العاقل إلىٰ كواكب السماء ، وانتظام سيرها في أفلاكها ، مع عظم أجرامها وأحجامها ، تقطع المسافات الشاسعة في أقصىٰ سرعة دون أن يَختلَّ نظام سيرها ، أو يختل نظام جرمها ، أو تخرج عن محيط فلكها ـ أي: طريقها الذي تسبح فيه ـ مع كثرة

الكواكب ، فلا يحصل بينها اضطراب ولا احتكاك ، على مدى الدهور والعصور إلى يوم القيامة .

إذاً مَنِ الذي رَفع السماء ، وسيَّر كواكبها ، ونظَّم لها سيرها في أفلاكها ، وأعطَاها قوة السير والسرعة ، وأودع فيها معادنها المعيَّنة لها ، وجوّها المناسب لها .

إذاً لا بدَّ للمتحرِّك من مُحرِّك ، ولا بدَّ للمتخصِّص من مخصِّص .

فَلِمَ اختص هذا الكوكب بالبرودة وذاك بالحرارة ، وذاك بالرطوبة وذاك باليبوسة ، وذاك في بُعده عن الأرض كذا وكذا من الأبعاد ، والآخر أبعد منه ، وهذا الكوكب موقعه في جهة كذا ، والآخر في جهة كذا ، وهذا يُشرق في وقت كذا ويَغرب في وقت كذا ، والآخر يخالفه في الشروق والغروب .

إذاً لو كان طبيعة ـ أي : بطبيعة حالها ـ لتساوى الكل في ذلك ، ولَمْ يحصل شيء من الاختلاف في ذلك ، فَإن مُتقضىٰ الطبع والطبيعة واحد .

إذاً لا بدّ من إلَهٍ عليم حكيم قدير ، خَصَّص كلَّ كوكب بخاصة ، وأوقع كلَّ كوكب في أبعاد معينةٍ بالنسبة لعالَم الأرض ، وبالنسبة لبقية الكواكب التي في مستواه ، أو فوقه ، أو دونه ، وذلك تقدير العزيز العليم الذي قال : ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

فمهما علم الإنسان من الحكمة في إيقاع الكواكب مواقعَها المقدَّرة والمعيَّنة لها ، فإنَّه ما علم إلا الشيء اليسير ، فَإنه علم

شيئاً وغابت عنه أشياء ، ولذا قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي : فهناك أمور جِسام وحِكَم عِظام لَمْ تعلموها .

وسيأتي الكلام على عالَم النُّجوم في موضعه إن شاء الله تعالى مفصلاً .

الثانية : اختلاف الليل والنهار ، فإن الأمور حينَ تختلف فإنها دليل على وجود من يُخالف بينها ويتصرَّف فيها ، فإن التبدل والتغير دليل على وجود من يبدِّل ويغيِّر ، وفي اختلاف الليل والنهار تقسيم للزمن حسب مصالح البشر في حياتهم ومعاشهم ، وتنظيم لمجتمعهم وأوقات عملهم وراحتهم .

وهذا الاختلاف يشمل تخالفهما إثرَ بعضهما ، وتعاقبَهما الحثيث ، وإلىٰ ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .

ويشمل اختلافهما في الطول والقصر صيفاً وشتاءً ، وفي ذلك حِكَمٌ عظام ، ومصالح جسام ، تعود علىٰ العباد بالمنافع الصِّحيَّة البدنية ، والفوائد المعاشية إلىٰ غير ذلك .

ويشمل اختلافهما علىٰ سطح هذا العالَم الأرضي ، بأن يكون هناك نهار وهناك ليل ، وفي هذا دليل علىٰ قدرة الخالق البارىء المدبِّر الحكيم سبحانه وتعالىٰ ، الذي أدارَ الكواكب بانتظام حول عالَم الشمس ، بانتظام وتقدير وإحكام ، دون خلل ولا فساد ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

وقد قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لهرقل حين أرسل إليه يسأله : إنك دعوتني إلىٰ جنةٍ عرضها السماوات والأرض فأين

النار؟ فقال له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار»؟.

يعني: أَنَّ مِنَ المعلوم بداهةً أنَّ النهار إذا كان في جانب من الأرض فالليل في الجانب الآخر، وهكذا العكس، فهما أمران مُتَتَابِعان يختلفان علىٰ سطح الأرض.

الثالثة: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

وفي هذا آيات مشهودة دالة علىٰ قدرة وجود الله تعالىٰ وحكمته، وذلك أنَّ هذه الفُلك التي تجري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال في ضخامتها وثقلها بالأمتعة والمشحونات الثقيلة الكثيفة، وإذا بها يُقلُّها الماء اللطيف ويحركها، ويُسَيِّرها الهواء أو البخار اللطيف، فكيف هذا الماء اللطيف يحمل هذا الثقيل الكثيف؟! وهذا الهواء أو البخار اللطيف يُسَيِّر هذا الكثيف؟! ويقطع به المسافات الشاسعة ذات الليالي والأيام الواسعة.

نعم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، تُشْهِدُهم قُدْرَة الله تعالى وحكمته، الذي أمسك بقدرته هذا الماء، وشدَّ بقوته هذا الهواء، فصار اللطيف قوياً يحمِل الكثيف، وإلىٰ هذا يُشير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يُهلكْهنَّ ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

وفي هذا مشهد ظاهر يدلُّك أنَّ اللطائف التي تَحْمِل وتُحرِّك الكثائف، مع أن تلك اللطائف لا تُمسُّ ولا تُمسَك، بل ولا تُرىٰ

كالهواء ، فإن العين الباصرة لا ترىٰ عين الهواء وإنما ترىٰ ما يحمله الهواء من غُبارٍ وهَبَاء .

وخذ مثالاً علىٰ ذلك: الروح مع الجسم ، فإنَّ الجسم ثقيل كثيف تحركه وتحمله الروح اللطيفة . . . إلخ .

الرابعة : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

وفي هذا تنبيه للعقلاء وتبصير لهم بالحق ، وذلك بأن يتفكَّروا في هاتين الآيتين المشهودتين:

أُوْلاَهُما: هَذَا الماء النازل مِنَ السماء كيف كَوَّنَه وقدَّره الله تعالىٰ وأنزله ، بعد أَنْ كان في جَوِّ السماء بُخاراً ، بل قبل أن يكون بُخاراً لَمْ يَكُ لَهُ أَثَرُ وجود مشهود ، فكيف أنشأ الله تعالىٰ تِلْكَ الأبخرةَ ، ثُم ساقَهَا إلىٰ بعضها ، ثم أَلَّف بينها ، ثم جَعلَها رُكاماً فوق بعضها ، وكَثَّفها ، ثم أنزل ذلك الماء من خلالِها .

وإلىٰ هذه الأطوار والتَّحوُّلات التي أجراها الله تعالىٰ بقدرته أرشدنا الله تعالىٰ بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ .

فهو سبحانه الذي يُنشىء السحاب الثِّقَال بالمياه الكثيرة ، والأَمطار الغزيرة ، ويحملها علىٰ متن الرياح التي يُقلِّبها كيف يشاء ، ويسوقها حيث يشاء ، وهذا أمر مشهودٌ لدىٰ العيان ، وكم في ذلك آيات لقوم يعقلون .

قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

الثانية: الآثار الناشئة عن هذا الماء النازل من السماء ، فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ، وأخرج به أَزْوَاجاً مِنْ نباتٍ شتَّىٰ ، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي: العقلاء الذين تنهاهم عقولهم عن كل رديئةٍ ، وتحملهم علىٰ الفضيلة.

وأخرج به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

فالماء النازل من السماء واحد ، ولكن آثاره مختلفة: نباتاً وأشكالاً وألواناً وطعوماً ، وفصولاً زمنية ، إذاً لا بدَّ من قدرة قدير ، وخبرة خبير ، وعِلم مَنْ هو بكل شيء عليم ، وحكمة العزيز الحكيم ، ألا وهو الله تعالىٰ رب العالمين ، الذي أشهد عباده آثار صُنعه وآثار صفاته ، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾.

فلو كان الأمر طبيعة لما اختلفت آثارها ، ولما تنوَّعتْ نتائجها ، وإلىٰ هذا نبهت الآية الكريمة حيث يقول سبحانه: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ أي: فالمادَّة التي تستمدّ منها تلك النباتات

والأشجار واحدة ، فكيف تنوَّعَتْ واختلفتْ ، فجاء الجواب بقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالذي ينوِّعها ويُلوِّنها ويكوِّنها ويكيِّفها هو الله تعالىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ عطف علىٰ ما سبق.

والمراد من كل دابةٍ ، كلُّ نوع من أنواع الدوابِّ ، ومعنىٰ بثِّها: تكثيرها بالتوالد والتولد ، ولا شكَّ أن في خلق تلك الدوابِّ المتنوعة وإعطائها صورها المناسبة لها ، وهدايتها لنظام معاشها وتوالدها وغذائها ، وهدايتها لما ينفعها مما يضرُّها ، وربط نظام تعايشها مع بعضها؛ في ذلك آيات لقوم يعقلون.

كما نبَّه الله تعالىٰ العقلاء إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: في تعايشها ونظامِها وانتظامها ، سواء في ذلك النمل والنحل فما فوق ذلك ، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فما مِن حُجْر نمل إلاَّ وله قيادة ونظام وإمارة ، وما من كوارة نحل إلاَّ ولها نظام وقيادة تقودها ، وهكذا كما قال تعالىٰ: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

وفي الحديث الصحيح: «قَرصتْ نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله تعالىٰ إليه أن قَرصتْك نملة ، أحرقتَ أمةً من الأُمَمِ تُسَبِّح».

قال تعالى في تلقينه الحجَّة لموسىٰ على فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فهدى سبحانه بالهَدْي العام جميع

الدوابِّ والطيور وأنواع الحيوان ، إلىٰ نظام غذائها ومعاشها وتوالدها ، وتربية نسلها ، وإلىٰ معرفة ما ينفعها وما يضرُّها ، كما أنَّ في بثِّ تلك الدوابِّ وتسخير بعضها لبني آدم ينتفع بلحومها أو حَليبها ، أو الحمل عليها وركوبها ، أو في الاصطياد منها ، أو الانتفاع بحراستها كالكلاب ونحوها ، أو في الانتفاع بأشعارها وأوبارها ونحوه ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

الخامسة: قال تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ أي: وفي تقليب الله تعالىٰ للرياح ، وتنويعه لها في اتِّجاهاتها جَنوباً وشمالاً ، وقَبُوْلاً ودبوراً ، وفي تنويعها حارَّةً وباردةً ، وعاصفةً ورُخاءً ولينة ، ولواقحَ وعقيماً ، وإرسالها بالرحمة أو بالعذاب ، إلىٰ غير ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

السادسة: قال تعالى: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

والسَّحاب: اسم جنس واحده سحابة ، وسُمِّيَ بالسحاب لانسحابه في الأجواء والفضاء ، أو لجرِّ الرياح له وانسحابه معها. ففي إنشاء الله تعالىٰ له كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ وضَمِّه بعضها إلىٰ بعض ، وتكاثُفِهَا فوقَ بعضها ، وتحميلها الأَمطار الغزيرة وإنزالها منها ، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ .

في ذلك كله آيات عظيمة لقوم يعقلون ، فيعلمون أَنَّ لها ربّاً خَالِقاً حكيماً عليماً بكل شيء ، قديراً علىٰ كل شيء ، أتقن صُنع كلِّ شيء سبحانه وتعالىٰ.

وهكذا يبين سبحانه وتعالىٰ آياته للناس ، وفيها بيِّناتٌ من

الهدىٰ إلىٰ الإيمان ، بوجوب وجوده ووحدانيته سبحانه فيقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟! أي: إلىٰ أين تَذْهب عقولكم وتُصرَف ، ففكروا فيما تشاهدونه من هذا التخليق والتطوير والتدبير الكوني الذي تعاينونه ، واعقلوا ما فيه من البيِّنات والدلائل علىٰ وجود بارئه وخالقه ومدبِّره.

فَإن سألتم عن الله تعالىٰ وقُلتم مَنْ هو الله ؟! فهذا جوابكم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي: ومن الآيات الدالة على وجوب وجوده ووحدانيته ، التي فيها البينات والحجج القاطعات أن الله تعالىٰ خلقكم من تراب ، ثم طوّركم وخلقكم خلقاً من بعد خلق ، فإذا أنتم بشر تنتشرون ، وقد فصَّل سبحانه تلك الأطوار والأدوار التي قلَّبه فيها فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة أصناف من البيِّنات ، يقيمها الله حجةً علىٰ وجوده ووحدانيته ، وذلك أن هذه الأطوار ثابتة عندكم ،

وهذه التقلُّبات مشهودة لديكم ، لا تشكُّون فيها ، فَمَن المُطوِّر لها ؟ ومَنْ هو المقلِّب لها ؟ ومَنْ هُوَ المصوِّر لها ؟ ومَنْ هو المُمِد لها بالغذاء والماء ؟ إذاً لا شكَّ في وجود الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: لا شكَّ في وجوده ووحدانيته أصلاً.

الفرقان

قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وقَدْ جاء القرآن بالهُدىٰ ، وبيناتٍ من الهدىٰ في جميع المبادىء التي دعا إليها: الاعتقادية والعملية والخُلُقِيَّة ، وجاء بالفرقان ، والمراد به: الأمر الفارق بين الحق الذي جاء به ودعا إليه ، وما يترتَّب عليه من محاسن ومصالح ، ويُبيِّن الباطل الذي لا دليل عليه ، وما يترتب عليه من مفاسد وأباطيل وضلالاتٍ وخرافاتٍ.

فتَقدَّم ذكر هَدي القرآن للإيمان بالله تعالىٰ ، وذكر بعض بينات هديه إلىٰ ذلك.

وأما الفرقان في ذلك فقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وبيان ذلك أن يُقال: لو كان هناك ربَّان أو أكثر فإمَّا أن يكون اختلافهما واجباً ، أو يكون اتفاقهما واجباً ، أو يكون اختلافهما واتفاقهما جائزين ـ هذه هي الوجوه التي يمكن أن يفترضها العقل لدىٰ السَّبْر والتقسيم.

فإن كان اختلافهما واجباً: بأن يريد أحدهما إيجاد شيء ويريد الآخر إعدامه:

فإما أن يَغلب أحدهما الآخر فلا شك أن الغالب هو الربُّ الإلٓه الحق، والآخر ليس بإلٓهٍ حق لعجزه، **وإمَّا أن يغلب كل واحد منهما الآخر** فكلاهما ليس برب حق، لعجزهما معاً عن الإيجاد والإعدام، ويلزم علىٰ ذلك أيضاً ارتفاع النقيضين وهما الوجود والعدم، وارتفاع النقيضين مستحيل كاجتماعهما، وذلك أن النقيضين هما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في الشيء الواحد؛ ولا يفارقانه، كالوجود والعدم، والظلمة والنور، والحركة والسكون ونحو ذلك.

وأما الضِّدان فهما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في شيءٍ واحد، وقد يفارقانه كالبياض والسواد.

وإما أن لا يغلب كل واحد منهما الآخر فكلاهما ليس برب حق أيضاً، لعجز كل واحد منهما عن أن يغلب الآخر، ويلزم من هذه الصورة اجتماع النقيضين وهذا مستحيل أيضاً.

هذه صُوَر اختلافهما وكلها مستحيلة.

وأَما إنْ كان اتفاقهما واجباً ـ أي: أمراً لازماً في كل ما يفعلانه وفي كل ما يريدانه ـ فيلزم منه حِينَئذٍ أن يكون كل واحد منهما لا يمكنه أن يفعل فعلاً ـ أيَّ فِعْل كان ـ ولا يمكنه أنْ يريد شيئاً ـ أيَّ شيء كان ـ حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعل ما يفعله، أو يوافقه علىٰ إرادة ما يريده، حتىٰ إنه لو لم يوافق أحدهما الآخر علىٰ فعل ما يفعله، أو إرادة ما يريده لما أمكن الآخر أن يفعل شيئاً أصلاً،

ولا أن يريد شيئاً أصلاً ، وعلىٰ هذا فيلزم حينئذ عجز كل واحد منهما معاً في كل ما يفعلانه أو يريدانه ، وذلك لأنه حينئذ لا يتمكن هذا من فعل ما يفعله ، أو إرادة ما يريده حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعله وإرادته . وهذا أيضاً لا يتمكن من فعل ما يفعله ، أو إرادة ما يريده حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعله وإرادته ، فيكون حينئذٍ هذا عاجزاً بنفسه عن فعل ما يفعله؛ وإرادة ما يريده حتىٰ يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً أو بالعكس ، أي: ويكون هذا أيضاً عاجزاً بنفسه عن فعل ما يريده حتىٰ يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً ، فلا يكون واحد منهما قادراً علىٰ فعل ما يريده إلا بأن يجعله الآخر قادراً علىٰ ذلك ، حتى لو طَلَب العبد حاجته من أحد الرَّبين لم يقدر الآخر علىٰ قضاء حاجته إلا بأن يأذن له الربُّ الآخر ، ويعاونه ويجعله بإعانته واتفاقه معه قادراً ، أو بالعكس.

بل نقول إنَّ نفس الموافقة ونفس الإرادة فعل من جملة الأفعال؛ وقد فرضنا أن كل واحد من الربين لا يمكنه أن يفعل فعلاً حتىٰ يوافقه الآخر. وعلىٰ هذا فلا يمكن هذا أن يوافق الآخر علىٰ فعل الموافقة حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعل الموافقة ، وبالعكس ، أي: لا يمكن هذا أن يوافق الآخر علىٰ فعل الموافقة حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعل الموافقة ، وهذه الموافقة أيضاً لا يمكن أن يفعلها هذا حتىٰ يوافقه الآخر علىٰ فعلها ، وبالعكس.

وهكذا فيلزم عليه أن لا يكون هذا رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر بموافقته ربَّاً ، والآخر أيضاً لا يقدر أن يجعله رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر رباً ، وهكذا يدور الأمر. وهذا يسمىٰ عند العلماء بالدور القَبَلِيّ ، وهو باطل يستحيل بإجماع أهل الأرض والسماء.

وهكذا يدور الأمر ، فيكون كل واحدٍ منهما محتاجاً إلىٰ الآخر حتىٰ يجعله رباً ، فالاستحالة هنا من جهتين: من جهة أن هذا دور قبلي ، ومن جهة أَنَّ من عجز أن يجعل نفسه رباً فكيف يقدر أن يجعل غيره رباً ، فلا يصير هذا رباً ولا يصير هذا رباً ، وعلىٰ هذا التقدير الباطل فلا يكون هناك لا رب واحد ، ولا ربان ، وإذا لم يكن هناك لا ربّ ولا ربَّان فلا توجد السماوات ولا الأرض لفقد الربِّ ، فهو كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لم توجدا.

لا يقال: قد يتعاون الرجلان علىٰ حمل شيء ثقيل مثلاً ، فكيف يكون تعاون الرَّبين مستحيلاً.

لأنا نقول: هذا قياس مع الفارق فُرقاناً فاحشاً ، بعيداً أبعد ما بين الوجود والعدم ، وأين الرَّبين من المخلوقين ، فإن الرجلين المتعاونين مخلوقان ، ليس وجودهما من ذاتهما ، ولا قدرتهما من ذاتهما ، ولا إرادتهما من أنفسهما ، بل لهما ربٌّ خالق ، وهو الذي يجعلهما يتعاونان بإلْهَامه إيَّاهما ، وتزيينه لهما ، وبتحريكه لهما ، وإقدارهما علىٰ المعاونة ، فرجعت اثنتيهما إلىٰ وَحدة ربِّهما الذي خلقهما ، وجعلهما يتعاونان ، فكان الرجلان المتعاونان بمنزلة اليدين المتعاونتين علىٰ حمل شيء ، فكما أن صاحب اليدين هو الذي يجعلهما بحسب ظاهر الأمر يتعاونان ، ومرجع اليدين له ، فكذلك ـ بلا تشبيه ـ مرجع الرَّجُلين المتعاونين إلىٰ قدرة الله الواحد رَبِّهِمَا.

فهذان الربان إنْ لَمْ يكن لهما رب يجعلهما أرباباً فليسا بربين كما

قررناه ، وإن كان لهما ربٌّ يرجعان إليه كان هو الربُّ الحق وحده دونهما ، لأنَّ مَنْ يحتاج إلىٰ غيره حتى يجعله رباً فهو ليس برب حق ، بل كذاب ، فالرب يجب أن يكون فعَّالاً لما يريد بنفسه بلا معاون ، قادراً علىٰ ما يشاء بذاته بلا مشارك ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

هذا كله إذا كان اتفاقهما واجباً لا جائزاً.

فإن كان اتفاقهما أمراً جائزاً ـ أي: يجوز اتفاقهما واختلافهما ـ فلا بدَّ حينئذ من مرجح يرجح أحد الجائزين علىٰ الآخر ، فلا بدَّ من حدوث أمر يقتضي اختلافهما تارةً فينجرَّان من أجله علىٰ الاختلاف ، أو حدوث أمرٍ آخر يقتضي اتفاقهما تارةً أخرىٰ فينجرَّان من أجله علىٰ الاتفاق ، كما يقع ذلك لملوك أهل الأرض ، تارة تتفق وتارة تختلف؛ لأمور يُحدثها ويُجدِّدها ربُّ العالمين ، مالك الملك، يَجرُّهم بسببها على الاتفاق، أو علىٰ الاختلاف: فيقتتلون، أو يتفقون ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

فإنْ فُرِضَ جواز اختلاف الربين تارةً واتفاقهما تارة أخرى فلا بدَّ من حدوث أمرٍ يقتضي اختلافهما واتفاقهما ، وحينئذٍ نقول: إنَّ الأمر الذي انجر الربان من أجله على الاختلاف لا شك هو حادث ، وكذا الأمر الذي انجرَّ الربَّان من أجله على الاتفاق هو حادث ، فلا بدَّ لهما من محدث ، لِمَا تقرر أنَّ كل حادث لا بدَّ له

من محدث ، فلا بدَّ لهذين الأمرين من ربٍّ خالقٍ يُحدثهما ، فخالق هذين الأمرين اللذين انجرَّ الربَّان من أجلهما على الاختلاف تارةً ، أو على الاتفاق تارة ، هو الذي إن شاء ساق الربين بأسباب يحدثها ويخلقها إلى الاختلاف ، أو ساقهما بأسباب إلىٰ الاتفاق ، فهذا الذي إن شاء ساقهما إلىٰ الاختلاف تارة ، أو إلى الاتفاق تارة هو الربّ الحقيقيُّ لا هذان المجبوران المقهوران تحت ربٍّ آخر ، فرجعتْ الكثرة إلى وحدة هذا الربِّ سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً.

وبالجملة فهذا ـ أي قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ـ برهان تَامٌّ عقليٌّ قطعيّ علىٰ توحيد الله في ربوبيته وألوهيته ، خلافاً لبعض علماء الكلام من المتأخرين ، فإنَّه زعم أنه برهان إقناعي لا يكون حجةً إلا علىٰ عَوامِّ الناس لا علىٰ الخواص ، وهو خطأ فاحش.

وفي هذه الآية قياس استثنائي ترتيبه هكذا:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

لكنهما لم تفسدا.

فليس فيهما آلهة إلا الله جلَّ وعلا.

ومن هنا يَعلم العاقل أنَّ القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة ، الدالَّة علىٰ وجود الله تعالىٰ ووحدانيته ، والدالة علىٰ حقِّيَّة قضايا الإيمان كُلِّها.

* * *

هدي القرآن الكريم إلىٰ الإيمان بأنَّ محمَّداً رسُول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم

قال تعالىٰ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ الآية. صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

ففي هذه الآيات الكريمة وأمثالها، يهدي الله تعالىٰ العباد، بمعنىٰ أنه يبين لهم ويدعوهم إلىٰ الإيمان بأن محمداً رسول الله، أرسله الله تعالىٰ بالهدى ودين الحق، الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ثم إن الله تعالىٰ يَذكر في كثير من الآيات القرآنية ـ حَسَب المناسبات ـ يذكر جملةً كثيرةً من البيِّنات القطعية التي تثبت أن

محمداً هو رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حقاً ، دون شك ولا ارتياب .

وها أنا أذكر بعض ذلك ، بحيث يستنير للباحث طريق بحثه إذا أراد التوسع . إن شاء الله تعالىٰ .

البَيِّنات من الهُدى التي تُثبت قطعاً أنَّ محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

إنَّ القرآن الكريم لمَّا هدىٰ الناس إلىٰ الإيمان بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ودعاهم إلىٰ ذلك : أتاهم بالبيِّنات الساطعة ، لتكون الدعوة قائمةً علىٰ الحجة القاطعة ، بحيث لا يبقىٰ سبيل إلىٰ التردّد أو الشك في حَقِّيَّةِ رسالة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبذلك يكون الإيمان إيماناً كما قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الآية .

فقد جمع الله تعالىٰ للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنواع البينات القاطعات ، التي تُثبت أنه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، حتىٰ إنَّ الله تعالىٰ سمَّاه البينةَ ، لأنه مَجْمع كلِّ بيِّنة ، قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ الآيات .

فَمِنْ بينات الهَدْي القرآني ، إلىٰ الإيمان بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، هو تحدِّي العالَم أن يأتوا بمثله .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ الآية .

وقد جاء التحدِّي علىٰ مراحل:

فقد تحدَّاهم أولاً أن يأتوا بحديث مثله ، قال تعالىٰ في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾.

والمعنىٰ: إنْ كان القرآن كما يقولون أنَّ محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تقوَّله علىٰ الله تعالىٰ ، وأنه ليس كلام الله تعالىٰ ، فليأتوا بحديثٍ واحدٍ من أحاديثِ القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم ، فإذا كان محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم قادراً علىٰ أن يتقوَّله ـ كما يقدر الإنسان علىٰ أن يتكلم بكلام بليغ وفصيح ، من نظم أو نثر ـ فإنه من الممكن أن يأتوا بحديثٍ مثله ، كما أمكنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

ثم تحدَّاهم بعشر سُوَرٍ مثله ، قال تعالىٰ في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

ثم تحدَّاهم بسورة واحدة منه ، قال تعالىٰ في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وهذه التحدِّيات كانت في مكة المكرمة ، فَإنَّ هذه السور هي مكية: سورة الطور ، ويونس ، وهود.

ثم أعلن لهم عجزهم ، بل عجز الإنس والجنّ جميعاً عن أن يأتوا بمثله ، فقال تعالىٰ في سورة الإسراء ـ وهي مكية ـ: ﴿قُل لَّئِنِ

ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾.

فأمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يَعمَّ بهذا الخبر، معلناً به لجميع الخلائق، معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إن اجتمعوا كلهم، وتعاونوا وتظاهروا علىٰ أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله قطعاً، وهذا التحدِّي والدعاء عامّ لجميع الإنس والجن إلىٰ يوم الدين، وقد سمعه كُلٌّ من سمع القرآن، وعرفه الخاصُّ والعامُّ، ومع ذلك فَإِنهم لم يستطيعوا أن يعارضوه، ولا أن يأتوا بسورةٍ مثله.

ثم إنه سبحانه وتعالىٰ أعاد التحدي في المدينة المنوَّرة بأنوار المصطفىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، بعدما هاجر إليها، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فلقد تحدَّاهم سبحانه في هذه الآيات الكريمة، ثم نَبَّهَهم وحثَّهم علىٰ التذكر والتفكر، فأورد لهم أمرين هامَّين ينبغي لهم أن يفعلوهما ويتبصَّروا فيهما:

أحدهما قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي: لم تستطيعوا بعد بذل جهودكم بجموعكم وجماهيركم، لم تستطيعوا الإِتيان بسورة من مثله، قال لهم سبحانه من بعد ذلك: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ والمعنىٰ: فَإِن لم تفعلوا وعجزْتم، فقد علمتُم أنه كلام الله تعالىٰ، وليس بكلام مخلوق، فخافوا الله تعالىٰ أن تُكذبوا به، فَيَحِيق بكم

العذاب الذي وعد الله تعالىٰ به المكذبين ، واعلموا أن الكلام كلام الله تعالىٰ ، وأن محمداً حقاً هو رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

والأمر الثاني قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فسجَّل عليهم العجز عن الإتيان بمثله في المستقبل ، كما أنهم عجزوا في الحال ، وفي هذا عَلَم من أعلام نبوة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فإنه من باب الإخبار عن المغيبات ـ والأمر كما أخبر.

وإنَّ الكلام علىٰ وجوه إعجاز القرآن الكريم يحتاج إلىٰ مصنفات واسعة ، وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالىٰ وجزاهم الله تعالىٰ خيراً وجوهاً متعددة للإعجاز ، كلٌّ حسب ما وصل إليه وفتح عليه.

فالقرآن معجز من حيث أساليبه البلاغية ، ونظمه الذي لا يشبه نظم الرسائل والخطب ، ولا النثر المعروف عند الفصحاء ولا الشعراء.

والقرآن معجز من حيث المعاني التوحيديَّة ، وبيانه قضايا الإلٰهيَّات ، وتعريفه بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته ، وكمالاته وأفعاله جلَّ وعلا. وما يشتمل عليه ذلك من تسبيح الله تعالىٰ ، وتحميده وتمجيده وتقديسه ، وعبادته ودعائه وطاعاته.

والقرآن معجز من حيث المعاني التشريعية التي جاء بها من الأوامر أو النواهي الإصلاحية ، التي فيها سعادة العَالم ، فهو معجز في تشريعه وأحكامه ، التي هي مقتضىٰ حكمته سبحانه ، وهي مشتملة علىٰ مصالح الأنام ومكارم الأخلاق ، ومحاسن

الشيم ، وكمال الآداب ، وحسن العشرة ، وحسن المعاملة.

والقرآن معجز من حيث مواعظه وأمثاله ، وإثباته بالوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب.

والقرآن معجز في قَصَصه الذي قصَّه ، المشتمل علىٰ أنباء الأمم الماضية ، وما اشتمل عليه ذلك من بِعثة الرسل ، ومواقفها مع الأمم الماضية ، ومواقف الأمم معهم ، وعواقب الصالحين والفاسدين ، والمسلمين والكافرين.

والقرآن معجز من حيث تعليمه المناظرات ، وإبراز الحجج الدامغة البالغة ، وأدلته القاطعة علىٰ وجود الله تعالىٰ ووحدانيته ، وصدق نبوة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم.

والقرآن معجز من حيث إخباراته الغَيبية عمَّا مَضىٰ ، وعما هو آت ، وإخباره عن العوالم الملكية والملكوتية ، وعالم الملائكة وأوصافهم ووظائفهم ، وعن عالم الجن وأنواعهم ومراتبهم.

والقرآن معجز من حيث إنباؤه عن بدء الخلق عامةً ، وبدء خلق الإنسان خاصةً ، وأطوار تخليقه ، وإنباؤه عن القيامة وما فيها من الحشر والنشر ، ومن عالم الموقف والسؤال والحساب والميزان ، وأخذ الكتب ، والقصص ، والصراط ، والحوض ، والجنَّة ، والنار ، وحال أهلِ الجنَّة جعلنا الله تعالىٰ منهم ، وعن حال أهل النار أعاذنا الله تعالىٰ العظيم منها.

والقرآن معجز من حيث العلوم والمعارف التي جاء بها ، التي لا تُحدد ولا تستقصىٰ ، ولا تنقضي عجائبها ، ولا يزال يظهر للعقلاء والعلماء وجوه من إعجازه ووجوه ، ولذلك قال عبد الله :

إن من إعجاز القرآن: العجز عن إحصاء وجوه إعجازه ، بل إن من إعجاز القرآن العجز عن استقصاء الوجه الواحد من وجوه إعجازه.

وخذ مثالاً واحداً علىٰ إعجازه البلاغي حول آية واحدة من آياته الكريمة ، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فقد ذكر ابن أبي الأصبع أَنَّ في هذه الآية الكريمة عشرين ضَرباً من البديع ، مع أنها سبعَ عشرة كلمة ، وذلك **للمناسبة التامّة** في ﴿ ٱبۡلَعِي﴾ و﴿ أَقۡلِعِي﴾ ووجود الاستعارة فيهما.

والطباق بين الأرض والسماء.

والمجاز في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ﴾ فإن المنادىٰ الحقيقي: يا مطر السماء.

والإشارة في: ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فإنه عبَّر به عن معانٍ كثيرة ، لأن الماء لا يغيض حتى يُقلع مطر السماء ، وحتى تَبلعَ الأرض ما يخرج منها ، فينقص ما علىٰ وجه الأرض من الماء.

والإرداف في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾.

والتمثيل في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

والتعليل أيضاً ، فَإن غَيض الماء علة للاستواء.

وصحة التقسيم: فَإِنه استوعب أقسام الماء حال نقصانه.

والاحتراس في الدعاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لئلا يتوهَّم أَنَّ الغَرَقَ لعمومه شَمل من لا يستحق الهلاك ، فَإنَّ عدْله تعالىٰ يمنع من ذلك.

وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنىٰ.

والإِيجاز فَإِنه سبحانه قصَّ علينا هذه القصة مستوعبةً بأوجز عبارة.

والتسهيم لأَنَّ أول الآية يدل على آخرها.

والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحُسن.

وحسن البيان من جهة أَنَّ السامع لا يتوقف في فهم معنىٰ الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه.

والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلِّها، مطمئنة في مكانها.

والانسجام التامُّ. اهـ.

وزاد العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالىٰ بَعد أن نقل هذا عن ابن أبي الأصبع: **الاعتراض**.

وزاد آخرون أشياء كثيرة، وقد أَلَّف بعض العلماء الأفاضل رسالةً خاصة في هذه الآية الكريمة، وجمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها وبدائعها، فبلغ ذلك مائة وخمسين مزيَّة.

وقد تكلم كثير من كبار علماء البلاغة حول هذه الآية الكريمة، وما فيها من وجوه البيان والمعاني والبديع، وأجادوا وأفادوا، ولكنهم ما أحاطوا بما هنالك، وإنَّ وراء تلك الوجوه التي ذكروها وُجوهاً، ووجوهاً لا غايةَ لها ولا انتهاء.

وذلك لأنَّ جميع ما ذكروه من وجوه البلاغة، إنما هو علىٰ حسب قوانين بلاغة كلام العظماء والبلغاء والحكماء والعلماء، وعلىٰ حسب أساليب قواعدهم ومعارفهم، ولكنهم عباد من خلق

الله تعالىٰ ، محدودون في علومهم وحكمتهم ، وبلاغتهم ، وأساليب كلامهم .

وإنَّ هذا القرآن الكريم هو كلام رب العالمين ، الخالق الخلاق ، العليم الحكيم ، الذي لا انتهاء لعلمه ولا لحكمته ، وقد تكلَّم سبحانه بهذا الكلام القرآني عن علمه وحكمته ، وأنزله علىٰ رسوله سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم كما قال سبحانه: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، وأنزله موصوفاً بالإعجاز ، فكيف يُحاط بوجوه بلاغته ، وإبداعه ، وهو كلام الله تعالىٰ المعجز ، الذي أعجز البلغاء والحكماء ، وأولي الأنظار والآراء ، مع التحدِّي لهم ، فلم يستطيعوا معارضته ، لأنَّ كلامه سبحانه فوق البلاغة التي بلغوها ، وفوق العلم الذي وصلوا إليه ، فإن علم الله تعالىٰ إليه المنتهىٰ وهو لا يتناهىٰ ، وحكمته فوق كل حكمة ، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

ولذلك افتتح كثيراً من السور بفواتح حرفيَّة ، مجابهاً للعالَم بالتحدِّي ، ومعلناً لهم عجزهم عن مثله ، بأن أدخلهم تحت قنطرة العجز والإقرار بإعجاز القرآن؛ من قبل أن يدخلوا في ظلال آياته التالية لتلك الآية المركبة من الحروف المقطعة المفتتح بها .

وبيان ذلك: أَنَّ افتتاح بعض السور القرآنية ببعض الحروف فيه إعلان للعالم كله ، وإعلام للفصحاء والحكماء والبلغاء ، بأن هذا القرآن الكريم هو كلام مركَّب من مثل هذه الحروف: ألف ، لام ، ميم ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ص ، إلىٰ ما هنالك ، فإن كنتم ترون أيها البلغاء والفصحاء أنَّ هذا القرآن هو كلام محمد بن عبد الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، ومن تركيبه ، أو أنه تعلَّمه من بشر ، أو

هو من جنس كلام البشر ، فتعالوا فانسجوا وألِّفوا وركِّبوا من هذه الحروف مثل هذا القرآن ، ولكنكم ما تستطيعون ، فَإن لم تفعلوا ذلك وعجزتُم ، فيجب عليكم أن تعلموا أن هذا القرآن الكريم هو كلام رب العالمين ، أنزله علىٰ سيد ولد آدم أجمعين صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

هذا ومن المعلوم أن الحروف في لغة العرب هي نوعان: حروف المباني ، وحروف المعاني.

فالأولى تُبنىٰ منها الكلمات ، ومن الكلمات تؤلَّف الجُمَل.

وأما حروف المعاني فهي تدل علىٰ معانٍ وُضعتْ لها في أصل اللغة ، وهي داخلة في جمل الكلام: ففي: للظرفية ، ومن: للتبعيض أو للابتداء ، ونحو ذلك ، والباء: للإلصاق ، وغير ذلك.

ثم إن قراءة حروف المباني التي تبنىٰ منها الكلمات لها طريقان:

الأولىٰ: أن تقرأ بحقيقتها وهذا هو التهجِّي كقولك: أ، ل، م.

والثانية: أن تقرأ بأسمائها فيقال: ألف ، لام ، ميم. وتكون حقيقة الحرف هي: أول حرف من اسمه.

فجاء القرآن الكريم مفتتحاً سُوراً منه ببعض حروف المباني ، فقرأها رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بأسمائها ، وعلّمها للناس ، فمن أين علم ذلك في حين أنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم

قد نشأ أميّاً لم يقرأ كُتباً ، ولم يأخذ من معلِّم ، ولا من أهل الكتاب.

نعم إن ذلك بتعليم رب العالمين وتلقينه إياه ، فهو سبحانه قال له: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ أي: اقرأ باسم ربك لا بعلمك ولا دراستك ، فإنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لَيسَ له عِلمٌ بذلك سابق ، ولا دراسة سابقة ، بل هو النبي الأمي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فقرأ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تلك الحروف بأسمائها كما أنزلت عليه ، وعلَّمَها للناس ، وَبيَّن فضل تلاوتها ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله تعالىٰ فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف».

فذكر صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم حروف القرآن بأسمائها.

علىٰ أنَّ افتتاح السور بتلك الحروف فيه حكمة ثالثة ألا وهي: التنبيه علىٰ شرف هذه الحروف وعظيم قدرها ، إذ هي مباني كلامه سبحانه ، وكتبه التي أنزلها علىٰ رسله صلوات الله عليهم ، ولهذه الكلمات الإلٓهية معانٍ عُظمىٰ ، ودلالات كُبرى ، إنها تدل علىٰ معرفة الله تعالىٰ وصفاته ، وكمالاته ، ووحدانيته ، وجماله وجلاله ، وعظيم سلطانه ، كما أنها تُعرفنا بعجائب مبدعاته ، وأصناف مخلوقاته ، فحُقَّ لها أن يفتتح بها ويقسم بها.

وكما أَنَّ الله تعالىٰ افتتح بعض السور من القرآن الكريم بآياته الكونية: كالشمس ، والقمر ، والفجر ، والضحىٰ ، والليل ،

والسماء ذات البروج ، مقسماً بذلك لما فيها من الدلالات على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وكمال أسمائه وصفاته ، وعظمة قدرته ، وسعة علمه وحكمته .

فقال تعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾ إلى ما هنالك .

كذلك أيضاً افتتح بعض السُّور القرآنية بهذه الحروف المتلوَّة ؛ فإنها آيات كبرى ، تدل على وجود الله تعالى ، ووحدانيته وصفاته ، وكمالاته ، وقدرته .

بل هي أدلُّ من تلك الآيات الكونية وأعظم ، لأنها تحمل من العلوم الإلٓهية والمعاني القدسية الربَّانية ما لا تحمله الشمس ولا القمر ، ولا السماء ، ولا الأرض ، ولا الجبال ، فهي أحقّ أن يفتتح بها .

قال الله تعالى : ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ ﴾ أي : لكان هذا القرآن .

وإن هذه الحروف لتحمل روحاً من أمر الله تعالى ، يُحيي به القلوب والأرواح ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ الآية .

فما أقوى هذه الحروف ، وما أعظمها وما أشرفها ، لقد حَمَلَتْ

رسالات رب العالمين ، وكلامه الحق المبين ، الذي فيه بيان أسمائه وصفاته تعالىٰ ، وأفعاله ، وأوامره ونواهيه ، وفيها الخبر عن وعده ووعيده ، ليوصِّل ذلك إلىٰ عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، وبذلك يهتدون إلىٰ معرفة ربهم سبحانه ، ومعرفة حقوقه عليهم ، ويعرفون الحقوق والواجبات فيما بينهم ، ومعرفة طريق السعادة ، ومعرفة ما ينفعهم وما يضرهم ، وما فيه خيرهم وشرهم ، فحقيق أن تفتتح بها السور القرآنية .

فهذه حِكَمٌ ثلاث ذكرتها للقارىء ، تتعلَّق بافتتاح بعض السُّور ببعض الحروف القرآنية :

١ ـ حكمة التحدي بها .

٢ ـ وحكمة الحجَّة والشهادة بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، الذي علمه الله تعالىٰ تلاوتها بأسمائها ، مع أنه أميٌّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، فإن ذلك عَلَم من أعلام نبوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

٣ ـ وحكمة التنبيه إلىٰ عظمة هذه الحروف وقوتها ، وأنها آيات الله الكبرىٰ الدالة عليه سبحانه . كما تقدم تفصيله .

وهناك حِكَم وحِكَم وليس موضع تفصيلها هنا ، وأرجو الله تعالىٰ أن يوفقني لبسط الكلام وتفصيله حولها في موضعٍ آخر ـ آمين .

ولكن أريد التنبيه كلَّ التنبيه ، إلىٰ أن كل حرف من هذه الحروف التي افتتحت بها السور هو مقصود بذاته ، وأن كلَّ حرفٍ

منها يدل علىٰ معنىٰ ، وأن كل حرف منها لله تعالىٰ به مراد.

فليستْ هذه الحروف المفتتح بها من باب السَرْد ، أو العدِّ ، وليستْ من باب صفِّ حروف كحروف الهجاء ، ليس لها معنىٰ ، أو ليس لله تعالىٰ بها مراد ، أو لا تدلُّ علىٰ شيء؛ وإنما أريدَ بها حرفيتها المفردة دون معنىٰ آخر ، كحروف الهجاء ؛ التي تقرأ هكذا: كَلاَّ وَلاَ ، كَما يتوهم ذلك البعض ، بحجة أن المقصود منها التحدي لا غير ، هذا فهم خاطىء ، ولم يقل بذلك أحد من العلماء المتقدمين ، ولا المفسرين ، وإنَّما وَهْمٌ سرىٰ لِبعض أدعياء الثقافة في العصر الحاضر.

بل اتفق العلماء رحمهم الله تعالىٰ ، علىٰ أن هذه الحروف ـ المفتتح بها بعض السور ـ لله تعالىٰ بها مراد ، ولها معانٍ مقصودة ، ولولا ذلك لكانتْ من باب الحشو ، أو الزيادة ، أو الفضول ، والقرآن الكريم منزَّه عن ذلك ، فإنه معجز ، وأعلن إعجازه ، وأعلن التحدي ، وإن الحشوَ والزيادة ينافيان الإعجاز والإيجاز ، بل يتنافيان مع البلاغة العربيَّة بوجهٍ عامّ.

وهذا أمر يجب اعتقاده ، وهو أن القرآن الكريم لا حشوَ فيه ولا زيادة ولا فضول ، بل إن جميعه بُجُمله وكلماته وحروفه كل ذلك هو عمدة وأصول ، وأن هذه الحروف المفتتح بها السور لله تعالىٰ فيها مراد ، وله فيها معانٍ مرادة ، وله فيها حِكَم كبيرة وكثيرة.

وكيف يصح أن تكون تلك الحروف المفتتح بها السور؛ لاغية لا مراد منها ولا مقصود بها ، بل هي حشو وزيادة ، كيف يصح

هذا؛ وقد بَـيَّنَ سيدنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم الذي ما ينطق عن الهوى ، أنَّ تلك الحروف هي من كلام الله تعالىٰ وآياته ، وأن قارئها وحدها يؤجر عليها كما يؤجر علىٰ تلاوة غيرها من آيات القرآن الكريم أجراً مضاعفاً.

فقد قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ قَرأ حرفاً من كتاب الله تعالىٰ فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف ، ولكن: ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» ، والمعنىٰ أن من قرأ ﴿الٓمٓ﴾ وحدها فقد ظفر بثلاثين حسنة.

فقد نصَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم علىٰ فضل تلاوة الفواتح من الحروف ، ليزيل الأوهام ، ويصحح الأفهام ، وليبين للناس أنها عمدة وأصول ، لا زيادة ولا فضول ، ولها معان ، ولله تعالىٰ فيها مراد.

إذاً ما هو المراد بها المقصود منها؟

فإن قيل: المراد المقصود منها هو التحدِّي فحسْب وليس وراء ذلك مرمىً ولا مراد آخر.

يقال: إذا كان المقصود هو التحدي فحسب ، فإنه يُكتفىٰ حينئذٍ بافتتاح سورةٍ واحدةٍ بالحروف ، وتكون المفتتح بها هي أول سورة نَزَلَت ، وبذلك يحصل التحدي بالنسبة لتلك السورة ، وبالنسبة لبقية السُّوَر بعدها.

أو تفتتح جميع السور بمثل هذه الحروف ، باعتبار أن كل سورة من القرآن يتحدَّىٰ بها ولو قصيرة ، كسورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ونحوها كما هو معلوم.

فلِمَ خُصِّصَتْ بعض السور دون بعض بافتتاحها بتلك الحروف ، ولِمَ افتتحت هذه السورة بحروف غير الحروف التي افتتحت بها تلك السورة الأخرى؟ ، ولِمَ افتتحت بعض السور بحرف مثل: ﴿قٓ﴾ ، و﴿نٓ﴾ ، وبعض السور بحرفين مثل: ﴿حمٓ﴾ ، وبعضها بثلاثة أحرف مثل: ﴿الٓمٓ﴾ ، وبعضها بأربعة أحرف مثل: ﴿الٓمٓرٰ﴾ ، وبعضها بخمسة أحرف مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ .

ولِمَ افتتحت سورة البقرة بـ﴿الٓمٓ﴾ وغيرها بـ﴿الٓمٓرٰ﴾ وغيرها بـ﴿حمٓ﴾ ، وهكذا فإن تخصيص بعض السور بحروفٍ دون غيرها لا بدَّ له من وجه التخصيص.

وإن تخصيص بعض السور بحرفٍ ، وثمَّة بحرفين ، وتلك بثلاثة ، وهكذا؛ لا بدَّ وأن له وجهاً مخصصاً وسبباً مميزاً ، تترتب حكم بالغة عليه.

قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ .

فهذا الكتاب القرآني محكم كله ، حصين رصين ، لا خَلَلَ فيه ولا حَشْوَ ولا فضول.

علىٰ أنَّ في افتتاح بعض السُّور القرآنية دون بعض بشطر عدد جملة الحروف من حيث الذات والصفات ، وتخصيصها بالافتتاح دون بقية الشطر الآخر ، إنَّ في ذلك وجوهاً من الحكم تقتضي ذلك ، فإن كلام الحكيم العليم منزه عن العبث.

قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ .

ومن هنا يعلم اللبيب يقيناً: أن لهذه الحروف معانِيَ سامية ، وأن لله تعالىٰ بها مراداً.

إذاً ما هو المعنىٰ المراد؟

نعم جرىٰ كثير من العلماء رحمهم الله تعالىٰ عند تفسير هذه الحروف ، علىٰ القول بأن الله تعالىٰ أعلم بمراده منها.

وهذا إقرار صريح منهم بأن لها معانِيَ مقصودة ، وأن لله تعالىٰ فيها مراداً ، أيْ أَنَّ لها معنىً أراده الله تعالىٰ بها ، ولكن لم يجزموا بتعيينه.

وقد ذهب كثير من العلماء المتقدمين ، وكثير من المفسرين رحمهم الله تعالىٰ ، إلىٰ البحث في المعاني المرادة بفواتح السُّوَر ، وكانتْ نتيجة بحثهم وتتبعهم لأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: أنَّ كل حرف من تلك الحروف يُشير إلىٰ اسم من أسماء الله تعالىٰ ، أو اسم من أسماء النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، حسبَ المناسبة لما وراءها من الآيات الكريمة ، وذلك من باب إطلاق الحرف من الكلمة وإرادة الكلمة ، وقد نقلوا ذلك عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، وعن التابعين مِنْ بَعدهم ، نُقولاً ثابتة ، وهذا هو الحق كما يتضح ذلك فيما يلي.

فَإن قَال قائل: إن القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ مبين ، كما قال تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ .

كما أن فهمه ينبغي أن يكون علىٰ الأسلوب العربي المبين ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي: لعلكم تعقلون

معانيه علىٰ منهاج اللسان العربي المبين.

فهل جاء في لسان العرب الفصحاء أنهم يطلقون الحرف الواحد ويريدون به الكلمة كلها؟.

فالجواب عن ذلك أن يقال:

أولاً: لقد جاء في فصيح لسان العرب أنهم يطلقون الحرف ويريدون الكلمة بتمامها، وأكثر ما يكون ذلك بين الأحباب، أو بين أولي الأفهام والألباب.

فقد نقل كبارٌ من أهل العلم والمعرفة في التفسير ولغة العرب، شواهد من كلام العرب الفصحاء وأشعارها، تدل علىٰ أن العرب كانوا كثيراً ما يَسْتغنون بذكر الحرف من الكلمة عن ذكرها بتمامها، ومن ذلك قول الشاعر:

جارية قد وَعَدَتْني أن تا   تدهن رأسي، أو تفلّي أو تا

أراد: أَنْ تَأتي وتدهن رأسه، أو تُفَلِّي، أو تمسح.

وقال الآخر:

نادوهم ألا الجموا ألا تا   قالوا جميعاً كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا.

وقال الآخر:

قلتْ لها: قِفي فقالت: قاف   لا تحسبن أنا نسينا الإيجاف

أراد: قالت: وقفت.

وقال زهير:

بالخير خيرات وإن شراً فَا   ولا أُريد الشرَّ إلا أن تا

أراد: وإن شرّاً فشرّ؛ إلا أن تشاء.

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ أعان علىٰ قتل مؤمن بشطر كلمة: لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله».

ورواه البيهقي من طريق أخرىٰ، ورواه الأصبهاني وزاد فيه: قال سفيان بن عيينة: هو أن يقول: أُقْ، يعني لا يتم كلمة اقتل، بل يذكر بعضها مكتفياً عن إتمامها.

وقد كثر استعمال ذلك في فصيح لغة العرب، كما نصَّ عليه الإمام الزجَّاج وغيره من أساطين اللغة العربية، ومَنْ أراد التوسع في هذا الباب فعليه بمطولات كتب اللغة العربية، ومطولات التفاسير المتقدمة.

ثانياً: لقد صحَّ عن جماعة من أكابر الصحابة ومنهم أمير المؤمنين علي رضيَ الله عنه، وابن عباس حبر الأمة، وأبيٍّ بن كعب وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، كما صح عن كثير من التابعين ومَنْ بعدهم، أن هذه الحروف التي افتتحت بها السور كلُّ حرفٍ منها دالٌّ علىٰ كلمة ـ أي: اسم ـ حذف أكثرها ودلَّ هذا المنطوق به علىٰ ذلك المحذوف، وذكروا تلك الأسماء المومىٰ إليها، ومن المعلوم قطعاً أن الصحابة رضي الله عنهم هم أعلم من غيرهم بكتاب الله تعالىٰ، ومن البعيد كل البُعد أن يجهلوا المراد بتلك الحروف، بل كانوا علىٰ علمٍ بالمراد منها بسبب جَودة

فهمهم، وسلامة فطرتهم وطبعهم، وأصالتهم وَمُكْنَتِهِم في لغة العرب.

ولو فُرِضَ أنهم كانوا لا يعلمونها لسألوا عنها رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، لأنها لم تأت في سورةٍ واحدةٍ من القرآن الكريم، بل افتتحت بها سور متعددة كثيرة، فكيف يسكتون عنها علىٰ جهل بها دون أن يفهموا المراد بها، وهم يتلونها آناء الليل وأطراف النهار؟!!.

وكيف يَتصوَّر العقل أنهم كانوا لا يعرفون المعنيَّ بها، وقد كانوا إذا اعتراهم إشكال حول آية أو كلمة من كتاب الله تعالىٰ، سألوا عن ذلك رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم، كما جاء ذلك في كثير من الأحاديث.

فلو كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني تلك الحروف ومراميها لسألوا عن ذلك رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم أيضاً.

بل كيف يَتصوَّر العقل أنهم لا يعرفون المعنيَّ بها، في حين أن المنهاج الدراسيَّ الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم، في تعلمهم القرآن ودراسته، كان يوصلهم إلىٰ العلم بمعاني آيات الله وفهم كلماته.

فقد روىٰ الإمام أحمد وغيره، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا مَنْ كان يُقرئنا ـ أي: يعلمنا القرآن ـ من أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم عَشْرَ آياتٍ، فلا يأخذون من العشر الأخرىٰ

حتى يعلموا ما في هذه العَشْر من العلم والعمل . قالوا: فعلمنا العلمَ والعمل.

ومن هنا تعلَم أَنَّ أقوال الصحابة حولَ الحروف المفتتح بها السور ، لها حكم المرفوع:

أولاً: لأن منهاج تعلمهم يقتضي ذلك ، ثانياً: لأنه لا مجال لتدخل الرأي في ذلك ـ كما هو معلوم عند المحدثين.

فالقول الصواب ـ والله تعالىٰ أعلم ـ: إن هذه الحروف التي افتتحت بها السور ، هي تشير إلىٰ أسماء الله تعالىٰ ، ومنها ما يشير إلىٰ أسماء النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم المنزل عليه أو صفاته.

وقد تختلف أقوال السلف في تعيين ذلك الاسم المومى إليه بذلك الحرف ، كما اختلفت أقوالهم في معاني الآية الواحدة من كتاب الله تعالىٰ. اختلاف تنوّع لا تضادّ.

ولكن لا بدَّ من مناسبةٍ بين تلك الأسماء المشار إليها وبين آيات السورة التي تليها ، يَفهم ذلك من رزقه الله تعالىٰ الفهم والعلم بكتابه جلَّ وعزَّ ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لما سئل: هل خصَّكم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بشيء من القرآن من دون الناس؟

فقال: (لا) ، ثمَّ قال في جوابه: (إلَّا كتاب الله ، وإلا فهماً يؤتيه الله تعالىٰ عبداً في كتابه). ا هـ.

فنسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا ذلك الفهم المحمديَّ ـ آمين.

وقد قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: فواتح السور فيها أسرار إلٰهية ، يَفهمها مَنْ فَهَّمه الله تعالىٰ. ا هـ.

فهذه الحروف المفتتح بها السور لها معان ، ولله تعالىٰ فيها مراد ، وجاء التحدي بها لزوماً ، كما أنَّ بقية الآيات القرآنية لها معانٍ ، وفيها بيان الأحكام الشرعية والكونية ، والوعد والوعيد ، والقصص لأخبار القُرون والأجيال السابقة ، وغير ذلك ، ومع هذا فهي متَّصفة بالإعجاز ، وفيها التحدي لجميع العالَم .

هذا وإن البحثَ في بيان تعيين تلك الأسماء المشار إليها بتلك الحروف التي افتتحت بها السور ، والبحث في بيان مناسبة تلك الأسماء لتلك السور ، وبيان بقية وجوه الحِكَم في افتتاح تلك السور القرآنية بتلك الحروف ، وما في ذلك من أسرار ومعارف ، ليس موضع بحثها هنا ، وأرجو الله تعالىٰ أن يوفِّقني لتفصيل ذلك حين أتكلم حول علوم القرآن الكريم إن شاء الله تعالىٰ ، وأمَّا كلامي الآن في ذلك فهو كعابر سبيل لمناسبةٍ ما .

والآن أعود إلىٰ أصل الموضوع حول عظمة القرآن الكريم ، وعظمة إعجازه فأقول : إذا علمتَ أيها العاقل اللبيب ، عظمة هذا القرآن الكريم ، وعظمة إعجازه؛ علمتَ عظمة المتكلم به ألا وهو الله رب العالمين جلَّ جلاله ، وعلمتَ حقاً صدق نبوة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وأنه رسول الله حقاً ، فإن هذا القرآن الكريم هو بيِّنة ساطعة ، وحجة قاطعة ، تُثبت أن محمداً رسول الله تعالىٰ ، جاء بهذا القرآن الكريم من عند الله تعالىٰ .

ولذلك أقام الله تعالىٰ الحجةَ علىٰ العباد ، وأفحم أهل الكِبْرِ والعناد الذين راحوا ينكرون نبوة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه آله وسلَّم ، ورسالته العامَّة لجميع العباد والبلاد ، فَبَيَّن لهم جميعاً أن

محمداً هو رسول الله تعالىٰ ، قد جاء ببينته علىٰ ذلك ، وأن قصته ليست هي دعوىٰ رسالة مجردة عن الحجة ، بل هي ثابتة بالبينة الدامغة والحجة البالغة ، كما أنَّ دعوته إلىٰ الله تعالىٰ هي علىٰ نور وبصيرةٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ الآية.

وإلىٰ ذلك كله يشير قول الله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فهذا سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، فإنه علىٰ بينةٍ من ربه ، تُثبت قطعاً أنه رسول الله تعالىٰ حقاً ، وهذه البيّنة هي القرآن العظيم الذي جاء به ، فإنه أعظم بينةٍ ، وأجمع وأقطع بيّنة ، وأسطع بينة ، وإليها المنتهىٰ وليس لها انتهاء.

والبَينة في الأصل اللغويّ هي : الدلالة الواضحة ، عقليةً كانت أو حسيةً ، وقد تُطلق علىٰ الدليل مطلقاً ، وهاؤها للمبالغة أو النقل.

وتنوين البيّنة في الآية الكريمة للتعظيم ، لأن بينة القرآن هي أعظم البينات ، وأيُّ بينة أعظم من هذه : القرآن العظيم الذي أعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل سورة واحدة ، وقد تحدَّىٰ ويتحدىٰ جميعَ العالم ، وأعلن عجزهم عن الإتيان بمثله.

ويدل علىٰ أن المراد بالبينة هي القرآن العظيم ، السباق السابق وهو التحدي في قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ

مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟!.

كما يدل علىٰ ذلك ـ أي: المراد بالبينة القرآن الكريم ـ اللحاق بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الآية، وهذا نظير قوله تعالىٰ في سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتلو هذا القرآن المدلول عليه بكلمة ﴿بَيِّنَةٍ﴾ يَتبعه في تصديق هذا الرسول الكريم، وحقيه نبوته ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم، وهو تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم لهذا القرآن الكريم، في حين أنه أميٌّ لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وليس له سابقة دراسة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!.

والمعنىٰ: أني لبثتُ فيكم قبل أن ينبِّئني الله تعالىٰ أربعين سنة، ولم أتل عليكم شيئاً من ذلك، لأنه لا علم لي بذلك، حتىٰ إذا بلغتُ الأربعين، فإن الله تعالىٰ نبّأني وأنزل عليَّ هذا القرآن الكريم، وأقرأنيه، وجمعه لي في صدري، وأمرني أن أتلوه

عليكم ، فاعقلوا تعلموا صدق نبوتي ، وحقية رسالتي قطعاً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

ويجوز أن يُراد بالشاهد منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم سنته ، وأحاديثه الشريفة ، فإنها عن وحي نبويٍّ من الله تعالىٰ ، كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ألا وإني أُوتيتُ الكتاب ومثلَه معه» الحديث رواه أبو داوُد وغيره.

فالبينة في الآية الكريمة هي القرآن الكريم ، والشاهد منه أحاديثه النبوية ، وكلاهما عن وحي من الله تعالىٰ ، لكن هناك الوحي القرآني وهناك الوحي النبوي ، والقرآن الكريم معجز ، والحديث النبوي جامع للكلم ، وهو المسمىٰ بالحكمة ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

وهو الميزان المقرون ذكره بالقرآن ، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كما بينتُ ذلك في مواضع متعددة.

ويجوز أن يراد بالشاهد منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ما أجراه الله تعالىٰ علىٰ يده صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من المعجزات وخوارق العادات ، وهذا باب واسع ، تدخل فيه المعجزات السماوية والأرضية ، والشجرية والجمادية ، والإِخبارات الغيبية ، وما جاء في تكثير الطعام والشراب؛ إلىٰ ما وراء ذلك ، وما جاء في كفاية الله تعالىٰ له شرَّ أعدائه ، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

وما جاء من وقاية الله تعالىٰ له وحفظه من أعدائه ، وفي ذلك

يقول سبحانه: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وما جاء في انشقاق القمر تصديقاً لنبوته واستجابةً لدعوته، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ الآيات.

وما جاء من نصر الله تعالىٰ له علىٰ أعدائه أُولي العَدَد والعُدَّة، وانهزامهم ووقوع الخيبة عليهم، وفي ذلك يقول سبحانه عما أيَّده به يوم بدر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآيات الكريمة، ويوم حنين، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآيات.

وهناك معجزات ومعجزات، كلها شواهد صِدق وأدلَّة حق، تُثبت أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حقاً لا ريب فيه.

وهذه الوجوه التي ذَكرتُ حول تفسير الشاهد منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كُلها حقّ، وتدخل كلها تحتَ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ويكون المعنىٰ: ويتلوه شاهد منه إثر شاهدٍ وهكذا دَوالَيْك، وهذا له نظائر في فصيح لغة العرب.

❊ ❊ ❊

القرآن الكريم
يُخْبِرُ عَنْ أَوْصَافِ سَيِّدِنا مُحَمَّد
صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
المَذْكُوْرَةِ في الكُتُب السَّمَاوِيَّةِ
وهٰذا من بَيِّنَاتِ هَدْي القرآن الكريم

قال الله تعالىٰ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

وقال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقال الله تعالىٰ مخبراً عن عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الآية الكريمة.

فقد أخبر القرآن عن ذكر هذا الرسول الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في التوراة والإنجيل، وأنه بَشَّر به عيسىٰ ابن مريم عليه السلام.

ولا شك في أن إخبارات القرآن الكريم هي حق، وهي حقيقة الوقوع قطعاً، لا يرتاب في ذلك عاقل، يدلك علىٰ ذلك وجوه من الأدلة القطعية:

أولاً: إن الإخبارات عن ذكره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في التوراة والإنجيل، وعن بشارة عيسىٰ عليه السلام، جاء ذلك في القرآن الكريم، والقرآن الكريم هو كلام الله تعالىٰ حقاً، بدليل أنه معجز عن الإتيان بمثله، وإذا كان كذلك فهو كلام الله تعالىٰ حقاً: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ وقد جاءنا بتلك الإخبارات عن الكتب السابقة: التوراة والإنجيل، فلا شك إذاً أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مذكورٌ فيها قطعاً.

ثانياً: إنَّ إعلامه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أهلَ الكتابين بذلك، وإعلانه لهم بأنه مذكور في كتبهم: التوراة والإنجيل، واحتجاجه عليهم بذلك، هو أكبر دليل عقلاً علىٰ ثبوت ذلك قطعاً، فإنَّ أحداً من العقلاء لا يَقدم علىٰ إعلان ذلك، ولا يُمكنه أن يحتج بذلك إلا بعد أن يكون علىٰ يقين قطعيٍّ بثبوت ذكره في تلك الكتب، وإذا لم يكن علىٰ يقين بذلك لا يقدم علىٰ إعلان ذلك، مخافة أن يُكذَّب بأن يقال له: هذه التوراة، وهذه الأناجيل وليس فيها شيء مما

تقول ، وحينئذٍ يعود الأمر عليه بالنقض لدعوته وحجته عليهم.

كلاَّ. بل لقد أعلن لهم ذلك رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم وأعلمهم ، واحتج عليهم بما هو في كتبهم ، ولم يستطيعوا أن ينكروا ذلك ، ولكنهم كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل بعثة محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يقولون للمشركين سيظهر رسول قريباً ، ونكون معه ، وننتصر به عليكم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والكفر هو: ستر نور الحق بعد ظهوره.

ثالثاً: إن النقول الثابتة بالأسانيد الصحيحة عن علماء أهل الكتاب الذين أسلموا ، والتي جاءت عن الصحابة الذين كان لهم اطلاع علىٰ التوراة والإنجيل ، هي تدل علىٰ ذلك وتثبته.

فقد روىٰ البخاري في (صحيحه) عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في التوراة.

فقال: أجل. والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميِّين ، أنتَ عبدي ورسولي ، سمَّيتكَ المتوكل ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا سخَّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئةِ السيئةَ

ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالىٰ حتىٰ يقيم به الملَّة العوجاء ، بأن يقولوا: لا إلٓه إلا الله ، ويفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً».

وروىٰ الترمذي وغيره ، عن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه قال: (مكتوب في التوراة صفة محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وعيسىٰ ابن مريم يُدفن معه).

وروىٰ أبو داود ، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: سمعت النجاشي صاحب الحبشة رحمه الله تعالىٰ يقول: (أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه الذي بَشَّر به عيسىٰ عليه السلام ، ولولا ما أنا فيه من الملك ، وما تحمَّلت من أمور الناس: لأتيتُه حتىٰ أحمل نعليه).

وهناك نقول كثيرة بأسانيد صحيحه تخبر عن ذلك.

* * *

القرآن الكريم
يَذْكَرُ وَقَائعَ كُبرىٰ فيهَا خَرْقٌ لِلْعَادَةِ
أَجْراها الله تعالىٰ مُعْجِزَةً مُصَدِّقَةً لِرَسُول الله
صلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم
تَشْهَدُ بِصِدْقِ رِسَالَتِهِ وَحَقِّيَّةِ رِسَالته
وهٰذا مِنْ بيِّنَات هٰذي القرآن الكريم

لقد ذكر الله تعالىٰ في القرآن الكريم وقائع كبرىٰ خارقة للعادة ، أجراها الله تعالىٰ معجزة لرسوله الكريم سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، شاهدة بصدق نبوته ، وَبَيِّنَةً علىٰ حقيَّة رسالته ، سجل ذلك في القرآن الكريم ، لتكون حُجةً علىٰ جميع الأمم ، ومختلف الأجيال والقرون إلىٰ يوم الدين ، لأنَّ فيها الإعجاز لجميع الطبقات ، والإعجاز لسائر أنواع القوّات والطاقات.

فمن ذٰلك معجزة انشقاق القمر ، التي شاهدها جماهيرُ من البَشَرِ ، ورأَوْها رُؤيا عين وبصر.

قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ الآيات.

وذلك أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم حين كان في مكة قبل الهجرة ، وقد أراهم من الآيات وخوارق العادات ، وأتاهم بالأدلة والبينات ، فمنهم مَنْ آمن ومنهم أبىٰ وأعرض وعارض ، فراحوا يقترحون عليه أموراً معاجزين له ، يَرون أنها مستحيلة الوقوع ، فسألوه أن يشقَّ لهم القمر.

ففي (الصحيحين) وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه: (أن أَهْلَ مَكَّة سألوا النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم أنْ يُريهم آيةً ، فأراهم القمر شقتين ، حتىٰ رأوا حِراء بينهما).

وفي رواية فقال لهم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «اشهدوا».

وفي رواية لأصحاب السنن: انشق القمر علىٰ عهد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة.

فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار ـ أي: المسافرون القادمون فإنهم كانوا يركبون الليل ـ فإنَّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السُّفَّار فأخبروهم بذلك ـ أي: بأنهم رأوا القمر قد انشق ـ.

وفي روايـة لأبي نعيـم ، عن ابن عبـاس رضـي الله عنهما قال: اجتمع المشركون علىٰ عهد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاصي بن وائل، والعاص بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب، وربيعة بن الأسود، والنضر بن الحارث ـ وهؤلاء صناديد المشركين وعُتـاتُهم ـ فقـالوا للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: إن كنتَ صادقاً فَشُقَّ لنا هذا القمر.

فقال لهم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «إن فَعلتُ ذلك تؤمنوا»؟

قالوا: نعم! وكانت ليلة بدر.

فسأل رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ربَّه عزَّ وجلَّ أن يعطيه ما سألوه: فصار القمر نصفين متباعدين، وجعل صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ينادي بهم: «اشهدوا».

وقد صدَّر الله تعالىٰ سورة القمر بذكر انشقاق القمر، ليعلن سبحانه للعالم أنَّ بَيِّنات صدق نبوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم هي ظاهرة ظهور القمر، وأنه الرسول المحدَّث عن بعثته في آخر الزمن، وعلىٰ نهاية أمته تقوم الساعة، ولذا قرن ذكر هذه المعجزة باقتراب الساعة، وأيضاً ليبين للفلاسفة القائلين بقدم العالَم وعدم فنائه؛ بيّن لهم أن العالم هو آيل إلىٰ الفناء لا محالة، وأن القيامة حق بدليل انشقاق القمر، وهو من جملة الكواكب السماوية العظام، وحيث أن القمر جاز عليه وقوع الانشقاق، فيجوز عليه الدَّمار، وإنَّ انصداع الجدار دليل خرابه، وهكذا بقية الكواكب فإنها مثله، وهكذا كوكب الأرض، لا فرق بين ذلك كله.

وقد ذكر سبحانه في سورة القمر تلك الوقائع الكبرىٰ، التي أيَّد بها رسله، وكانت كلها معلومة عند أهل الكتاب، ومعروفة لدىٰ جميع قبائل العرب بالتناقل.

وصَدَّر سبحانه ذكر تلك الوقائع الكبرىٰ، بالواقعة التي هي أكبر وأبهر وأظهر، وهي انشقاق القمر معجزة لرسول الله سيدنا محمد بن عبد الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، لأنها معلومة بالمشاهدة والمعاينة، شاهَدَها كثير من الصحابة رضي الله عنهم،

وعاينها جمع كبير من كفاز قريش ، لأنهم هم اقترحوها وتداعوا إلىٰ الاجتماع لمعاينتها.

ولا يضرُّ خفاؤها عن بعض العيون إذ ذاك ، لأنها نائمة ، أو لِعَدم تطلّعهم إلىٰ القمر إذ ذاك في تلك المدَّة الوجيزة ، وإنَّ كثيراً من الناس قد يُخسف القمر وتطول مدة خسوفه ساعات طويلة من الليل؛ ولكنهم لا يشعرون لانشغالهم بالنوم ، أو لمكثهم داخل بيوتهم ، أو عدم انتباههم لذلك.

وقد ذكر سبحانه في سورة القمر ، وقائع مؤيِّدة لنوح عليه السلام ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وموسىٰ علىٰ نبينا وعليهم الصَّلاة والسلام.

فذكر طُوْفَان نوح ، والريح العقيم المرسلة علىٰ عاد قوم هود ، وذكر ناقة صالح ، وذكر طمس أعين المسرفين من قوم لوط وأخذهم بالصيحة ، وذكر أخذه لِفِرْعون ومَلَئِـهِ أَخْذَ عزيز مقتدر.

وكلَّما ذكر سبحانه واقعةً من تلك الوقائع عقَّبها بقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟!.

ولما ذكر سبحانه واقعة الانشقاق في صدر السورة عقبها بقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

فعَنَّف كفار قريش وغيرهم ممن أعرض عن الاعتبار بهذه الواقعة الكبرىٰ والمعجزة العظمىٰ ، ولم يتذكر ولم يزدجر.

ثم إنه سبحانه بعد ما ذكر عواقب المكذبين لرسلهم من تلك الأمم ، وجَّه الإنذار لكفار قريش ، وحذَّرهم من العِناد والإصرار

علىٰ الكفر برسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بعد ما ظَهَرتْ لهم معجزاته ، فقال لهم سبحانه : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وكان الأمر كذلك يوم بدر كما هو معلوم.

وهذا كله دليل تحقق وقوع انشقاق القمر ، معجزةً للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وقد بلغت أحاديث انشقاق القمر حدَّ التواتر المفيد للقطع ، كما نصَّ عليه المحدثون.

وَيَذكر سبحانه من بينات صدق نبوة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، حفظ الله تعالىٰ له ليلة هجرته ، حين رقبه المشركون ليقتلوه ، ويقول في ذلك سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

فخرج صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم من بين الصفَّين ، ورماهم بكفٍّ من التُراب ، فَنَثَره علىٰ رؤوسهم ووجوههم وهم لا يرونه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم حتىٰ الصباح ؛ فجاءهم رجل وقال لهم : لقد رأيتُ محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في مكان كذا وكذا.

وأرسلوا وراءه الطلب ، وحفظه الله تعالىٰ في طريق هجرته ، إذ آواه إلىٰ الغار ، وحَصَّن له الغار بحصانته سبحانه ، وجاءت لعنكبوت فبنت العنكبوت ، وعشَّش الحمام ، وأعمىٰ عنه الأبصار.

وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ الآية.

ومن بَيّنَاتِ صدق نبوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، التي ذكرها

القرآن الكريم ، تلك الرمية التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يده بكف من الحصىٰ ، فأصابتْ وجوه الأعداء كلهم يوم بدر ، وليس ذلك من قدرة البشر ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآية .

ووقع نظير ذلك يوم حنين أيضاً كما تقدم .

هذا . وإنَّ البحث حول خوارق العادات ، التي أجراها الله تعالىٰ معجزةً مصدقة لنبيه وحبيبه ورسوله سَيِّدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، مما هو مذكور في القرآن الكريم ، وما ورد في كتب الأحاديث النبوية ، البحث في ذلك مفصَّلاً سوف يأتي إن شاء الله تعالىٰ في موضعه .

وهكذا القرآن الكريم يَذكر أنواعاً من بَيِّنات صدق نبيِّه سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، ويذكر فصولاً من الفرقان بين الحق الذي جاء به ، ودعا إليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ؛ وبين الباطل الذي ادَّعاه ودعا إليه أهل الباطل ، وأقام عليهم الحجة ، وألقمهم حَجَرَ الخذلان ، وأذكر لك جملةً موجزةً فيما يلي إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

القرآن الكريم
يَـرُدّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ القرآنَ الكَريم
مِن تلقَاء رَسُول الله
صلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وَسَلّم
وَكَلامِهِ

لقد ردَّ القرآن الكريم علىٰ مَنْ زعم أن هذا القرآن الكريم هو من كلامه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ، أو أنه تلقَّاه عن أهل الكتاب ، أو اطَّلع علىٰ كتبهم ، وجمعه وصاغه بأساليب العربية الفصيحة إلىٰ آخر ذلك ، وأثبتَ أنَّ هذه الدعاوي والمزاعم باطلة مردودة قطعاً من عدَّة وجوه:

أولاً: إنَّ هذا القرآن الكريم جاء بصفة ذاتية ، وصبغة أساسية ، لا تنفكُّ عنه ولا ينفكُّ عنها وهي: صفة الإعجاز.

فلقد أنزله الله تعالىٰ علىٰ وصفٍ مباينٍ لأوصاف كلام البشر ، ومغاير لأساليبهم ، فهو كلام منظوم ولكنَّه ليس بشعر ولا منثور ، ولا يشبه نظمه نظم الرسائل ، ولا نظم الخطب ، ولا الأشعار ، ولا أخبارَ الكُهَّان.

وقد تحدَّىٰ جميعَ الإنسِ والجنِّ أن يأتوا بمثله إن ارتابوا في أمر هذا القرآن ، وزعموا أنه من عند رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فتحدَّاهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ثم نقصهم تسعَ سُور ، وانتهىٰ معهم إلىٰ أن يأتوا بسورةٍ من مثله فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثم أعلمهم بعجزهم عن ذلك حالاً ومآلاً ، وأعلنَ ذلك إعلاناً باقياً إلىٰ يوم الدين ، يقصم ظهر كلَّ مَنْ تحدِّثه نفسه بالمعارضة ، وينكس رأس كل مَنْ يزعم أن هذا القرآن هو من صنع البشر وصياغته ، وإنما هو كلام رب البشر ، المعجز للأولين والآخرين فقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

يعني: إذا لم تقدروا علىٰ الإتيان بسورةٍ من مثل هذا القرآن الكريم ، بعد جهودكم المبذولة ، وجموعكم المحشودة ، فاعلموا أنه ليس من كلام البشر ، فلو كان من كلام البشر لَقَدَرْتم علىٰ مثله ، وإنما هو كلام رب العالمين ، فآمنوا به وبرسوله ، ولا تكفروا ، وبذلك تَقُون أنفسكم من عذاب النار التي أعدت للكافرين.

وَقَد أعلَنَ الله تعالىٰ إعلاناً عامَّاً لجميع الإنس والجن ، علىٰ

مختلف طبقاتهم وأجيالهم ، وتوالي عصورهم ، بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم ، ولو بذلوا كلَّ جهودهم وطاقاتهم بالتعاضد والتعاون :

قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة أنواع من التحديات المتضاعفة ، والمتعاطفة المتكاتفة ، التي تُلهب النار في قلب الخصم المعاند ، وتَهُدُّ أركانَ المعارِض الجاحد ، وذلك أنها تطالبه أن يأتي بمثله : حديثاً ، أو سُوَراً ، أو سورةً واحدة ، فإذا لم يقدر فتحدَّاه أن يتعاون مع بني جنسه من الفصحاء والحكماء والعلماء علىٰ الإتيان بمثله ، فإذا عجز فهو يتحدَّاه ويطالبه بأن يستعينَ علىٰ ذلك بكافَّة بني جنسه الإنس وغير بني جنسه الجن ، ثم يُسجِّل عجز الكلّ عن ذلك جميعاً أو أشتاتاً ، ويُعلن منشور هذا العجز علىٰ مسمع ومشهد جميع الأجيال ، وتوالي القرون ، ومع هذا التحدِّي المُلهِبِ الحارِّ اللاذع لهم لَمْ يتقدَّم لذلك أحدٌ ولن يتقدم أبداً .

ثانياً : إنَّ كل عاقل يستبعد كلَّ البعد ، ويَرىٰ من المستحيل أن يقول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للناس ائتوا بسورةٍ بمثل ما جئتُكم به من القرآن ، ويقول لهم إنكم لن تستطيعوا ذلك ، فإن أتيتم به فأنا كاذب ، يستحيل أن يقول ذلك وهو يعلم من نفسه أن القرآن لم ينزل عليه ، وأنه هو الذي تولَّىٰ وضعه وصياغته ، ويعلم أنَّه لا بدَّ وأن يكون في قومه من يعارضه ، وينظم له من الكلام بالتعاون والتعاضد مع مَنْ هو مثله ، باعتبار أن فيهم البلغاء والفصحاء والحكماء ، وهم قد بلغت فيهم البلاغة العربية في ذلك

العصر أوجَها الأعلىٰ ، وهو يعلم أنهم إن أتوا بمثله فهو حينئذٍ تبطل دعوته ، وينتقض أمره أبداً ، فإن من المستحيل أن يُقدم عاقل علىٰ ذلك!! فكيف يقدم علىٰ ذلك مَنْ أثبتَتْ الشواهد والوقائع أنه أعقل العقلاء صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

إذاً فهذا دليل قاطع علىٰ أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لم يَقُل ائتوا بمثل هذا القرآن إن استطعتم ، ويقول لهم إنكم لن تستطيعوا ذلك ، لَمْ يَقُل هذا إلاَّ وهو واثق كلَّ الثقة ، وموقن كلَّ الإيقان أنهم لا يستطيعون ذلك لأنه ليس من جنس كلام البشر ، ولا من عنده ، بل هو كلام الله تعالىٰ المعجز للعالمين.

كما أن ذلك يدل علىٰ أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم لم يكن يقينه بعجزهم عن الإتيان بمثله صادراً من قِبَل نفسه ، وإنما حصل له ذلك اليقين من ربه تعالىٰ الذين أنزله عليه ، وأوحاه إليه ، وأخبره بعجزهم عن ذلك.

علىٰ أن الإخبار عن عجزهم إلىٰ يوم الدين ، هذا أمر غيبيٌّ ليس من وُسع البشر أن يحيط به علماً ، وإنما يُحيط به علماً هو الله تعالىٰ الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأطْلَع الله رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم علىٰ ذلك.

ثالثاً: إنَّه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لما تحدَّاهم وقال لهم: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ طالتْ المهلة وامتدَّتْ بهم المدَّة ، واتسعتْ لهم أوقات النظر في ذلك ، ومع ذلك فهو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يتحدَّاهم بشدة وإزعاج ، مع شتم آلهتهم ، وتسخيف آرائهم ، وتشتيت شملهم ،

وتفريق جمعهم ، حتىٰ انتهىٰ بهم الأمر إلىٰ الحرب والقتل والضرب ، فَقُتِلت صناديدهم ، وسُبِيتْ ذراريهم ونساؤهم ، وسُلِبتْ أموالهم ، ومع ذلك لم يتعرَّض أحد منهم لمعارضة هذا القرآن والإتيان بسورةٍ مثله.

فلو كانوا قادرين علىٰ ذلك لتسارعوا كلهم متعاونين ، ليفتدوا به أنفسهم وأولادهم وأهلهم وأموالهم ، إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وبيان ، وشعر وخطابة ، وهم مصاقع اللغة العربية الفصيحة ، فلما عجزوا ولم يأتوا بذلك مع التحدي اللاذع ، والتحريض القامع ، تبيَّن قطعاً أنهم كانوا عاجزين عنه بل كانوا مُقرِّين بعجزهم.

ولذلك لم يطلبوا منه مدةً يُمهلهم فيها حتىٰ يجمعوا أمرهم ، ويوحِّدوا صفوفهم؛ لمعارضة هذا القرآن المعجز ، والإتيان بسورة مثله ، لم يستمهلوا ولم يطالبوا بإنظارهم لا مدةً قصيرة ولا مدةً طويلة الأمد ، لعلمهم القاطع أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله أبداً.

وفي ظهور عجزهم دليل علىٰ عجز كل من يأتي بعدهم ، لأن أولئك هم أفصح العرب وأقواهم بلاغة ، وأشدُّهم شكيمةً علىٰ معارضة القرآن والإتيان بمثله ، فهذا كله دليل علىٰ أن هذا القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وليس من كلام رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، فإنه أيضاً عاجز عنه ، لأن لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو لسانهم ، وما دام الأمر كذلك ، وقد جاء صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بهذا القرآن المعجز ، وجب القطع بأنه كلام الله تعالىٰ ، نازل من عند الله تعالىٰ ، علىٰ سيدنا محمد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لا يحتمل الأمر غير ذلك قطعاً.

رابعاً: لقد اشتمل القرآن الكريم علىٰ علوم جمَّةٍ كبيرة القدر ، عظيمة الشأن ، يعجز الإنسان عن استقصائها ، كما وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ ، فكلّ سورةٍ كتاب ، بل كلُّ علم جاء به القرآن الكريم يملأ كتباً قيّمة .

فَمِنْ ذلك علم التوحيد والعقائد القائم علىٰ البراهين والأدلة القاطعة ، وعلم العبادات وأنواعها ووجوهها وأقسامها ، وعلم المعاملات المالية وبيان نافعها من ضارها ، وعلم الأحوال الشخصية والمعاشرات الزوجية وأحكام الأسرة ، وبيان الحقوق بينهم ، وعلم المواريث والنفقات ، وعلم الأحكام ، وبيان الحلال والحرام .

وعلم النظر والاستدلال علىٰ وجهٍ لا تجاوز عنه ولا زيادة عليه ، بحيث يقف العقل أمامه مستسلماً خاضعاً ، وإن الحكماء والنظَّار مهما أمعَنوا النظر ، وبالغوا وصنَّفوا ، وقدَّموا وأخروا: فإن ما يصلون إليه من صَواب الاحتجاج والبرهان الصادق ، لا بدَّ وأنه راجع إلىٰ القرآن الكريم ، وعنه يُؤخذ ، ومنه يصدر .

كما اشتمل علىٰ علم الآداب ، ومكارم الأخلاق ، والشمائل المحمودة .

كما اشتمل علىٰ علم المواعظ والتذكير ، وعلم الأمثال والقصص ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

كما اشتمل علىٰ الإخبارات عن الأمور الغيبيَّة الماضية والآتية .

كما اشتمل علىٰ الإخبارات عن العوالم الكونية: العلويَّة

والسفلية ، الجسمية والروحية ، والعنصريَّة والروحانية ، والغَيْبية والشهودية ، إلىٰ ما وراء ذلك من علوم وعلوم.

ولا شكَّ أَنَّ هذه العلوم بهذا الشكل الكافي الوافي ، لا يتَّفق لأحدٍ من الناس أن يأتي به من تلقاء نفسه ، بنصوص فيها الإِيجاز والإِعجاز ، بلا إخلال ولا إملال ، ويجمع ذلك في كتابٍ قَدْرُهُ كَقَدْرِهِ؛ وَجُمْلَته كجملته.

فَإِنَّ ذلك ليس من قدرة المخلوق ، وإنما هو كلام الله تعالىٰ ربِّ العالمين ، أنزله علىٰ سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين ، فلو أَنَّ إنساناً كُلِّف أن يتكلم عن بعض تلك العلوم التي جاء بها القرآن الكريم لاحتاج إلىٰ مصنَّفات ضخمة وأجزاء متعددة.

خامساً: لو كان هذا من كلامه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لأجاب الذين اقترحوا عليه أن يبدِّله أو يأتي بغير ما أتاهم به؛ لعلهم يُسلمون ، وقد كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حريصاً علىٰ هدايتهم كل الحرص ، بأيِّ وجهٍ من وجوه الحق ، وإلىٰ هذا الدليل ينبه الله تعالىٰ العقلاء فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ الآية.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: اقترحوها ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلاَّ اخترتها واختلقتها ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سادساً: لو كان هذا القرآن الكريم من تلقاء نفسه صلَّىٰ الله عليه

وآله وسلَّم ، لأجاب الذين سألوه عن مهمَّات من الأحكام التشريعية ، والأحكام التكوينية ، دون أن يتوقف عن جوابهم ، ينتظر وحي الله تعالىٰ إليه بالجواب ، ثم بعد ذلك ينزل القرآن الكريم فيذكر السؤال والجواب ، وربما استُعجل النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم الجواب فلم يُعَجِّل له ، بل تمضي مدة ثم ينزل ، فهذا التوقف والانتظار ، وهذا الأسلوب النازل بالسؤال والجواب ، دليل صريح علىٰ أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ليس له تدخُّل في نظم هذا القرآن ، ولا في وضع أساليبه ، وليس من كلامه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، إنما هو كلام رب العالمين.

فمن الأسئلة عن الأمور التكوينية ، ونزول الجواب بها ، سؤاله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين.

قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ الآيات.

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ الآيات.

ومن الأسئلة عن الأحكام الشرعية قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ ﴾ الآية.

ونحو ذلك من الآيات الكريمة التي جاء فيها الجواب عما سألوه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم.

سابعاً: لو كان هذا القرآن من تلقاء نفسه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم، لكان عرضه علىٰ الناس، وإبلاغه لهم يأتي علىٰ أسلوبٍ واحدٍ، مع أنه تارةً يبلّغ ما أُمِر بتبليغه من الآيات القرآنية دون أن يذكر صيغة الأمر بالتبليغ، وتارةً يذكر صيغة أمره سبحانه النازل عليه بالتبليغ، فيقول في بعض الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

ويقول في بعضها: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي: ولستُ بمختلق لها ولا مخترع لها.

و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية.

ولذلك وصفه الله تعالىٰ فقال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا القرآن الكريم فيه دلائل تبصّركم وجودَ الحق، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم يُذعنون للحق ويصدقون به إذا بَدَا لهم، واتّضح لهم دليله، وأما مَنْ جحد الحق بعد ما ظهر له وعاند، فإن العناد لا ينفعه الجدل، بل الجلاد ـ ومأواه جهنم وبئس المهاد.

ثامناً: إنَّ كل عاقل إذا قارن بين القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالىٰ، وبين كلامه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم في أحاديثه وخطبه

ومواعظه وغير ذلك ، يرىٰ بينهما فارقاً جليّاً ، وذلك أنَّ كلام الله تعالىٰ تتجلَّىٰ فيه سطوة الربوبيّة ، وسلطنة الألوهية ، فله الهيمنة علىٰ الأرواح ، وعلىٰ القلوب والعقول والنفوس ، هيمنة ربٍّ علىٰ مربوب ، وتَعالِي خالقٍ علىٰ مخلوق ، يتجلَّىٰ فيه سبحانه بعزَّته وكبريائه ، فينادي نداء ربٍّ لعباده فيقول: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ ، ويخاطب عباده بالتعالي والعظمة فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾ ، ويقول: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ ، ويقول: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

وَيُمَجِّد فيه نفسه ، ويعظِّم نفسه فيقول: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

ويبيِّن لعباده عظمته وقدرته وقوة سلطانه ونفوذ إرادته ، وأنه الإِلَه الذي يَغلب ولا يُغلَب ، ويقهَر ولا يُقْهر فيقول: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ .

ويقول سبحانه: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

فيتجلَّىٰ في هذه الآيات الكريمة ، عظمة مقام الربوبية ، وسلطان مقام الألوهية ، ويعلم العاقل قطعاً أن هذا ليس كلام

بشر ، بل هو كلام رب العالمين ، كما جاء ذلك عن من سمع هذه الآيات الكريمة: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ الآيات ، ويروي أن ابن المقفع ـ وكان بليغاً فصيحاً ـ سمع هذه الآية يقرؤها صبي في الكُتَّاب فقال: أشهد أنَّ هذا الكلام لا يعارَض أبداً ، وليس هو من كلام البشر.

وهكذا القرآن الكريم جاء مُفْتَتِحاً كثيراً من السُّور بفواتح حرفية ، لم يُعهَد ذلك في فواتح أحاديثه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، فافتتح القرآنُ بعض السور بحرفٍ: ﴿نٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ ، وبعضها بحرفين: ﴿حمٓ﴾ ، وبعضها بثلاثة حروف: ﴿الٓمٓ﴾ ، وبعضها بأربعة: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ، وبعضها بخمسةٍ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، والكلام علىٰ الحروف التي افتتحت بها بعض السور القرآنية سوف يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

القرآن الكريم
يَـرُدّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّبيَّ
صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
أخَذَ هٰذا القُرآنَ منَ الكتب السَّابقة

لقد جاء القرآن الكريم بأدلةٍ قاطعة ، ترد علىٰ من زعم أن سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أخذ هذا القرآن الكريم من الكتب السماوية السابقة ، وأبطل ذلك من وجوه متعددة :

أولاً : إنَّ القرآن الكريم ردَّ علىٰ من زعم ذلك ، بِأَن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو النبي الأمي ، وأميَّته معروفة عند قومه العرب الذين تربىٰ بينهم ونشأ فيهم ، فهي ـ أي : أُميته ـ مُجمع عليها عند قومه العرب كلهم ، كما هي مُجْمَعٌ عليها عند أهل الكتاب ، ومِنْ ثمَّ ردَّ الله تعالىٰ تلك المزاعم الباطلة بما هو معروف ومجمع عليه عند العرب الأميين وعند أهل الكتاب .

أما دليل أنه معروف عند جميع العرب : فقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

ففي هذا حجة علىٰ جميع العرب الأميين ، بأنَّ قضيَّة محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو رسول الله حقاً ، أوحىٰ الله تعالىٰ

إليه، وعلمه، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، ليس ذلك من نفسه ، ولا تعلَّم من غيره ، ولم يأخذ من كتاب قبله ، لأنه أميٌّ باعترافهم.

وأما أنَّه معلوم أميته عند أهل الكتاب ، فقد قال سبحانه في إجماع أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: جميعكم: عربكم وعجمكم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وفي (صحيح) البخاري ، عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما في صفة النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في التوراة: «يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرْزاً للأميِّين ، أنتَ عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّل ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ، ولا صخَّابٍ في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة؛ ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالىٰ حتى يقيم به الملَّةَ العوجاء ، بأن يقولوا: لا إلَه إلا الله ، ويفتح به أعيناً عُمْياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً».

إذاً كيف يُتَصور عقلاً أن يأتي بهذا القرآن الكريم من الكتب قبله ، وهو أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب؟!!

إذاً ما هو إلا رسول الله ، تولَّىٰ الله تعالىٰ تعليمه ، فأوحىٰ إليه وعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنزل الله عليه الكتاب والحكمة

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

فَأُمِّيَّتُهُ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هي حجة له علىٰ صدق نبوَّته ، وحَقِّيَّة رسالته ، ولذلك نبه الله تعالىٰ إلىٰ هذه الحجة الباهرة فقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

ثانياً: ردَّ القرآن علىٰ مَنْ زعم أنَ سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم جاء به من كتب قبله ، أو من عالم عبرانيّ فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فكيف يُؤخذ هذا القرآن العربيُّ المبين عن أعجميٍّ لا يكاد يُبين؟! .

روىٰ ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، والبيهقي في (الشعب) عن مجاهد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ الآية. قال مجاهد: قال بعض كفار قريش: إنما يُعَلِّم محمداً عبدٌ لابن الحضرمي ، وهو صاحب كُتُب ـ أي: كماجاء في رواية السدّي: كان نصرانياً ، وكان قد قرأ التوراة والإنجيل، وكان أعجمياً يتكلم بالرومية ـ فقال تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ .

ثالثاً: لو فُرِضَ المستحيل ، وأنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم جاء بهذا القرآن الكريم من الكتب السابقة ، فكَيف استطاع أن يَسْبُكها بصفة الإعجاز التي تَحدَّىٰ بها جميع الفصحاء والبلغاء ، وكلهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله: حديثاً ، أو سورة ، أو سُوَراً ؟!! .

فإعجاز القرآن الكريم للإنس والجن دليل قاطع علىٰ أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم هو وغيره عاجزون عن أن يأتوا بمثله.

إذاً القرآن الكريم هو كلام الله تعالىٰ حَقاً، أنزله علىٰ سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم رسوله حقاً، بصفة الإعجاز، ليكون أكبر معجزة تُشهد العالم المكلَّف كلَّه أنَّ محمداً رسول الله حقاً، لا يحتمل أمره غَير ذلك، وَأَنَّ هذا القرآن هو كلام الله حقاً لا يحتمل غير ذلك أبداً، وأَنَّ الله تعالىٰ هو حقٌّ واجب الوجود، فإنَّ هذا كلامه، فكيف تُنكر وجوده؟ فآيات القرآن، وآيات الأكوان، كلُّها أدلَّةٌ قاطعةٌ وشواهِدُ سَاطِعَةٌ علىٰ أنه لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وأن مُحَمَداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

رابعاً: إنَّ كل ذي عقل وَرَوِيَّة، إذا تَفكَّر في أَمر سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ومجيئه بهذا القرآن العظيم، يتلوه علىٰ الناس، يعلم أَنَّهُ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ليس له تدخل في صنع هذا القرآن وصياغته، وليس هو من معلوماته ومكتسباته، ولا هو من جمعه وتصنيفاته، وليس هو من جملة كلامه، وإنما هو كلام الله تعالىٰ المعجز، أنزله عليه بعد تمام أربعين سنة، وعلَّمه قراءته، وأمره أن يقرأه علىٰ الناس كما علَّمه الله تعالىٰ.

وذلك أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم بقي أربعين سنة قبل أن يُنبَّأ وينزل عليه الوحي بالقرآن، لم يأت قومه بسورةٍ واحدةٍ، ولا بآيةٍ واحدةٍ أصلًا، بل هو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم معروف بأنه أميٌّ لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يتردَّد إلىٰ أحدٍ يتعلَّم منه ذلك.

فَلَمَّا تَمَّ له أربعون سنة، ونبَّأه الله تعالىٰ، وجاءه جبريل الأمين عليه السلام، وضمَّه إليه ثلاث مرَّات يقول له: «اقرأ».

فيقول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «ما أنا بقارئٍ» ـ أي: لست بقارئٍ لأني أميٌّ لم أتعلم القراءة ـ.

ثم يقول له جبريل عليه السلام: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

فألقىٰ ذلك علىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فإذا برسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم يصير قارِئاً، عالماً بما أوحاه الله تعالىٰ إليه، ويُحَقِّقُ الله تعالىٰ قوله ووعده حيث يقول: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أي: علينا جمعه في صدرك محفوظاً، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾.

وأخذ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُبلِّغ ما أنزل الله تعالىٰ عليه، ويتلو علىٰ الناس آيات الله تعالىٰ، ويقرأ عليهم القرآن علىٰ وجهٍ خاصٍّ، وأسلُوب لم يكن معروفاً من قبلُ في أدائه، وترتيله، ومقاطعه، ووقوفه.

إذاً القضية هي أن القرآن نَزَل مِنْ عِنْدِ الله تعالىٰ، وبقوةٍ من الله تعالىٰ، وإلىٰ هذه الحجة الباهرة يرشدنا الله تعالىٰ في قوله سبحانه ملقِّناً لرسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الحجة المفحمة للخصوم: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟!.

خامساً: إنَّ هذا القرآن جاء بمناهج تشريعية، وأحكام تكليفيةٍ، تختلف مع ما جاءتْ به الكتب السماوية السابقة في مناهج شرعها وأحكامها: كَمّاً وكَيفاً، ومِقداراً وأوقاتاً، وتختلف

معها في كثير من الشروط والقيود ، وتنسخ كثيراً من أحكام الشرائع السابقة.

فكيفية الصلوات التي جاء بها القرآن الكريم تختلف عن كيفياتها السابقة ، ومقاديرها تخالف مقادير تلك وأوقاتها ، وهكذا الزكاة والصيام ، وهكذا في كثير من الأوامر والمناهي. . .

وإلىٰ هذا يرشد الله تعالىٰ العقلاء ، ويبين لهم: أن الشرائع الإلٰهية جاءت بالمصالح البَشرية وسعادتهم ، فهي تختلف باختلاف الأمم والأجيال ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ الآية.

فجاءت مناهج التشريع الإلٰهي أنظمةً محكمةً من لدن حكيم عليم خبير ، كافيةً وافيةً بما فيه صلاح أمور العباد والبلاد ، وسعادة كل أمة حسب ما يُصلح أمورها وشؤونها المتناسب مع زمانها ، ثم ختم الله تعالىٰ الشرائع بهذه الشريعة المحمديَّة صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، الجامعة لجميع ما فيه مصالح العباد والبلاد ، وجميع ما يعود عليهم بالخير ، ويباعدهم من الشر ، ويرفعهم إلىٰ قِمَّة السعادة ، ويحفظهم من التردِّي في حضيض الشقاوة ، ألا وهي الشريعة المحمدية الصالحة المُصلحة لكل زمانٍ ومكانٍ ، وكلِّ قرنٍ وجيلٍ على مختلف طبقاتهم وألوانهم ، وعلى مختلف عصورهم وأماكنهم ، فإنها شريعة واسعة سمحة ، جليَّة واضحة ، ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فلو أَنَّ سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم أخذ هذا القرآن

عن الكتب قبله؛ لجاء على سَنَن الكتب قبله ، وَلانْتَهَجَ مِنهاجهم في الشرائع والأحكام ونحوها ، وليس الأمر كذلك ، بَلْ جَاءَ بشريعة واسعةِ الأحكام ، تتسع لجميع الأنام ، على مدى الأزمنة والأيام إلى يوم القيامة .

سادساً : إنَّ هذا القرآن كثيراً ما يُخبر عن بعض الوقائع المعروفة عند علماء الكتاب الأولين ، الذين لا اتصال لهم به ، وهو صلَّى الله عليه وآله وسلم أميٌّ لم يقرأ كتبهم ، ولم يكن هو حاضراً في زمن وقوعها ، ثم يأتي بها مفصَّلَة مبيَّنةً؛ إذاً مِنْ أين عَلِمَ هذِهِ المعلومات الثابتة ، والإخبارات عن الوقائع الماضية؟؟!!

وإلى هذا يرشدنا الله تعالى في قوله في قصة يوسف ، بعد ما ذكرها من أولها إلى آخرها ، مفصَّلةً مُبينةً من جميع الجوانب : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

وهكذا سبحانه يُخبرنا في القرآن الكريم عن قضية الطوفان الذي أجراه على قوم نوح ، ويذكر ذلك الأمر مفصَّلاً إلى أن استوت سفينة نوح على الجوديِّ سالمةً بأهلها ، ثم يقول سبحانه من باب الاحتجاج على من يزعم أن هذا القرآن الكريم هو من تلقاء نفس رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ أي : لا علم لك ولا لقومك بذلك حتى علَّمك الله تعالى ، فأوحى إليك هذا القرآن ، وأخبرك فيه عما أخبرك به من الأمور العظام ، والقضايا الجسام ، فمَنْ زعم أنك جئتَ به من عندك واصطنعته؛ فهو جاحد معاند ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ ﴾ أي : على ما يقولون ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ويخبر سبحانه عن قصة مريم ، وما جرىٰ حولها في التنازع علىٰ كفالتها ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

فلا شك في أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما كان موجوداً وقتئذٍ بين بني إسرائيل حين اختصموا في كفالة السيدة مريم ، ونازعوا في ذلك رسول الله زكريا علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فهذا أمر لا يَتردَّد فيه عاقل ، ولكنَّ المقصود في هذا النفي عين الإثبات؛ بالدليل القاطع لدىٰ كلِّ عاقل ، علىٰ أَنَّ علمه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بتلك الوقائع إنما كان من باب الوحي الإلٰهي إليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لا مِنْ طريق مشاهدة الأمور ، فإنَّه لم يحضرها ، ولا مِن طريق الدراسة لكتب الأولين فهو أمِّي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : لم يكتب ، ولم يقرأ ، ولم يتلق عن معلِّم ، إذاً ما هو إلا أنه رسول الله ، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه هذا القرآن الكريم الذي هو كلامه سبحانه ، وأخبره عمَّا هنالك .

سابعاً : لقد جاء القرآن الكريم بمبادئ إصلاحية هامَّة ، ومواضيع علمية سامية ، لم تأت في الكتب السابقة من قضايا تشريعية ، ومن قضايا تكوينية ، ومن إخبارات غيبية ، ومن حجج وبراهين عقلية ، يعلم ذلك كل عاقل أَلَمَّ بَعض الإلمام بالكتب السابقة ، إذاً فكيف يُمكن أن يأخذ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هذا القرآن عن الكتب السماوية السابقة وغيرها .

* * *

القرآن الكريم
يُـثبتُ بالأَدِلَّةِ كَفَالةَ رَبِّ العِزَّة
بحفظ هذا القرآن الكريم فِي جَمِيْعِ تَـنَـزُّلاتِه
وَمِنْ جَمِيْعِ جَوانِبِهِ وَحَيْثِـيَّـاتِه

وذلك لأن هذا القرآن الكريم هو أكبر معجزة لسيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، تُثبت أنه رسول الله إلىٰ العالمين.

إن من الواجب علىٰ العاقل ، أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله تعالىٰ حفظ القرآن المجيد حِفْظاً محيطاً بجميع جوانبه ، في جميع تنزُّلاته علىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وفي جميع أَحوال تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ الأمَّة ، وفي تبليغه لهم ، وأن الله تعالىٰ قد أبقاه من جميع حيثيَّاته محفوظاً من التحريف والزيادة والنقص ، مصوناً من التلاعب فيه إلىٰ يوم الدين.

وهذا الحفظ الإِلَهيُّ بأنواعه ثابت بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية ، بحيث لا تدع شبهة لمشتبه ، ولا ريبة لمُرتاب. كما سأبين ذلك إن شاء الله تعالىٰ مفصَّلاً.

فلقد حفظ الله تعالىٰ القرآن المجيد في اللوح المحفوظ ، وحفظه في نزوله ووحيه إلىٰ رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وجَمَعَهُ له في صدره الشريف صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ،

علىٰ وجهٍ محفوظٍ لا يَذهب عنه شيء ، ولا يتفلَّت منه كلمة ، وحفظه في طريق تبليغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وتلاوته علىٰ الأمَّة ، حتى أدَّاه وبلَّغه للأمة كاملاً سالماً من تلاعب شياطين الإنس والجنِّ ، ومن مشاغباتهم ، وقد تَحمَّلتْه الأمة ، وتلقتْه عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كاملاً سالماً ، كما تلقَّاه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم عن الله الحكيم العليم ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ .

وهكذا حفظ الله تعالىٰ القرآن المجيد بعد تبليغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم للأمَّة ، وأحاطه بصيانته إلىٰ يوم الدين ، وسوف تمرّ بك الأدلة علىٰ كلِّ نوعٍ من أنواع الحفظ المتقدمة إن شاء الله تعالىٰ.

حفظ الله تعالىٰ القرآن المجيد في اللَّوح المحفوظ

قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ .

فقد وصف الله تعالىٰ اللوح الحاوي المشتمل علىٰ القرآن المجيد ـ وهو لوح كتابته الأولىٰ ـ وصفه بأنه ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وفي هذا تنبيه إلىٰ أن ما حواه هذا اللوح وكتب فيه فهو محفوظ من باب أولىٰ وأحقّ ، فإنَّ المرادَ مِنْ حفظ صَدَفة الجواهر؛ هو: حفظ ما في الصدفة من الجواهر ، وإن حفظ اللوح يُراد منه حفظ ما لاح فيه وكُتِب ، ألَا وهو القرآن المجيد.

وقال الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ، وفي

هذه الآية الكريمة يخبر سبحانه عن عظيم شأن هذا القرآن الكريم في الملأ الأعلىٰ ، وعن علوِّ مقامه ورفعة قدره ، وأنه في مقام الإجلال الإعظام والإكبار ، ألا وهو مقام لدينا ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ فاعقل وتدبَّر .

وفي هذا دليل علىٰ حفظ الله تعالىٰ لهذا القرآن الكريم في جميع طرق تنزلاته إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وعلىٰ حفظه بعد تنزلاته عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وذلك بحفظ نصوص كلمات هذا القرآن وحروفه من التلاعب والتبديل، والزيادة والنقص .

ووجه الدليل علىٰ ذلك ، هو أن الله تعالىٰ الحكيم العليم ، الذي حفظ هذا القرآن المجيد في الملأ الأعلىٰ ، هو منزَّه بمقتضىٰ حكمته أن يتخلَّىٰ عن حفظ القرآن في طريق نزوله ، وبعد نزوله إلىٰ هذا العالم الأدنىٰ ، ومنزَّه عن أن يُعَرِّضه للضياع والتلاعب فيه بزيادة أو نقص ، فكفالته سبحانه بحفظ لوحه ، وحفظ كلمات هذا القرآن المجيد ثمة في الملأ الأعلىٰ : دليل على كفالته بحفظه له في الملأ الأدنىٰ ، كما أعلن هذه الكفالة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وسيتضح ذلك إن شاء الله تعالىٰ فيما يأتي .

حفظ الله تعالىٰ هذا القرآن الكريم
في طَرِيْق نُزُوْلِهِ علىٰ سَيِّدِنَا مُحمدٍ صَلَّىٰ الله عَلَيه وآله وسلَّم

قال الله تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ .

وقال تعالىٰ مخبراً عن الجنِّ : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: كان ذلك قبل بعثة النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وقبل بدء نزول القرآن عليه ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ أي: بعد ما بُعث صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم، ونزل القرآن ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فقد حفظ الله تعالىٰ طريق نزول القرآن من تلاعب الشياطين ومشاغبتهم، فملأ السماء حرساً شديداً من الملائكة الكرام الأقوياء العظماء، وشهباً كبيرةً كثيرة محرقة.

روىٰ البخاري وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في طائفة من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عُكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلتْ عليهم الشُّهُب، فرجعتْ الشياطين فقالوا: ما لكم؟

فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأرسِلتْ علينا الشُّهُب.

فقال ـ يعني: إبليس كما في رواية أحمد ـ: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاَّ ما حَدَثَ ـ أي: لا بدَّ أن يكون حَدَث أمر عظيم حتىٰ حيل بينكم وبين خبر السماء ـ فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حَدَثَ؟

فانطَلَقوا فَضَربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانطلق الذين تَوجَّهُوا نحوَ تِهامة إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بنخلة ـ موضع قرب مكة ـ وهو عامد إلىٰ سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفَجْر، فلما سمعوا القرآن تَسَمَّعوا له.

فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فهنالك رجعوا إلىٰ قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، وأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

فأنزل الله تعالىٰ هذا القرآن علىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم محفوظاً مصوناً، والنازل به الروح الأمين، ومعه جمع حافل من الملائكة يحفظونه ويحرسونه.

وقال سبحانه في آخر سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

فينزل جبريل عليه السلام بالوحي، ومعه ملائكة يحرسون ما نزل به، ويحيطون من بين الرسول ومن خلفه رصداً، كما ورد ذلك عن سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما.

وقد رواه الإمام أحمد، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «البقرة سنام القرآن وذروتُه، نزل مع كلِّ آيةٍ منها ثمانون ملكاً» الحديث.

وقد جاء من عدة طرق رواها الطبراني، والحاكم وغيرهما، مرفوعاً: «أن سورة الأنعام لما نزلتْ شَيَّعها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم زجل بالتسبيح والتحميد».

وفي رواية الحاكم: «شيَّعها من الملائكة ما سَدَّ الأفُق».

* * *

حفْظُ الله تعالىٰ القرآن الكريم في قَلْبِهِ الشَّرِيْفِ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وَجَمْعُه في صَدْرِهِ الشَّريف صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾.

روىٰ البخاري وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾.

قال: (كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا نزل جبريل بالوحي يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يُحرِّك لسانه وشفتيه، فيشتدُّ ذلك عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فأنزل الله تعالىٰ الآية: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾.

قال: علينا أن نجمعه في صدرك، ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ علَينا أن نُبيِّنَهُ بلسانك).

قال: (فكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالىٰ).

وفي رواية البخاري في كتاب الوحي، عن ابن عباس رضي الله

تعالىٰ عنهما: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: (كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يعالِجِ من التنزيل شدة، وكان ممَّا يحرِّك به شفتيه).

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم يحركهما).

وقال سعيد بن جبير: وأنا أحركهما كما رأيتُ ابن عباس رضي الله عنهما يحركهما، فحرك شفتيه.

فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (جَمْعه لك في صدرك وتقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت) الحديث.

ومعنىٰ ذلك كما جاء عن الحسن وغيره: كان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في ابتداء الأمر إذا لُقِّن القرآن سَارَعَ جبريلَ القراءة - أي: أسرع للقراءة قبل أن ينتهي جبريل - ولَمْ يصبر حتى يُتِمَّها، مسارَعةً إلىٰ الحفظ، لئلا يتفلَّت منه شيء، فلما نزلت الضمانة من الله تعالىٰ بحفظه عليه لم يتسارع لذلك.

وروىٰ الطبراني من طريق الشعبي: (كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا أنزل عليه - القرآن - عَجِل يتكلم به من حُبِّه إيَّاه). اهـ.

أي: فكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يتكلم بما يُلقىٰ إليه أولاً فأولاً، من شدة حبه إياه، فأمره الله تعالىٰ أن يتأنَّىٰ إلىٰ أن ينقضي النزول.

وروىٰ ابن أبي حاتم، عن أبي رجاء عن الحسن: (كان صلَّىٰ

الله عليه وآله وسلّم يُحرِّك به لسانه يتذكره ـ أي: يستحفظه ويتحفظ به ـ، فقيل: إنا سنحفظه عليك). اهـ أي: بدون أن تُجهد نفسك بحفظه.

نعم إن السبب الأول في مسارعته للقراءة هو شدة حبه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للقرآن النازل عليه، وتعشقه به، وهذا مما يحلمه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على الحِرص والتحفّظ به والمسارعة لقراءته مخافة أن يتفلَّت منه شيء، فَإن المحبَّ الصادق حريص كل الحرص علىٰ محبوبه.

فلا منافاة بين ما جاء عن الحسن وعن الشعبي.

فالله تعالىٰ تكفَّل لرسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فأوجب علىٰ نفسه سبحانه أن يحفظ عليه هذا القرآن في صدره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فهو سبحانه الكفيل الضامن لحفظه عليه، وبيانه له؛ وكفىٰ بالله كفيلاً وحفيظاً.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ والمعنىٰ: لا تتعب نفسك بتلاوة القرآن الذي نوحيه إليك متعجِّلاً بذلك، قبل أن يُقضىٰ إليك وحيه متحفظاً به، فالله تعالىٰ الذي يوحيه إليك هو يعلمك إياه نصَّاً وأداءً، ومعنىً وبياناً، ويزيدك علوماً وعلوماً ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

* * *

حفْظُ الله تعالىٰ هذا القرآن الكريم في حَالِ تَبْلِيْغِهِ صَلَّىٰ الله عَلَيه وآله وسلم وَتِلاَوَتِهِ عَلَىٰ العِبَادِ سَالِماً مِنْ مُدَاخلَةٍ فِيْه أَوْ مُشَاغَبَةٍ عَلَيْهِ

قال الله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ليعلم كل عاقل يتأتّىٰ منه العلم، بدليل قراءة ﴿ليُعلَمَ﴾[1]. أيْ: أنَّ الرسل قد أَبلغوا رسالاتِ ربهم كاملة سالمة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن فيها يقول تعالىٰ: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

فهو سبحانه يحفظ رسله بملائكته ليتمكَّنوا من أداء رسالاته، فتحيط الملائكة بالرسول من بين يديه ومن خلفه رصداً، وبذلك تحفظ ما يُـنزِّله الله تعالىٰ إلىٰ الرسول من الوحي، حتى يُبلغ رسالة

---

(١) على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعله ـ انظر التفاسير.

ربه إلىٰ أمته ، محفوظةً مصونةً من أيِّ دخيل أو ملاعبة شيطانٍ ، ويبلِّغ كل رسول ما أوحاه الله تعالىٰ إليه كاملاً موفوراً.

أخرج عبد بن حُميد وابن جرير ، عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

قال: (كان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم إذا بُعث إليه الملك بالوحي ، بُعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه ، أن يتشبَّه الشيطان بالملك).

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح ، عن سعيد بن جبير قال: (ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلَّا ومعه أربعة من الملائكة يحفظونه) اهـ كما في تفسير الآلوسي وغيره.

فالله تعالىٰ حَفِظَ هذا القرآن وصانه من تلاعب الشياطين ، في جميع مراحل تنزلاته ، وتبليغه وإيصاله للعباد.

وقد أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنْ يتلو القرآن علىٰ الناس ليسمعوه بآذانهم ، وليعقلوا ما فيه بقلوبهم ، وليُوصِلَ روحَ القرآن إلىٰ روح الإنسان ، ويوصل النور القرآني إلىٰ قلوبهم وعقولهم ، فيتجلَّىٰ لهم نور الحق ، فيعرفون الحقَّ ، ثم بعد ذلك فَمِنَ الناس من يُنْصف ويعترف فيعمل بموجب ما عرف من الحق وعقل فيهتدي ، ومنهم من يَتَكَبَّر عن الاعتراف بالحق فيعاند ويخالف فَيَضلَّ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: أمرني الله تعالىٰ أن أتلو القرآن على العباد ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾.

وفي هذا طريق دعوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم للعباد: أنه يتلو عليهم آيات الله تعالىٰ فيسمعوا كلام الله تعالىٰ، الذي فيه روح الأرواح، ونور للعقول والقلوب.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وهذا يقتضي أَنْ يُسمعهم كلام الله تعالىٰ مصوناً محفوظاً من كل دخيل ومشاغبة، وسالماً من كل شائعة وملاعبة، لتحصل به الهداية، وتقوم به الحجة، وتؤثر به الدعوة.

فلو جاز أن تتلاعب فيه الشياطين حين يُبلغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للعباد ويتلوه عليهم؛ لَمَا حَصل المقصود من التلاوة عليهم، بل لازداد المسيء الذي يُدعىٰ للإيمان سوءاً، ويزداد الضَّالُّ الذي يُدعىٰ للهداية شبهة وضلالة، وذلك بسبب ما يلقيه الشيطان، وبما يعبث به.

وكيف تتصوَّر أن يشاغب فيه الشيطان حين يتلوه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم، أو يلقي الشيطان في تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم، والحال قد تعوَّذ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من الشيطان قبل أن يَتْلُوه ويقرأَه، كما أمره الله تعالىٰ بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾.

وإذا كان تعوذه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لا يَمنع الشياطين ويطردهم ، فَمَنِ الذي يَطردهم تعوذه ، بَل وما فائدة الأمر بالتعوذ عند القراءة؛ إذا كان التعوذ لا يعيذ من الشياطين.

وكيفَ يُتصوَّر لدىٰ العقول أن يُمكّن الله تعالىٰ الشيطان من التدخل في تلاوة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، ولا يمنعه من الإلقاء فيها ، في حين أَنَّ الله حفظ هذا القرآن الكريم في اللوح المحفوظ في الملأ الأعلىٰ ، وفي السماوات ، ثم حفظه في نزوله علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ثم حفظه في مستقره من صدره الشريف صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم.

فهل يَصِحّ عقلاً أن يَتَخَلَّىٰ سبحانه عن حِفْظِهِ في الآونة الأخيرة المقصودة المُهمَّة ، وهي إيصاله إلىٰ الناس ، وتبليغهم إياه ليهديهم به ، ويقيم به الحجة عليهم؟!!.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فلو فُرِضَ أَنَّه سبحانه تخلَّىٰ عن حفظه حين تبلغيه للناس ، إذاً لضاعتْ حكمة حفظه في المراحل الأولىٰ.

وكيف يُتصور أن يتخلَّىٰ سبحانه عن حفظه حال تبليغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وتلاوته علىٰ الناس ، وقد بيَّن الله تعالىٰ في مواضع متعددة من القرآن الكريم أنَّ مِنْ أهمّ مواقفه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مع العالم: تلاوة القرآن علىٰ العباد ، ودعوتهم به ليبلّغ الرسالة ويقيم عليهم الحجة.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ مخبراً عن الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية.

ومِنْ هذه الوجوه التي ذكرتها في بيان حفظ الله تعالىٰ لهذا القرآن، يعلم العاقل علم اليقين بطلان قصة الغرانيق، ويعلم أنها كذب مفترىٰ، كما أُوَضِّح ذلك إن شاء الله تعالىٰ فيما يلي.

* * *

بيَـانُ قِصَّـةِ الغَرَانِيْقِ البَاطِلَـة

البحث في هذه القصَّة يدور علىٰ أمورٍ ثلاثة:

الأول: إيراد القصة المفتراة.

الثاني: ذكر وجوه متعددة من الأدلَّة القاطعة تُبَيِّن فساد هذه القصة.

الثالث: بيان أَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الآية الكريمة، ليس فيه دلالة علىٰ وقوع القصة، ثم ذكر المعنىٰ الصحيح المستقيم الذي تدل عليه الآية الكريمة مع الأدلَّة إن شاء الله تعالىٰ.

إيراد القصَّة الباطلة:

ذكر بعض المفسِّرين نقلاً عن ابن أبي حاتم وابن جَرير، فيما يرويانه عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بمكة: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ قال سعيد: فألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: تلك الغرانيق العلىٰ، وإن شفاعتهن لتُرتَجىٰ.

قالوا ـ أي: المشركون ـ: ما ذكر آلِهتنا بخيرٍ قبل اليوم.

فسجد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وسجدوا ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والغرانيق: جمع غَرنوق ، وهو طير أبيض معروف .

فهذه قصة الغرانيق ، هي قصة مكذوبة ، ليس لها سند يُعتمد عليه كما قال الحافظ ابن كثير: طُرقها كلها مُرسلَة ، ولم أرها مسندة من وجهٍ صحيح والله أعلم. ا هـ.

وقال الحافظ البيهقي: هي غير ثابتة من جهة النقل.

وذكر عن الإمام ابن خزيمة أَنَّ هذه القصة من وضع الزنادقة .

وأبطلها ابن العربي المالكي، والإمام الفخر الرازي، وجماعات كثيرة من أهل التفسير والحديث.

قال عبد الله: وسأذكر مُستعيناً بالله تعالىٰ وجوهاً من الأدلَّة ، المنقولة والمعقولة ، الدَّالة قطعاً علىٰ بُطلان قصة الغرانيق إن شاء الله تعالىٰ ، مبتغياً بذلك رضا الله تعالىٰ ورضا رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أوَّلاً: هذه القصة مردودة من ناحية علم مصطلح الحديث لأسباب متعددة:

السبب الأول: في رد هذه القِصة هو أَنَّ أسانيدها كلها مرسلة ، وفيها أيضاً انقطاع.

وقد ذكر البزَّار أنه لا يُعرف لهذه القِصة التي فيها الغرانيق سند متصل إلا مِن طريقٍ واحدٍ ، تفرَّد به أُميَّة بن خالد ، عن شعبة ، عن أبي بِشر ، عن سعيد بن جبير ، مع الشك الذي وقع في وصله.

فقد روىٰ البزَّار في (مسنده) عن يوسف بن حماد ، عن أمية بن خالد ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أحسب ـ الشك في الحديث كما جاء في (شرح الشفاء) ـ ثم ساق حديث القصة المذكورة ، فلم ترد قصة الغرانيق متصلةً إلا من هذا الوجه الذي شك راويه فيه ، ومعلوم أَنَّ ما كان سنده كذلك لا يُحتج به لظهور ضعفه ، ولذا قال الحافظ ابن كثير كما تقدم: إنه لم يَرَها مُسندة من وجهٍ صحيحٍ.

السبب الثاني: هو اضطراب المتن في قصة الغرانيق:

ففي روايةٍ أن ذلك جرىٰ علىٰ لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما هو رواية ابن أبي حاتم المتقدمة.

وجاء في رواية أَنَّ الشيطان قال ذلك ، كما هو في رواية لابن أبي حاتم ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يَذكر آلهتنا بخيرٍ أقررناه وأصحابه . قال: وكان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد اشتدَّ عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم ، فكان يَتمنَّىٰ هُدَاهم ، فلما أُنزِل عليه سورة النجم قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ألقىٰ الشيطان عندها كلماتٍ حين ذكر الله الطواغيت ، فقال ـ الشيطان ـ: وإنهنَّ لهنَّ الغرانيق العلىٰ ، وإن شفاعتهن لتُرتَجىٰ ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعتْ هاتان

الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، قال: ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقىٰ الشيطان في مسامع المشركين إلخ[1] .

وتارةً تُروىٰ قصة الغرانيق ، أنها ألقاها الشيطان علىٰ لسان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو في الصلاة ، كما جاء ذلك في رواية قَتادَة قال: كان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُصلي عند المقام إذْ نعِس ، فألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: وإن شفاعتها لتُرتجىٰ ، وإنها لمع الغرانيق العُلىٰ ـ فحفظها المشركون. إلخ.

وتارةً تُروىٰ قصة الغرانيق أنها كانت خارج الصلاة وهو يقظان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وكان ذلك في نادٍ من أندية قريش كثير أهله. كما في رواية محمد بن كعب القُرظي مرسلاً، رواها ابن جرير.

وروىٰ ابن جرير أيضاً ، عن أبي العالية قال: نزلت سورة النجم بمكة ، فقالت قريش: يا محمد إنه يجالسك الفقراء والمساكين ، ويأتيك الناس من أقطار الأرض ، فإن ذكرت آلهتنا بخير جالسْنَاك ، فقرأ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم سورةَ النجم ، فلما أتىٰ على هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؟ ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: وهي الغرانيق العُلىٰ ، شفاعتهن ترتجىٰ . فلما فرغ من السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون؛ إلا أبا سعيد بن العاص. إلخ.

فانظر في اضطراب هذ القصة المزعومة.

وَمَرَّةً تُروىٰ أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان في سِنَةٍ مِنَ النوم وقال ذلك.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير باختصار.

فانظر في هذا التناقض في نصوصها ، والتعارض فيها الذي لا سبيل إلىٰ دفعه.

وما ذلك إلا لأنها كذب وافتراء ، فتلونت وجوهها ، ولو كان حقاً وصدقاً لكان لها وجه واحد ، وإن جاءت من ألف طريق فلا يقع التناقض بين نصوصها ولا التعارض ، وهو مدفوع عن الصحاح لوجوه صحيحة مقبوله معقولة ، كما هو معلوم عند المحدثين.

فاضطراب هذه القصة يردها ، ويدلُّ علىٰ كذبها وافترائها بلا شكّ.

السبب الثالث: إنَّ رواية قصة الغرانيق هي منكرة ، لأنها مُخالفة للصحيح المعروف عند المحدثين.

فقد روىٰ البخاري في تفسيره من (صحيحه) عن الأسود بن زيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (أوَّلُ سُورةٍ أنزلت فيها سجدة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ ، قال: فسجد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً؛ وهو أمية بن خلف) فليس في هذا الحديث الصحيح شيء من قصة الغرانيق.

بل الرواية الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ليس فيها شيء من قصة الغرانيق.

ففي (صحيح) البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (سجد النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس).

فهذه الروايات هي المعروفة الصحيحة المعوَّل عليها ، وأما

الروايات التي فيها قصة الغرانيق فباطلة ، بجميع وجوهها منكرة.

وقد يَسْأل سائل فيقول: ما السبب الذي حمل المشركين أن يسجدوا مع المسلمين كما في رواية البخاري.

فالجواب: أَنَّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم اهتزَّت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وانبهتتْ عقولهم ، واعترتْهم الهيبة والفزع ، وفي تلك الحالة ينطقون بالحقِّ. . . حتىٰ إذا فارقوا مجلسه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ورجعوا إلىٰ قومهم: نكسوا علىٰ رؤوسهم ، وجحدوا ما أيقنوا ، وأنكروا ما عرفوا ، وهناك شواهد واقعة كثيرة تثبت ذلك:

فهذا الوليد بن المغيرة ، لمَّا سمع القرآن من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم قال: واللهِ إنَّ له حلاوةً ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أعلاه لَمُثْمِر ، وإن أسفله لمغدِق ، وإنه الحق يعلو ولا يعلىٰ عليه ، وما هو بقول البشر.

ثم لما رجع وجاء أبو جهل وأفسد عليه أمره ، انتكس ، فراح فكَّر وقدَّر ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ مع أنه قبل ذلك قال: وما هو بقول البشر.

وهذا عتبة بن ربيعة ، لمَّا سمع من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

قال: يا محمد أناشدكَ الله والرحم إلاَّ كففتَ عن هذا ، وخرج فزِعاً؛ ثم انتكس.

وهكذا لما سمع المشركون آخر سورة النجم ، وما فيها من التهديد والوعيد بالعذاب في الدنيا والآخرة ، أخذ ذلك منهم مأخذاً كبيراً ، قال تعالىٰ في آخر سورة النجم: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ ؟!.

فأسمعهم إهلاك الأمم الكافرة قبلهم ، ثم واجههم بالخطاب علىٰ وجهٍ شديد فيه التوعُّد والإرهاب فقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾.

فَلَمَّا سمعوا ذلك فزعوا وخافوا ، فما وسعهم إلاَّ أن يسجدوا مع المسلمين ، لأنَّ سلطان الكلام الإلٰهي ، وما فيه من شدَّة الوعيد سَيْطَرَ عليهم ، وأثَّر في قلوبهم ، فانساقوا للحق ، ثم بعد ذلك راحوا يَجْحدون وينكرون.

وهناك شواهد كثيرة ربما تمرُّ علينا في هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

فلا عجب ولا غرابة من سجود المشركين حين سمعوا تلك الآيات فسجدوا.

وحيث أَنَّ الثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما هو ما تقدَّم في رواية البخاري ، فما السبب الحامل علىٰ أن نُجاوز الصحيح إلىٰ نقل غير صحيح ولا ثابت ، والله تعالىٰ يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: لا تتبع ما ليس له دليل يَثْبُتُ العلم به.

ثم يحذِّر سبحانه من خَطَر ذلك فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ

﴿وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فأيُّ علمٍ جازم تثبته قصة الغرانيق ، وأيُّ ظنٍ غالب قوي تُعطيه هذه القصةُ؟ وأسانيدها كُلُّها واهية .

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقبلون حديثاً يبلغهم عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم لم يسمعوه منه؛ حتىٰ يتثبتوا من نسبته إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، فكيف إذا كان أمراً اعتقادياً ، ويتعلق بالله ورسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وبكلامه سبحانه .

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَتَثَبَّتُ من حديث الاستئذان ثلاثاً والرجوع بعد ذلك ، حين سمعه من أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه ويطالبه بمن يَشْهد له بذلك الحديث ، وقد فعل ذلك أبو موسىٰ كما جاء في (الصحيحين) وغيرهما ، والحديث معلوم .

فَإِنَّ هذه القصة ـ قصة الغرانيق ـ ظاهرة الوضع لأن علامات الوضع ظاهرة فيها .

وقد ذكر علماء الحديث : أَنَّ من علامات وضع الحديث مخالفته للمنقول الصحيح ، ومخالفته للعقل الصحيح ، وهي مخالفة للأصول الثابتة بالكتاب والسنَّة ، ومعارضة لها ، كما سيتضح هذا من وجوه متعددة :

الأول : إنَّ قصة الغرانيق تتنافىٰ مع سياق الآيات الواردة في أول سورة النجم ، وتتنافىٰ مع لِحاقها .

فالله تعالىٰ يقول في أوّل سورة النجم : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ .

فهو سبحانه يُعْلِم عبادَه ويعلنُ لهم في هذا القرآن الكريم: أن محمداً رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما ينطق عن الهوىٰ، وإنما ينطق عن وحيٍ يُوحيه الله تعالىٰ إليه، فكيف يُتصوَّر لدىٰ العقل أن ينطق عن الشيطان؟؟!!.

بل إذا كان الشيطان لا يُمكنه أن يتسلَّط علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ولا أن يقاربه، ولا أن يشاغب عليه، أو يلبِّس عليه في حالة الغضب التي يُلبس فيها الشيطان علىٰ غيره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وربما تسلط عليهم وأجرىٰ علىٰ لسانهم ما لا ينبغي شرعاً، كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلِق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غَضِبَ أحدكم فَلْيَتَوَضَّأ» رواه أبو داود.

وقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للرجل الذي اشتدَّ غضبه: «إني لأعْلَم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» الحديث كما في (الصحيحين) وغيرهما.

فالغضب حالة قد تُخرج الرجال عن خَطِّ الاعتدال، لتسلُّط الشيطان ومقاربته للغضبان.

وأما سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقد حفظه الله تعالىٰ من ذلك، وَصَوَّب كلامه، وسدَّد أقواله في جميع أحواله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فهو ينطق بالحقِّ والصدق في حالة الرضا والغضب، لا يُخرجه الغضب عن كمال الصواب، إذ ليس للشيطان إليه باب.

روىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، عن عبد الله بن عمرو رضي

الله عنهما قال: (كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أريد حفظه، فَنَهَتْنِي قريش وقالوا: أتكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعه من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا.

قال عبد الله: فأمسكت عن الكتابة، فذكرتُ ذلك للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فَأَوْمأ بأصبعه إلىٰ فيه ـ أي: فمه الشريف ـ فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «اكتُبْ. فوالذي نفسي بيده ما يَخْرُجُ مِنْه إلا حقٌّ»).

وعند أحمد: «اكتب. فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق».

وعند الدارمي: «اكتب. فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق».

وروىٰ الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه: (سُمِعَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رَجل ليس بنبي مثل الحيَّين: ربيعة ومضر».

فقال رجل: يا رسول الله أَوَمَا ربيعة من مضر؟

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إنَّما أقول ما أُقَوَّل» صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم).

وروىٰ الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إني لا أقول إلا حقاً».

فإذا كان الشيطان لا يمكنه أن يقارب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في حالة غضبه، فكيف يتسلَّط عليه ويشاغب عليه في حال تلاوته وتبليغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القرآن، لاسيَّما وقد

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم قبل تلاوته ، عملاً بما علمه الله تعالىٰ بقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

فإنْ صحَّتْ قصة الغرانيق ـ علىٰ فرض المستحيل ـ فما معنىٰ هذا الإعلام الإلٰهي في أول سورة النجم ، بأن محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم رسوله الكريم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ وإنما هو الوحي من الله تعالىٰ لا غير ، فلا شك أنها قصة باطلة .

كما أنَّ قصة الغرانيق تتنافىٰ صراحةً مع لِحاق الآيات ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ ﴾ أي : ما أصنامكم التي تُسمُّونها آلِهةً ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ .

فذمَّهم وذمَّ آلهتهم ، وسخَّف عقولهم ، وسجَّل عليهم الضلال حيث تركوا طريق الهدىٰ الذي جاءهم به النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وركبوا طريق الضلال الذي تهواه أنفسهم ، فعبدوا حِجارةً وسمَّوها آلهةً ، وفي هذا ذم صريح فاضح للمشركين .

كما أنه ذمَّهم ووبخهم ، وسجَّل عليهم الجهل والجهالة في دعواهم أن الملائكة إناث ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ . فسجل عليهم الجهل والضلال .

فكيف يُتصوَّر بعد هذا الذم للمشركين ، وتسفيه أحلامهم ، أَنْ يكون قد مدح أصنامهم بأنها الغرانيق العُلىٰ . . . إلخ .

أي : فكيف يتصوَّر أن يَمدحهم ثم يذمهم، وَيُجَهِّلَهم ويضللهم، ويُسَخِّفَ عقولهم ، ثم يسجدون معه رضاً عنه ، لأنه مدح أصنامهم بأنها الغرانيق العلىٰ؟!! بل لو حصل ذلك لاعترضوا ولقالوا: كيف تمدحها ثم تذمُّها بعد ذلك ، وتختم المجلس بذمها .

الثاني : يُقال لمن جعل قصة الغرانيق سبباً لنزول آية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي: ألقىٰ علىٰ لسانه ، أو بين سكتاته ، يقال له: هذه قصة ألقاها الشيطان عند تلاوة سورة النجم ، فما هي بقيَّة الإلقاءات الشيطانية التي ألقاها في تلاواته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لأنَّ الآية تقول: ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ فعلىٰ حسب فهمكم: كلُّ تلاوةٍ صدرتْ فإنَّ الشيطان يُلقي فيها علىٰ لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أو بين سكتاته ، فما هي تلك الإلقاءات التي ألقاها الشيطان عند تلاوة بقية الآيات؟؟ كَلاَّ لا هذه ولا غيرها .

الثالث : إنَّ ذلك مُنافٍ للحِفْظ الإلٰهي الذي تكفَّل الله تعالىٰ به أَنْ يحفظ هذا القرآن ، فإن الله تعالىٰ الذي قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ قد حفظه في الملأ الأعلىٰ في اللوح المحفوظ ، وحفظه في طرق نزوله علىٰ قلب سيدنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وحفظه له تاماً كاملاً لا يذهب عنه شيء ولا ينسىٰ منه شيئاً؛ في صدره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حتى يبلِّغه تاماً سالماً ، فكيف يُتصوَّر لدىٰ العقول أَنْ يتخلَّىٰ سبحانه عن

حفظه من تلاعب الشياطين ومداخلاتهم في آخر مرحلة وأدقِّ المواطن ، وهي مرحلة تبليغه للناس ، وتلاوته عليهم ، حتى يحفظوه ويكتبوه ، ويعتقدوا بعقائده ، ويعملوا بأوامره ، وينتهوا عن مناهيه؛ إلىٰ آخر ما هنالك.

فإذا جاز أَنْ تجريَ عليه مشاغبات ومداخلات شيطانية في هذه المرحلة الأخيرة، التي هي المقصودة بالذات؛ إذاً يكون قد ضاعتْ الحكمة في حفظه في المراحل الأولىٰ كلها.

الرابع: لقد كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَأْمر كَتَبَة الوحي بكتابة القرآن النازل عليه فور النزول ، ولم يُرْو أنه راجعهم في تصحيح ما تلاه عليهم بأنه إلقاء من الشيطان ، فلو كان إلقاء الشيطان حال تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جائزاً لقال لِمَنْ حوله من الكَتَبَةِ: لا تكتبوا حتى أستوضح لكم الحق الرحمانيَّ من الباطل الشيطانيِّ ، ولنبههم فيما بعدُ علىٰ الإلقاء الشيطاني ، ليصححوا ما كتبوه ، ولم يَرِدْ شيء من ذلك ، كَلَّا. بل كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يتلو علىٰ الناس آيات الله تعالىٰ النازلة عليه عقب نزولها للحفظ في الصدور ، ويأمر الكتبة بكتابتها لتحفظ في السطور.

وقد اتخذ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كُتَّاباً لوحي القرآن هو اختارهم لذلك ، منهم الأربعة الخلفاء رضي الله تعالىٰ عنهم ، ومعاوية ، وأبان بن سعد ، وخالد بن الوليد ، وأُبَيُّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم رضي الله عنهم... فكانوا يكتبون القرآن فور نزوله علىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بإتقانٍ وإحكامٍ ، واستيعاب كامل ، بحيث لا يُضَيِّعون منه حرفاً ولا كلمةً.

روىٰ البخاري وغيره ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه : أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أملىٰ عليه : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ فقال : يا رسول الله : والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدتُ ـ وكان أعمىٰ ـ .

فأنزل الله علىٰ رسوله ، وفخذه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ فخذي ، فَثَقُلَتْ عليَّ حتىٰ خفتُ أن تُرضَّ فخذي ، ثم سُرِّيَ عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ .

أي : فكتبها كما جاء في رواية أحمد وأبي داود : فقال صلى الله عليه آله وسلم : «اكتب : ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾» .

قال زيد : (أنزلها الله تعالىٰ وحدَها فألحقتُها بها ، فوالله لكأنِّي أنظر إلىٰ ملحقها عند صدعٍ كان في الكتف) .

قال ابن التين : يُقال إن جبريل عليه السلام هَبَط ورجَعَ قبل أن يَجفَّ القلم ـ أي : قَلَمُ زيد ـ . اهـ .

قال في (الدر المنثور) : وأخرج ابن فهر في كتاب فضائل مالك ، وابن عساكر من طريق عبد الله بن رافع قال : قدم هارون الرشيد المدينة ، فوجَّه البرمكيَّ إلىٰ مالك وقال له : احمل الكتاب الذي صَنَّفتَه ـ أي : الموطَّأ ـ حتىٰ أسمعه منك .

فقال مالك للبرمكي : أقرِئْه السلام وقل له : العالِم يُزار ولا يَزور ، وإن العِلْمَ يُؤتىٰ إليه ولا يأتي .

فرجع البرمكي إلىٰ هارون الرشيد فَبَلَّغه وقال له : اعزم عليه

حتىٰ يأتيك ، فإذا بمالكٍ قد دخل ـ علىٰ هارون الرشيد ـ وليس معه كتاب ، وأتاه مُسَلِّماً .

فقال مالك: يا أمير المؤمنين إنَّ الله تعالىٰ يُعزُّ هذا العلم ويجلُّه ، فأنتَ أحرىٰ أن تُعِزَّ وتجلّ عِلمَ ابن عمك ـ أي: حديث رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ ولم يَزل يعدّد عليه من ذلك حتىٰ بكىٰ هارون الرشيد ، ثم قال مالك:

أخبرنا الزهري عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: (كنتُ أكتب بين يدي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في كتفٍ ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وابن أم مكتوم عند النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقال: يا رسول الله قد أنزل الله في فضل الجهاد ماأنزل، وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة؟

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «لا أدري».

قال زيد: وقلمي رطْبٌ ما جَفَّ ، حتى غُشي علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الوحي ، ثم جُلّي عنه ، فقال لي: «اكتب يا زيد: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾») .

فيا أمير المؤمنين حرفٌ واحد بُعث به جبريل والملائكة عليهم السلام من مَسيرة خمسين ألف سنة ، حتى أنزل الله تعالىٰ على نبيه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أفلا ينبغي لي أن أُعِزّه وأُجِلَّه؟ . ا هـ.

الخامس: لَو جاز وقوع قصة الغرانيق ، لذَهبَت الثقة من الكاتبين عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، الذين يُملي عليهم فيكتبونها في الصحف ، بل لذهبت الثقة من المتلقين عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لأنهم حينئذ يقولون في أنفسهم: لَعلَّه أن يَنزل

بعد ذلك آيات تدل علىٰ مداخلة الشيطان فيما كتبناه ، أو تلقيناه منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

السادس: يلزم من وقوع قصة الغرانيق أن للشيطان تَسلُّطاً عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في أهم الأمور وأكبرها ، وهي أمور الوحي عن الله تعالىٰ ، والتبليغ عن الله تعالىٰ ، في حين أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالإجماع هو معصوم من الشيطان ، ومن تسلطه عليه ، في جميع أموره وأحواله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؛ ولا سيما في أمور الوحي والتبليغ عن الله تعالىٰ.

وإذا كان الشيطان لا سلطان له علىٰ الذين آمنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون ، فكيف يتسلط علىٰ إمام الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

السابع: كَيف يصح أن يتمكَّن الشيطان من إلقائه في تلاواته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لآيات الله تعالىٰ ، في حين أنه كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم يتلو علىٰ الناس آيات الله تعالىٰ علىٰ وجهٍ متَّصل مستمرٍ ، وتلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ الناس لها أسباب متعددة:

إمَّا من باب الإملاء عليهم ليكتبوا القرآن في الصحف ـ كما هو وظيفة الكتبة ـ.

وإمَّا مِنْ باب التبليغ لهم ، يُبلغهم ما أنزل الله تعالىٰ عليهم .

وإمَّا مِنْ باب تلقينهم وتعليمهم القرآن الكريم ، فإن تلاوة القرآن لا تُعرف إلا بالتلقِّي عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فلذلك كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُعلِّم الصحابة تلاوة الكتاب .

رویٰ الإمام أحمد ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال : حدَّثنا مَنْ كان يُقرئنا من أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم عَشْرَ آياتٍ ، فلا يأخذون في العشْر الأخرىٰ حتىٰ يعلموا ما في هذه العشر من العِلم والعمل ، قالوا : فَعَلِمنا العلم والعمل .

وَرَویٰ مُحمد بن نصر ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كُنَّا إذا تَعَلَّمْنَا من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عشْراً من القرآن ، لم نتعلَّم العشر التي بعدها حتىٰ نعلم ما نزل في هذه من العمل) .

ولم يَرْوِ أحد من الصحابة الذين أخذوا عنه القرآن أنه استدرك ما تلاه وقال : هذه من إلقاء الشيطان ، كلَّا وحاشاه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، بل كثيراً ما كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يتلو علىٰ الناس آيات الله تعالىٰ ، من باب الدعوة إلىٰ الإيمان والدخول في الإسلام .

وهذه التلاوة قد تكون علىٰ جموع كثيرة من المشركين وغيرهم ، وقد تكون علىٰ أفراد ، كما جاء في إسلام ابن مظعون وغيره ، فإنهم أسلموا حين أسمعهم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كلام الله تعالىٰ ، كما تقدم مفصلاً في بحث تأثير القرآن الكريم .

فإذا كان المفهوم من آية : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إذا كان يُفهم منها أنَّ الشيطان يُلقي في تلاوته علىٰ لسانه ، أو بين سكتاته؛ إذا كان كذلك فيلزم منه أن جميع تلاواته بأسبابها المتعددة هي في معرض إلقاء الشيطان، وأنه ألقىٰ فيها الشيطان ، لأن الآية علىٰ هذا الفهم تقول: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: كلَّما قرأ ألقىٰ الشيطان كلاماً من عنده علىٰ لسانه ، أو بين سكتاته ، إذاً كم تلاوة حصلت؟! ، وكم إلقاء شيطاني حصل؟! نعوذ بالله من هذا الفهم الباطل.

كما أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان يتلو علىٰ الناس آيات الله تعالىٰ من باب الموعظة والتذكير لهم ، حتى بَلَغ الأمر ببعض الصحابة رضي الله عنهم ، أن حفظوا القرآن الكريم من كثرة سماعهم القرآن الكريم من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (حفظتُ سبعين سورةً من فم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم).

ففي هذه التلاوات الكريمة التي تلاها صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، واستماع الصحابة إليه ، وتَلَقِّيهم عنه ، وكتاباتهم عنه ، لم يَرِدْ عن واحد منهم أنه قال: قد صحح لنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، أو نَبَّهنا إلىٰ أنَّ بعض الكلمات كانتْ دخيلة من قِبَل الشياطين، أو جرىٰ فيها سهو، أو نحو لك، كَلَّا لم يقع ذلك أصلاً.

الثامن: إذا كانَت قصة الغرانيق هي سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية.

وإذا كان التمني في هذه الآية محمولاً علىٰ التلاوة ، وأن

الشيطان يلقي في أمنيته ـ أي: تلاوة الرسول والنبي ما يلقيه ، وأن هذه الآية نزلت تسلية للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ إذا كان الأمر كذلك فإن الآية تقول: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: كلما قرأ وتلا ألقىٰ الشيطان ما ألقاه ، فمعنىٰ ذلك أن كل تلاوة صدرتْ من الرسول سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما خلت عن إلقاء شيطاني.

فإن زعمتم أن الشيطان ألقىٰ كلمة الغرانيق العلىٰ. . . إلخ في تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أول سورة النجم ، فما هي بقية الإلقاءات التي ألقاها الشيطان في بقية تلاواته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم علىٰ الناس؟ ، فإن الذي نقل هذه ينقل تلك الإلقاءات أيضاً ، بل يلزم علىٰ ذلك أن ينقل إلقاءات كثيرة عن كثير من الصحابة ، لأن تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كانت علىٰ مسمع منهم ـ اللهم سبحانك هذا بهتان عظيم.

بل يقال لِمَنْ يزعم ويُجَوِّزُ تداخل الشيطان وإلقاءه في تلاوته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ لسانه ، أو بين سكتاته يقال له:

وما يدرينا أن الآيات التي نزلتْ تَنْسخُ ما ألقاه الشيطان وتلاها صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ما يدرينا أن الشيطان ألقىٰ فيها أيضاً ، لأنها من جملة ما يتلوه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ الناس ، وقد فسَّرتُم قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ فسرتموها بأن الشيطان يلقي علىٰ لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حال تلاوته أو بين سكتاته ـ اللهم إني أبرأ إليك من هذا كله.

بل يلزم من ذلك أن جميع تلاوات الرسل والأنبياء علىٰ أممهم

كان الشيطان يلقي فيها من كلامه علىٰ ألسنتهم ـ أي: علىٰ ألسنة الرسل والأنبياء المتقدمين ـ من آدم عليه السلام، إلىٰ نوح عليه السلام، إلىٰ الخليل إبراهيم عليه السلام، إلىٰ الكليم موسىٰ عليه السلام، إلىٰ روح الله عيسىٰ عليه السلام.

في حين أنه لم يُنقل شيء من ذلك، لأنه لم يحصل شيء من ذلك، فَإِنَّ طرق الوحي وتبليغه مصونة حصينة، كما دلَّتْ علىٰ ذلك الآية المتقدمة وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

ففي هذ الآية بيان عامٌّ من الله تعالىٰ بحفظه وصيانته لوحيه النازل علىٰ رسله كلهم، حتىٰ يبلغوا تلك الرسالات الإِلَٰهيَّة تامة سالمة كاملة، كما أوحاها الله تعالىٰ إليهم.

فلو صحَّت قصة الغرانيق لانتقض خبر الآية وَلَمَا تَحَقَّق مَعْنَاها، بل لضاعت عصمة الأنبياء والمرسلين، إذا كان الشيطان يلقي الكفر علىٰ ألسنتهم، وَيَسمعه الناس من لسان كل رسول ونبي، فإن النطق بقصة الغرانيق هو كفر صريح.

فإن قيل: إن الشيطان ألقىٰ ذلك في آذان السامعين.

قُلنا: هذا مردود أيضاً، لأنه يؤدِّي إلىٰ الالتباس بينَ وحي الرحمن وإلقاء الشيطان، في مقام الهَدْي والدعوة للإيمان، فيبلِّغ الناس وحيَ الله تعالىٰ متلبساً بإلقاء الشيطان، فيزدادون ضلالاً وحيرةً، بدلاً من أن يهديهم ويخرجهم من ظلمات جهلهم وحَيْرتهم.

التاسع: ويقال لِمَنْ جعل قصة الغرانيق سبباً لنزول آية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ ويفسر ذلك بأن الشيطان يُلقي كلاماً من عنده علىٰ لسان الرسول، ثم يُنزل الله تعالىٰ آيات تَنسخ ما ألقاه الشيطان علىٰ لسان الرسول أو بين سكتاته، يقال لِمَنْ يزعم ذلك:

إن الآية تقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ومِنَ المعلوم أن الرسول هو إنسان أُوحي إليه بشرعٍ من عند الله تعالىٰ يعمل به وأُمِر بتبليغه للناس.

وأما النبي فهو إنسان أُوحِيَ إليه بشرع يَعْمل به، ولم يُؤمر بتبليغه، فما هو مقصود الشيطان من إلقائه كلاماً من عنده علىٰ لسان ذلك النبي إذا تلا ما أوحاه الله تعالىٰ إلىٰ رسولٍ قبله؛ أو في زمنه، فإنْ قصد الشيطان التلبس علىٰ نفس النبي، فالنبي معصوم يَعْرف ويُميِّز بينَ كلام الرحمن وكلام الشيطان، وإنْ قصد الشيطان التلبيس علىٰ السامعين، فإن النَّبي ليس مأموراً بتبليغه للناس حتىٰ يُلبِّس الشيطان علىٰ السامعين منه، بل ربما قرأ ذلك لنفسه منفرداً عن الناس.

ثم إن من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مَنْ كان مأموراً أن يعمل بكتابٍ أُنزل علىٰ رسولٍ قبله، فهل كان هذا النبي الذي يعمل بكتاب رسول قبله، هل كان إذا تلا آيات ذلك الكتاب يلقي الشيطان في تلاوته؟.

وإذا كان الشيطان يُلقي في تلاوته فيلزم من ذلك ـ بناء علىٰ زعمكم ـ أنْ تتنزل آيات تنسخ ما يُلقي الشيطان أيضاً، حتىٰ يَرفع

الريبة من قلوب السامعين الذين تلاه عليهم ، وحينئذ يلزم ذلك النبيَّ أن يُلحق تلك الآيات بالأصل ، أي: بأن يلحق الآيات النازلة في نسخ ما ألقاه الشيطان بالأصل النازل علىٰ الرسول قبله ، لأنها كلها نازلة بالوحي من الله تعالىٰ ، وأيضاً لا بد حينئذ من أن تنزل آيات تنسخ ما ألقاه الشيطان ويتلوها ذلك النبي علىٰ الناس ، حتىٰ لا يبقىٰ في قلوبهم ريبة ، في حين أنه نبي مأمور باتباع رسول قبله ، فيلزم منه أن كل نبي عمل بكتاب رسول قبله أن يزيد فيه ما أُنزل عليه ناسخاً لما ألقاه الشيطان ، وربما عمل بكتاب الرسول الواحد عدة من الأنبياء ، فكم وكم يزاد علىٰ الأصل النازل ، والحقّ الواقع أنه لَمْ يقع شيء من ذلك قطعاً ، بدليل أنه لَمْ يُنقل شيء من ذلك عن الرسل ولا عن الأنبياء صلوات الله تعالىٰ عليهم ، مع كثرة وتكرار تلاواتهم آيات الله تعالىٰ علىٰ العباد.

العاشر: إذا كانت قصة الغرانيق ثابتة على الصورة التي نقلت ، وأنها كانت سبباً لنزول آية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ الآية ، إذا كان الأمر كذلك فكيف كانت إلقاءات الشيطان في تلاوات الرسل والنبيين السابقين علىٰ قومهم ، هاتوا قصةً واحدةً ثابتةً تُبيِّن أن الشيطان ألقىٰ في تلاواتهم نظير إلقاء قصة الغرانيق أو نحوها ، أو أيَّ قصة ألقاها الشيطان في تلاوات أولئك الرسل والأنبياء ، فإنه لم يُسمع شيء من ذلك في كتاب نزل من الكتب المتقدمة ، ولا عن بني إسرائيل في حديثٍ من أحبارهم ، ولا عن سَلَفٍ ، ولا عن خلف قطّ.

الحادي عشر: إنَّ أسانيد قصة الغرانيق لا يَثبت بها العِلْم ، ولا تعطي قوة التصديق والجزم ، وإن الله تعالىٰ يَقُول: ﴿ وَلَا تَقْفُ

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا يوجب العلم اعتقاداً كهذه القصة ونحوها.

ثم يحذر سبحانه من متابعة ما لا يوجب العلم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

ولقد كان أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لا يقبلون حديثاً لم يسمعوه من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلا بعد التثبت والتبين.

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع حديث الاستئذان من أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه فيطالبه بمن يشهد له بذلك كما جاء في الصحاح.

روىٰ الإمام البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسىٰ كأنَّه مذعور ـ أي: خائف ـ فقال: استأذنتُ علىٰ عمر ثلاثاً فلم يُؤذَن لي فرجعت فقال ـ أي: فخرج عمر بعد ذلك فقال لأبي موسىٰ ـ: مَا مَنَعك؟

قال: استأذنت ثلاثاً فَلَم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

فقال عمر: والله لتقيمن عليه ـ أي: الحديث الذي حدثتني به ـ بَيِّنة، أفيكم أحد سمعه من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؟.

فقال أبي بن كعب ـ لأبي موسىٰ ـ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم.

قال أبو سعيد: فكنتُ أصغر القوم ، فقمتُ معه فأخبرت عمرَ أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال ذلك).

الثاني عشر: إنَّ قصة الغرانيق إذا سمع المسلم ذو الفطرة السليمة ، إذا سمع نسبتها إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، يضيق لها صدره ، وتشمئز نفسه منها ، وينكرها قلبه ، وهذا من علامات وضعها وكذبها علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإنَّه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علَّمنا هذه العلامات الفارقة بين الثابت عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم والمفترىٰ عليه.

فقد روىٰ الإمام أحمد وأبو يعلىٰ والبزار ، عن أبي أُسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون ـ أي: تعلمون ـ أنه منكم قريب؛ فأنا أولاكم به.

وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه بعيد منكم؛ فأنا أبعدُكم منه»[1].

ولكن هذه العلامة الفارقة لا يُدركها إلا ذو الفطرة السليمة ، والقلب السليم ، المنوّر بنورٍ من الله تعالىٰ ، كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لحارثة: «عبدٌ نَوَّر اللهُ قلبه».

قال الحكيم الترمذي: وهذا ـ أي: إدراك الفارق بين الحديث

---

(١) قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح كما في ١/ ١٥٠ ، وقد رمز في (الجامع الصغير) إلىٰ صحته.
والأشعار جمع شَعر ، والأبشار جمع بَشرة ، وهي: جلد بدن الآدمي ، وسمي بَشَراً لأنه بادي البشرة غير مستورها بشعر كما في الحيوانات.

الثابت والمفترىٰ ـ في الكامل ـ أي: في الرجل الكامل بعلمه وعمله وورعه ـ.

أما المخلط المكبُّ علىٰ الشهوات، المحجوب عن الله تعالىٰ ، فليس هو المعنيُّ بهذا الحديث ، لأن صدره مظلم ، فكيف يَعرف الحق ، فالمخاطب بذلك مَنْ كان طاهر القلب ، عَارفاً بالله حقَّ معرفته ، الذي تزول الجبال بدعائه. ا هـ.

وأخرج ابن سعد عن الربيع بن خيثم أنه قال: (إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه) أي: وهذا هو الحديث الثابت عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لأن عليه كسوة القلب الذي خرج منه وهو نور النبوة.

قال: (وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تنكره). ا هـ. أي: وهذا هو الحديث المفترىٰ علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، عَلَيْهِ ظلمة القلب الذي خرج منه.

قال العلاَّمة المناوي عند هذا الحديث: ولذلك جزم أئمتنا الشافعية ، بأن كلَّ حديث أوهم باطلاً ، ولم يقبل التأويل ، فمكذوب عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لعصمته. ا هـ.

الثالث عشر: إنَّ كثيراً من محققي المفسرين والمحدثين وأولي العلم والمعرفة ، قد أنكروا قصة الغرانيق ، وبيّنوا أنها مكذوبة وموضوعة ، كبقية الأحاديث الموضوعة.

فقد قال العلامة المفسِّر أبو حيَّان في (البَحر المحيط):

قال: وهي ـ أي: قصة الغرانيق ـ قصة سُئل عنها الإمام

مُحمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال: هذا مِنْ وَضْعِ الزنادقة ، وصنَّف في ذلك كتاباً.

قال: وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال ما معناه: إنَّ رواتها مطعون عليهم ، وليس في الصحاح ، ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه ، فوجب اطّراحها.

قال: ولذلك نزَّهْتُ كِتابي عن ذكرها فيه ، والعجب ممن نَقَل هذا ، وهم يتلون في كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

وقال الله تعالىٰ آمراً لنبيه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: ولكن ثبتناك فلم تركن إليهم أبداً.

قال: فالتثبيت واقع ، والمقاربة مَنفِيَّةٌ.

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

وهذه نصوص تشهد بعصمته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال: وأمَّا من جِهَة المعقول: فلا يمكن ذلك ، لأن تجويز ذلك يُودِّي إلىٰ تجويزه في جميع الأحكام والشريعة ، فلا يُؤمن فيها التبديل والتغيير ، واستحالة ذلك معلومة.

قال: ولو جوزنا ذلك لما تحقق قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ أي: فلم يكن صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عاملاً بالآية ، إذ العمل بها تبليغ ما أنزل الله ، فلو زاد ـ تلك الغرانيق ـ لانتفىٰ التبليغ ، فَإِنَّه لا فرق بين النقصان من الوحي والزيادة فيه. اهـ(١)

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالىٰ في كتاب (حصص الأتقياء): الصواب أنَّ قوله: تلك الغرانيق العُلىٰ ، من جملة إيحاء الشيطان إلىٰ أوليائه من الزنادقة ، حتى يُلقوا بين الضعفاء وأرِقَّاء الدين ، ليرتابوا في صحة الدين ـ أي: وليَلبسوا عليهم دينهم ـ.

قال رحمه الله تعالىٰ: وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية. اهـ(٢).

وَقدْ بَيَّن الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالىٰ أَنَّ هذه القصة باطلة موضوعة ، ولا يجوز القول بها.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ في ردِّ هذه القصة من جهة الرواية ، قال: يكفيك أَنَّ هذا حديث لم يُخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أُولِعَ به وبمثله

---

(١) انظر تفسير (البحر المحيط) و(المواهب مع شرحها) ملخصاً.

(٢) انظر تفسير الآلوسي.

المفسِّرون والمؤرِّخون المُولَعون بكل غريبٍ ، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيمٍ.

قال رحمه الله تعالىٰ: ولقد صدق القاضي أبو بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلِي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير ، وتعلَّق بذلك المُلحِدون ، مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته:

فقائل يقول: إنـه ـ صلَّىٰ الله عليـه وآلـه وسلَّم ـ قـال ذلـك في الصلاة.

وآخر يقول: قالَها في نادي قومـه.

وآخر يقول: قالَها وقد أصابتْه سِنـةٌ.

وآخر يقول: بل حدَّث نفسَه فَسَـهَـا.

وآخر يقول: إن الشيطان قال علىٰ لسانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وإن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم لما عرضها علىٰ جبريل قال: ما هكذا أقرأتُك.

وآخر يقول: إن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم لم يَقُلها ، بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم قالها ـ إلىٰ غير من اختلاف الرواة. ا هـ.

وقد نقل العلامة الشهاب في (شرح الشفاء) عن ابن سيد الناس أنه قال: بلغني عن الحافظ المنذري أنه كان يردُّ هذا الحديث من جهة الرواية بالكلية.

أي: كان يرد حديث الغرانيق بجميع رواياته المتناقضة.

قال: وفي (سيرة) مغلطاي: حديث أن الشيطان ألقاه في أمنيته كما ذكر الكلبي هو مردود الرواة، عن باذان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال مغلطاي: وقد قالوا ـ أي: المحققون ـ: إنه باطل نقلاً وعقلاً. ا هـ.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ: وأمّا تَوهين حديث الغرانيق من جهة المعنىٰ: فقد قامت الحُجة، واجتمعت الأمة علىٰ عصمته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ونزاهته من مثل هذه إلخ.

وأتىٰ بما فيه الحجة القاطعة علىٰ كذب هذه القصة.

وما أحسن جواب العلامة الكبير، العارف بالله تعالىٰ الشيخ عبد العزيز الدباغ ـ نفعنا الله تعالىٰ بعلومه وعلوم أهل الله تعالىٰ أجمعين ـ حيث قال حين سئل عن قصة الغرانيق.

فأجاب رضي الله عنه قائلاً:

ما وقع للنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم شيءٌ قَطُّ في مسألة الغرانيق، فإنَّه لو وقع شيء من ذلك للنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لارتفعت الثقة بالشريعة، وبَطَل حكم العصمة، وصار الرسول كغيره من آحاد الناس، حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلىٰ كلامه، حتى يَزيد في ما لا يُريده الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ولا يحبه ولا يرضاه، فأيُّ ثقةٍ تبقىٰ في الرسالة مع هذا الأمر العظيم.

ولا يُغني في الجواب: أن الله تعالىٰ ينسخ ما يُلقي الشيطان ويُحكم آياته، لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضاً،

لأنه كما جاز أن يتسلَّط علىٰ الوحي في مسألة الغرانيق بالزيادة ، كذلك يجوز أن يتسلَّط علىٰ الوحي بزيادة هذه الآية برمَّتها فيه .

وحينئذ فيتطرَّق الشك إلىٰ جميع آيات القرآن .

والواجب علىٰ المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث ، الموحية لمثل هذا الريب في الدين ، وأن يضربوا بوجهها عُرضَ الحائط ، وأن يَعتقدوا في الرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما يَجب من كمال العصمة ، وارتفاع درجته عليه الصلاة والسلام إلىٰ غايةٍ ليس فوقها غاية .

ثم علىٰ ما ذكروه في تفسير قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ الآية ، يقتضي أن يكون للشيطان تسلّط علىٰ وحي كلِّ رسول رسول ، وكل نبيّ نبيّ ، زيادة علىٰ تسليطه علىٰ القرآن العزيز ، لقوله تعالىٰ : ﴿ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ .

فاقتضت الآية علىٰ تفسيرهم أنَّ هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله تعالىٰ ، وصفوته من خلقه ، ولا ريب في بطلان ذلك . ا هـ .

* * *

تَفْسِيرُ الآيةِ الكريمة
كَمَا دَلّ عَلَيْه الكتاب والسُّنة

قال عبد الله: **وقد يقول القائل**: فما معنىٰ الآية الكريمة علىٰ الوجه الصحيح المدلول عليه بالكتاب والسنَّة.

فالجواب عن ذلك لا بدَّ له من مقدِّمة تمهِّد سبيل الوصول إلىٰ المعنىٰ الصحيح، وبها ينجلي الصباح، ويُشرق نور الحقِّ الوَضَّاح.

فأقول مستعيناً بالله تعالىٰ، ومستلهماً منه الصواب في الجواب:

إنَّ اعتبار معاني الآيات القرآنية بالآيات السابقة عليها واللاَّحقة لها، ومراعاة المناسبة بينها وبين ما لديها وما خلفها، ذلك أمر هامٌّ لا بدَّ منه في فهم معاني الآيات القرآنية، وما يُراد منها.

فهذه الآية الكريمة وهي: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ الآية.

هذه الآية الكريمة سبقتها آيات متناسبة معها، ولحقتها آيات تابعة لها، ونحن نذكر تلك الآيات كلها ليتَّضح المعنىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

فقد أمر الله تعالىٰ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنْ يبلغ رسالة ربه، ويدعو عباد الله تعالىٰ إلىٰ الإيمان، ويُعلن لهم أنه النذير المبين حيث قال له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مُبِيْنٌ الإنذار كل البيان، لِما جاء به من الحجةوالبرهان.

فكانت النتيجة: منهم من استجاب وآمن به صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وعمل صالحاً فله البشارة في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ومنهم من كذب بالحق الذي جاء به النذير المبين، كما أخبر الله تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في ردٍّ وإنكار آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: معارضين للحق ومعاندين من بعد ما تبين لهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وهؤلاء كما وصفهم الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ أي: بالحق ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: الباطلة، لأنه ماذا بعد الحق إلا الضلال؟!.

وقال تعالىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الكريمة.

ومع هذا العناد الصادر مِنْ كَفَرةِ العباد، ومع هذا الجحود بعد ظهور الحق، فلقد كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حريصاً علىٰ هدايتهم وإسلامهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾.

فجاء صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حَريصاً علىٰ هداية الأمة، ناصحاً لهم، أميناً، يَسُرُّه أن يُسلموا ويستجيبوا لدعوته، ويُحبُّ منهم أن يَهتدوا بهدْيه، ويفرح بذلك، وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَحزن حزناً شديداً لإعراضهم وإبائهم وكفرهم، ويضيق لذلك صدره، ويشتد عليه، ويكبر عليه إعراضهم، فكانت الآيات الكريمة تنزل مُسلِّيةً له، ومخفِّفةً عنه، فيقول سبحانه لحبيبه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

ويقول: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾.

ويقول: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

ويقول: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

ويقول: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي: صعب واشتد ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ .

كل هذه الآيات تدل على شدة حبه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم هدايتَهم، وحرصه علىٰ إسلامهم، كما تدل علىٰ شدة حزنه، وأسفه وضيق صدره لإعراضهم وتكذيبهم؛ بعد ما تبيَّن لهم الحق ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ فهم قوم عرفوا الحق وجحدوه وعَارضوه ، فأنزل الله تعالىٰ تسليةً لحبيبه الأكرم ، وتخفيفاً عنه شدة الحزن والأسىٰ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ . وأماني الرسل والأنبياء وبُغيتهم أن يؤمن قومهم، فيلقي الشيطان في أُمنيته.

والمعنىٰ: وما أرسلنا من رسول صاحب كتاب وشريعة ، ولا نبي يَعمل بشريعة رسول قبله ، إلا إذا تمنىٰ ـ أي: أحب وودَّ ـ أن يهتدي قومه ويؤمنوا بما جاء به ، ألقىٰ الشيطان في قلوب بعض السامعين ما يحول دون تحقق أمنيَّته من شبهاتٍ باطلةٍ ، وإشكالاتٍ فاسدة ، ليصرف قلوبهم عن الاستجابة والإيمان بما جاءهم به رسولهم أو نَبِيُّهم.

سواء قلنا إن المراد بالأمنيَّة التمنِّي والمودَّة للاستجابة ، أو المراد بأمنيته التلاوة ، فحين يتلو ذلك الرسول أو النبيُّ آيات الله تعالىٰ علىٰ قومه: يُلقي الشيطان في قلوب بعض السامعين الشبهات الضالَّة ، ويشوِّش عليهم بوساوس وشكوك ، فيصدُّهم عن الاستجابة والإيمان الذي هو ما يتمنَّاه ذلك الرسول والنبي صلوات الله تعالىٰ علىٰ نبينا وعليهم أجمعين.

فينسخ الله ما يُلقي الشيطان في قلوب السامعين ، بأن يُزيلها ويمحق أثرها ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: يثبت

تلك الآيات ويمكنها في قلوب المؤمنين ، بأن يتابع بعدها آياتٍ وآياتٍ فيها إبطالٌ لتلك الشبهات والضلالات والشكوك التي ألقاها الشيطان ، ويزيلها بالأدلَّة القرآنية القاطعة.

ثم إن الله تعالىٰ بيَّن نتيجة ما يُلقي الشيطان في قلوب السامعين فقال:

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فصارت قلوب السامعين من الناس في هذا الموقف علىٰ صنفين:

الصنف الأول: قلوب قبلتْ تلك الإلقاءات الشيطانية، والوساوس والشبهات الضالَّة وهي قلوب: ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: المنافقين ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ وهم الكفرة الجاحدون للحق بعد ظهوره ، المعاندون له ، وهؤلاء الذين فُتِنوا بما ألقاه الشيطان في قلوبهم من الوساوس والشكوك ، فهم في ريبهم يتردَّدون ، وراحوا يشاغبون ويسعون في آيات الله وإبطالها ، ويشيعون ذلك ، كما ذكر الله تعالىٰ ذلك عنهم في آياتٍ كثيرة ، بيَّن فيها شبهاتهم الباطلة ، الناشئة عن إلقاء الشيطان ذلك في قلوبهم ، حين تتلىٰ آيات الله تعالىٰ ، ومن تلك الآيات يتَّضح جليّاً ما ألقاه الشيطان في قلوبهم من الأباطيل والضلالات والشبهات الفاسدة ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

فلما سمعوا الآيات القرآنية من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله

وسلَّم ، ألقىٰ الشيطان في قلوبهم أساطير الأولين ، فتكلَّموا بما ألقىٰ في قلوبهم.

وقال تعالىٰ مخبراً عنهم حين سمعوا القرآن من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فردَّ الله تعالىٰ عليهم ذلك ، وأحكم آياته فقال: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وردَّ عليهم بأنه أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب ، فكيف يكتبها؟ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ في حين أنه هو النبيُّ الأمي لم يكتب ولم يقرأ كتاباً.

وردَّ الله تعالىٰ عليهم تلك الشبهات في آياتٍ كثيرة.

ومن جملة ما ألقىٰ الشيطان في قلوبهم: أن هذا القرآن من قبيل السحر ، وأنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ساحر ، وأنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم شاعر ، وهذا كلام متناقض.

قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ثم ألقىٰ الشيطان في قلوبهم حين سمعوا القرآن من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وما فيه من أخبار القيامة ، فاستبعدوا ذلك وعجبوا ووصفوه بالجنون.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

وقد ردَّ الله عليهم وأحكم آياته وقال: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

بل أنت يا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لك العقل الأكمل ، فإنَ الله تعالىٰ أَنعم عليك بالنبوَّة والرسالة العامَّة ، وإنزال هذا القرآن عليك ، ولا بدَّ لهذا كلِّه أن يلقىٰ عقلاً كبيراً ، وفهماً قويّاً ، وذكاءً بليغاً .

كما ألقىٰ الشيطان في قلوبهم حين سمعوا القرآن من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وقد عرفوا أن هذا القرآن ليس بكلام بشر ، وقد عَرَفوا أيضاً صدقَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولكن الشيطان ألقىٰ في قلوبهم من باب المعاجزة والمعاندة ، أن يطلبوا منه إحضار آبائهم الأموات ليشهدوا له .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

كما ألقىٰ الشيطان ذلك في قلوب الجاحدين قبلهم ، وقد ألقىٰ الشيطان في قلوبهم ليصدهم عن الإيمان؛ ألقىٰ عليهم شبهةً فاسدةً وهي نزول هذا القرآن علىٰ سيدنا محمد بن عبد الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولم ينزل علىٰ رجلٍ من القريتين عظيمٍ عندهم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ نَعَمْ والله لقد نزل القرآن الكريم علىٰ رجل عظيم ولا أعظمَ منه رجلاً ؛ ولا أكمل منه خَلْقاً وخُلُقاً ، ولا أكبر منه عقلاً ، ولا أذكىٰ منه فهماً؛ ألا وهو سيدنا محمد بن عبد الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولكنهم أرادوا بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجل العظيم عندهم في نظرهم قيل: هما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ، وقيل: الوليد بن المغيرة بمكة ، وابن عبد ياليل بالطائف .

كما ألقىٰ الشيطان في قلوبهم حين كانوا يسمعون القرآن من

النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، أنهم خير مقاماً في المجتمع وأحسن ندياً ، فلو كان هذا القرآن حقاً لكانوا أحق به في زعمهم :

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ .

فَرأوا أنهم أرفع منزلةً وأعلىٰ مقاماً ، لأنهم أكثر مالاً وأكثر جمعاً ، وهكذا ادَّعوا لأنفسهم ، وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ .

أي: فلا عبرة لمظاهر الدنيا ، ولا قيمة لأموالها وحُطامها عند الله تعالىٰ ، حتىٰ تستنزل عليهم الوحي من الله تعالىٰ .

ومن ذلك قول قوم نوح لَما تلا عليهم وحي الله تعالىٰ ، قالوا: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وَقَوْمُ شعيب قالوا: ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ الآية .

الصنف الثاني : وهناك صنف أخبتتْ قلوبهم للآيات التي تُلِيتْ عليهم واطمأنتْ، ولم تتردَّد، ولم تُؤثِّر عليها الشكوك والوساوس، لأنها علمتْ أنَّ الآيات حق ثابت بالأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة ، فآمنتْ عَن علم جازم بحقِّيَّة تلك الآيات ، وحقِّيَّة نبوة النبي ورسالته وصدقه ، دون ارتياب ولا شك .

فَهُم عقلاء فطناء ، علموا الحق بالدليل الحق فآمنوا به قطعاً ، وهؤلاء هم الذين أشار الله تعالىٰ إليهم بقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وكيف لا يؤمنون بتلك الآيات ، وبصدق الرسول الذي تلا عليهم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وقد علموا علماً جازماً أنه صادق، وما جاء به فهو حق ، لا يحتمل التردُّد ولا الشك ، كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ .

وهذا نظير قوله تعالىٰ في الذين آمنوا برسول الله صالحاً ، وقد انتقدهم الجاحدون للحق ، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: المعرضون عن قبول الحق كِبراً ، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل أنتم علىٰ علم جازم بحقيَّة نبوة صالح ورسالته؟ وحَقِّيَّةِ ما جاء به؟ وهل ثبت عندكم هذا بالدليل؟ أم أَخذتُم علىٰ غِرَّة وغفلةٍ؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد علمنا صدقه وحقية رسالته وما جاء به علماً جازماً لا يحتمل الشك ، ولذلك آمنا به إيماناً قاطعاً.

ومن ذلك قول بلقيس لما أعلنتْ إسلامها وإيمانها برسول الله سليمان ، كما أخبر الله تعالىٰ عنها بقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1] ـ أي: وأوتينا العلم بحقية نبوة سليمان ورسالته ، وما جاء به من الآيات المتقدمة ، وهي الهدهد ، والرسل الذين

---

(١) بناء علىٰ أن ذلك من كلام بلقيس ، وهناك قول بأنه من كلام سليمان.

أرسلهم سليمان يُبَلِّغونها[1] ـ علمنا ذلك من قبل معجزة إحضار عرش بلقيس.

﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أي: مؤمنين برسالته لأننا علىٰ علمٍ بذلك.

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أي: ولكن صدَّها عن إظهار إسلامها من قبل: أنها كانت من قومٍ كافرين متمكنين في الكفر، فلم تستطعْ إظهارَ إسلامها، حتى حضرت بين يدي سليمان، وقد رأىٰ الملأ مِن قومها تلك المعجزة الكبرىٰ، وهي إحضار عرشها من سبأ إلىٰ بيت المقدس.

وعلىٰ هذا المعنىٰ جرىٰ جمع من المفسرين، وإن قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ هو إخبار من الله تعالىٰ عن مقال بلقيس لمَّا شاهدتْ عرشها، وهذا يدل علىٰ كمال عقلها؛ كما قال البيهقي وغيره، ومعناه: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالىٰ، وصحة نبوتك يا نبي الله سليمان من قبل هذه المعجزة، أو من قبل هذه الحالة بما شاهدناه من أمر الهدهد، وما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالَّة علىٰ ذلك، وكنَّا مسلمين من ذلك الوقت، فلا حاجة إلىٰ إظهار هذه المعجزة.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ السبب المانع مِن إظهار ما ادعته من الإسلام، فقال: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآيات.

هذا وإن مِن شأن الشيطان الرجيم أنْ يلقي الوساوس والشكوك في القلوب، ليصدَّ ناساً عن الدخول في الإسلام وعن الإيمان، وليشوش علىٰ أناس دينهم وإيمانهم، كما جاء في الحديث عن

---

(١) انظر تفسير النسفي وتفسير الآلوسي وغيرهما.

أبي هريرة رضي الله عنه: (أن ناساً من أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به.

قال: «أَوَقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «الحمد لله الذي ردَّ كيدَه ـ أي: كيد الشيطان ـ إلىٰ الوسوسة».

وفي رواية قال: «ذلك صريح الإيمان»[1].

وقد بيَّن الله تعالىٰ أَنَّ القرآن الكريم، حين يسمعه العاقل وَيَتسرَّبُ إلىٰ قلبه، حتى يمتلىء به قلبه، فإنه يتحرَّك ما في القلب من وساوس وشكوك قد ألقاها الشيطان، ولكنها سرعان ما تزول وتُمحىٰ آثارها.

قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: كل من الرسول والنبي يتمنَّىٰ الإيمان لأمته، ويحبُّه لهم، ويحرِص كلَّ الحرص علىٰ هدايتهم، ويحبُّ لهم الخير والرشاد.

---

(١) كما رواه مسلم، وأبو داود، وفي رواية: عن ابن مسعود رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترقَ حتى يصير حُمةً، أو يخرَّ من السماء إلىٰ الأرض أحب إليه من أن يتكلم به.
قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ذلك محض الإيمان».

وهكذا سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

إذاً كان يأسف علىٰ إعراضهم عن الإيمان أَسَفاً شَديداً.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فهذه الآية صريحة في شدة حرصه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ إيمان الأمة، وهذه أمنية كل رسول ونبي، فيلقي الشيطان في طريق تحقق هذه الأمنيَّة ما يُلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساوس والشبهات المانعة من تحقق تلك الأمنية، فهنا يميز الله تعالىٰ المنافقين والقاسية قلوبهم الذين أعماهم العِناد، وأصمَّهم عن الحق، يميزهم من المؤمنين المنصفين الذين عرفوا الحق واعترفوا به.

وينسخ الله تعالىٰ تلك الإلقاءات الشيطانية مِنْ قُلوب المؤمنين، ويحكم فيها الآيات المثبِتَةِ للحق الذي عَرفوه، وتبقىٰ تلك الإلقاءات الشيطانية مِن الوساوس والشبهة الفاسدة: تجول وتضطرب في قلوب المنافقين، والقاسية قلوبهم عن الاعتراف بالحق بعد ما ظهر، ليفتنوا به، فهم في ريبهم يَتَرَدَّدون.

فالوساوس الشيطانية تُلقىٰ علىٰ قلوب الفريقين، غير أنها لا تدوم علىٰ المؤمنين، وتبقىٰ علىٰ المنافقين والقاسية قلوبهم.

وعلىٰ القول بأن المراد بالأمنيَّة التلاوة: فإن الشيطان يُلقي تلك الوساوس في قلوب السامعين لتلك التلاوة، وتكون نتيجة الفريقين كما تقدم أيضاً.

* * *

حِفْظُ الله تعالىٰ هَذا القرآن الكريم بَـعْـدَ تَبْـلِيْغِـهِ صـلَّىٰ الله عليـه وآلـه وسلَّـم وإبْقَاؤه مَصُوْناً مَحْفُوْظاً إلىٰ يوم الدين

واستلزام ذلك ثلاثة أمور:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يُعلِن الله تعالىٰ كفالتَه بحفظ القرآن الكريم بعد تنزيله له، ويشير سبحانه في هذه الآية الكريمة إلىٰ تخصيص هذا القرآن الكريم بهذه الفضيلة الكبرىٰ، والخاصَّة العظمىٰ، ألا وَهِي كَفَالَتُه بنفسه سبحانه أن يحفظ هذا القرآن الكريم، فيقول سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لهذا القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾.

وهذا الحفظ يشتمل علىٰ ثلاثة أمور هامَّة تدخل تحت هذه الكفالة:

الأول: حفظ حروفه وكلماته كاملةً بنصوصها النازلة علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

الثاني: حفظ بيان هذا القرآن الكريم، وهو الحديث النبويّ الشريف.

الثالث: حفظ وإبقاءُ مَنْ يحمل ذلك ، ويبلِّغه حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ ـ أي: أمر القيامة ـ.

وإليك تفاصيل ذلك مع الأدِلَّة بعون الله تعالىٰ:

الأمر الأول: لقد تكفل سبحانه بحفظ نصوص القرآن الكريم المشتملة علىٰ حروفه وكلماته كلها، بحيث لا يضيع من ذلك شيء.

فأمر الله تعالىٰ رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم أَن يتلو هذا القرآن علىٰ الناس فور نزوله ، وبعد نزوله ، وفي كلٍّ مناسبة ومحفل ، ومجتمع ، وموسم ، لِيُحفظ هذا القرآن في الصدور ، وليكتب في السطور.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ الآية.

فكان من أهمِّ مواقفه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مع العالَم أن يتلو عليهم القرآن.

وفي هذا إبلاغ لهم ، ودعوة لهم ، وحفظ لهذا القرآن في صدورهم ، وحفظ له في سطورهم ، **فتكون محافظ القرآن أوَّلاً هي الصدور** ، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ ، **وثانياً هي السطور**: كما قال تعالىٰ: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾.

ومِن ثَمَّ كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يأمر بكتابة القرآن الكريم

فورَ نزوله ، وقد اتخذ كُتَّاباً للوحي القرآني؛ أمناء أوفياء ، هو اختارهم لذلك صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، منهم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، ومعاوية ، وأبان بن سعد ، وخالد بن الوليد ، وأبيُّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم رضي الله عنهم ، فكانوا يكتبون القرآن الكريم فورَ نزوله علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، بإتقانٍ ، وإحكام ، واستيعاب كامل ، بحيث لا يضيعون منه حرفاً ولا كلمةً ، كما روىٰ البخاري وغيره ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أملىٰ عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، فجاء ابن أم مكتوم رضي الله عنه وهو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يمليها عليَّ ، فقال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت ـ وكان أعمىٰ ـ.

فأنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله ، وفخذه علىٰ فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خِفتُ أَنْ تُرضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأنزل الله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

أي: فكتبها كما ورد في رواية أحمد وأبي داود ، فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لزيد: «اكتب: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾».

قال زيد: أنزلها الله تعالىٰ وحدها فألحقتها بها ، فوالله لكأني أنظر إلىٰ ملحقها عند صدع كان في الكتف.

قال ابن التين: يقال: إن جبريل عليه السلام هبط ورجع قَبْل أن يَجِفَّ القلم ـ أي: قلم زيد ـ. اهـ وقد تقدَّم بيان هذا.

ومِن هنا يفهم العاقل شدة عناية الصحابة ، واهتمامهم بكتابة القرآن الكريم ، وأنهم لم يُضيعوا منه كلمة ولا حرفاً.

بل كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُرَغِّبُ عامَّة من يحسن الكتابة من الصحابة أن يكتبوا عنه القرآن ، ولكن في أوَّل الأمر قَصَرَهُم علىٰ كتابة القرآن الكريم دون كتابة الحديث ، ثم بعد ذلك أمرهم بكتابة الحديث.

فقد روىٰ مسلم وغيره ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «لا تكتبوا عني غيرَ القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فَلْيَمحُه».

وكان هذا في أوَّل الأمر ، اهتماماً بتثبيت القرآن في صحفهم ، فيكتبونه ويحفظونه ويتدارسونه ، ويعلِّمونه أهليهم وأولادهم وذويهم ، فتكون هممهم متوجهةً إلىٰ هَدَفٍ واحدٍ ، مخافة التشتت ، سِيَّما وهم حديثو عهد بالإيمان والقرآن ، فكانوا إذ ذاك يحفظون أحاديثه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم متقناً عن ظهر قلب.

ثم أذن لهم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في كتابة الحديث فوق الحفظ. كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

وأمَّا حفظ القرآن الكريم في الصدور فهو الأصل المعوَّل عليه ، وهو الشرف الأكبر الذي شرَّف الله تعالىٰ به هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام ، فجعل صدورها مصاحف لآيات هذا القرآن الكريم، وأوعيةً لكلامه القديم، يقرؤونه عن ظهر قلب ، ولا يغسله من قلوبهم تيَّار الماء ، ولا يمحوه من صدورهم كيد الأعداء.

روىٰ مسلم في (صحيحه) عن عياض رضي الله عنه ، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتُم ممَّا علَّمني يومي هذا: كلُّ مالٍ نحلتُه عبداً ـ أي: أعطيته عبداً ـ

حلالٌ ـ فلا يجوز أن يُحرِّمه علىٰ نفسه، مادام اكتسبه من طريق حلال ـ.

وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل بِهِ سلطاناً.

وإن الله تعالىٰ نظر إلىٰ أَهل الأرض فمَقَتهم: عربَهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب» ـ أي: إلا الذين تَمسَّكوا بالكتاب فهم سعداء ـ.

قال: «وقال الله تعالىٰ لي: إنما بعثتك لأَبْتَلِيك وأبتليَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظان» الحديث.

فلو غُسلت جميع مصاحف السطور، فإن القرآن الكريم لا يُمحىٰ من الأرض لأنه محفوظ في الصدور التي لا يغسلها الماء.

وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «لمَّا فرغتُ مما أمرني الله به من أمر السماوات والأرض ـ أي: ليلةَ المعراج ـ قلت: يا ربِّ: إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلَّا وقد كرَّمته: جعلتَ إبراهيم خليلاً، وموسىٰ كليماً، وسخَّرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييتَ لعيسىٰ الموتىٰ، فَمَا جعلت لي؟.

قال: أَوَليس أعطيتُك أفضل من ذلك كلِّه: إنِّي لا أُذكَر إلَّا ذُكرتَ معي، وجعلتُ صدور أمتك أناجيل ـ أي: مصاحف ـ يقرؤون القرآن ظاهراً ولم أُعطها أمةً، وأعطيتُك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم».

وفي حديث الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال في صفة أمته في الكتب السابقة: «وأمته الحمَّادون ، يأتزرون علىٰ أنصافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أناجيلهم ـ أي: قراءنهم ـ في صدورهم ، يَصُفُّون للصلاة كما يصفُّون للقتال ، قربانهم الذي يتقربون به إليَّ دماؤهم ، رهبان بالليل ، ليوث بالنهار».

وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يحثُّ الصحابة علىٰ حفظ القرآن في صدورهم ، وعلىٰ مدارسته ، ويرغبهم في ذلك ، ويبيِّن لهم فضل استظهاره ، فتوجهتْ هِمَمُهم إلىٰ حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من مذاكرته ومدارسته ، فما منهم من أحد إلا والقرآن الكريم في صدره كله أو بعضه.

فقد جاء في الأحاديث الصحيحة ، أَنَّ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمَّا بعث سرية إلىٰ أهل بئر معونة ، كان في السرية سبعون قَارِئاً قد حفظوا القرآن ، كما جاء في الرواية عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (كانوا يتدارسون القرآن بالليل ويصلُّون).

قال: (وكنا نسمِّيهم القراء) وقد قُتِلوا في تلك الوقعة.

كما أنه استشهد يوم اليمامة من القراء سبعون ، وكلهم كانوا قد استوعبوا القرآن وحفظوه.

فقد روىٰ البخاري والترمذي وغيرهما ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أرسل إليَّ أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر جالس عنده.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر جاءني فقال: إن القتل قد

استحرَّ - أي: اشتدَّ وكثُر - يَوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإني أخشَىٰ أن يستحرَّ القتل بالقُرَّاء في كل المواطن، وإني أرىٰ يا أبا بكر أن تأمر بجمع القرآن) الحديث.

وفي هذا دليل علىٰ كثرة حُفَّاظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم، باعتبار أن في السَّريَّة الواحدة والمعركة الواحدة كان يحضرها منهم سبعون قارئاً حافظاً.

ولسنا نريد استقصاء حفاظ الصحابة وذكرهم باستيعاب، مخافة الإطالة والخروج عن موضوع بحثنا، فإن موضع ذلك ومرجعه هو كُتُب طبقات القرَّاء، وبعض التواريخ، وكتب تراجم الصحابة رضي الله عنهم.

الأمر الثاني: حفظ بيان القرآن الكريم وهو الأحاديث النبويَّة:
قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فقد تكفل سبحانه أن يجمع القرآن لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم محفوظاً، وتكفل بأن يُقرئه إياه كما أنزله عليه، وتكفَّل بأن يبين له معاني القرآن الذي أنزل عليه، ومن هنا يُفهم أن بيانه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للقرآن الكريم هو وحي من الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة النبوية.

وقد أمر الله تعالىٰ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُبيِّنَ للناس ما نُزِّل إليهم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالسُّنة النبويَّة المحمدية بما اشتملتْ عليه من أقوالٍ وأفعالٍ

وتقريرٍ ، هي بيان للقرآن الكريم ، وقد حفظها الله تعالىٰ أيضاً في صدور الصحابة، وفي سطور كتبهم، ثم في صدور التابعين وكتبهم ، ثم أتباع التابعين ، ثم بعد ذلك ضَعُفتْ عزائم أهل الحفظ في الصدور ، فقلَّ المحدثون الحفاظ ، وبقيت كتب الحديث مَحفوظةً برواياتها وأسانيدها ، وَضَبْطِها وإعجامها وتحقيقها ، وتدقيق نُسَخها ، مع التنبيه إلىٰ تعدد نسخها علىٰ وجهٍ مصونٍ مضمونٍ.

مع الاهتمام الكبير والعناية التامَّة في المصنَّفات الحديثية من: الجوامع ، والسُّنن ، والمسانيد ، والمُوطَّآت ، والمعاجم ، والمصنفات الكبيرة ، والأجزاء ، وكُتُب الأطراف ، إلىٰ غير ذلك.

والمصنفات في بيان الموضوعات ، والمصنفات في الضِّعاف ، والمصنفات في الضعفاء والمتروكين ، والمصنفات في أحوال الرجال ، والمصنفات في تواريخ رجال الأسانيد ، إلىٰ ما وراء ذلك ، فقد حفظ الله تعالىٰ أحاديث رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بتلك المصنفات الكبرىٰ ، والمؤلفات العظمىٰ ، وجميع ذلك يرجع إلىٰ حفظ الله تعالىٰ لهذه السنة المحمدية ، التي بذل علماء الحديث فيها جُهوداً ، واهتمُّوا بضبطها كلَّ الاهتمام ، خِدمةً لكتاب الله تعالىٰ وسنَّة نبيه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. نفعنا الله تعالىٰ بهم وبعلومهم ، وجعلنا من الناهجين منهاجهم ، والسالكين فِجاجَهم ، ابتغاءَ مرضاة الله تعالىٰ ورسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ آمين.

وإليك تفاصيل الكلام علىٰ ما تقدم بأدلَّته:

أولاً: اهتمام النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بحفظ أحاديثه في الصدور، وفي تبليغها ونشرها:

كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُكثر مِن مَجالسه مع الصحابة ليحدثهم في المسجد وفي غيره، وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُعيد الكلمة ثلاثاً لتُفهم عنه ـ أي: لتحفظ بنصها، ويفهم معناها ـ كما ورد ذلك في الصحاح.

وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما وصفه هند بن أبي هَالَة: يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالىٰ، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل: لا فضول ولا تقصير.

وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا تكلَّم أصغىٰ الجلساء إلىٰ كلامه، وانفتحتْ قلوبهم لحديثه، وأطرق جلساؤه كأنما علىٰ رؤوسهم الطير، وهذا كله مما يساعدهم علىٰ استيعاب حديثه، ووعيه وحفظه.

وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ينهض بهمَّة الصحابة إلىٰ حفظ أحاديثه ووعيها وتبليغها، وينشطهم لذلك، ويرغبهم في ثواب ذلك في المجامع العامَّة والخاصة، والمواسم والأعياد، وغيرها.

فقد روىٰ الإمام أحمد، وابن ماجَهْ وغيرهما، عن جُبير بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالخيف في منىٰ يقول: «نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلَّغها مَنْ لم يَسْمَعْها، فربَّ حامل فقهٍ لا فِقْهَ له، ورُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ مَنْ هو أفقه منه، ثَلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلب مؤمن: إخلاص العمل لله تعالىٰ، والنصيحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنَّ دعوتَهم تَحفظ مَنْ وراءهم».

وفي رواية: «تحيط من وراءهم».

ورواه الطبراني في (الأوسط) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: خطبنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بمسجد الخيف في منىٰ فقال: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلَّغها مَنْ لم يسمعها، ثم ذهب بها إلىٰ من لم يسمعها، ألا فرُبَّ حامل فقهٍ لا فقهَ له، وربَّ حامل فقهٍ إلىٰ مَنْ هو أفقه منه» الحديث كما في (ترغيب) المنذري.

كما أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان يحث أصحابه علىٰ تحمل أحاديثه وحفظها، ثم تبليغها ونشرها في مجالسه العامة والخاصَّة:

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «نَضَّر الله امرءاً سمع مِنَّا حديثاً فبلّغه غيرَه، فَربَّ حامل فقه إلىٰ مَنْ هو أفقه منه، وربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه» رواه أهل السنن الأربعة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «نَضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغٍ أوعىٰ من سامع» رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

ورواه ابن حبان في (صحيحه) بلفظ: «رحم الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مُبَلَّغ أوعىٰ من سامع».

فَمِن هذه الأحاديث التي ذكرتُها لك، يَتبيَّن قوة اهتمامه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بحفظ أحاديثه وأقواله، وأدائها وتبليغها ونشرها، فهو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يدعو لمن يحفظ حديثه

ويبلِّغه بالنضارة ، وهي كما قال المنذري: النعمة والبهجة والحُسْن. أ هـ.

وقال بعضهم: بَياض الوجه في الدنيا وفي الآخرة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ .

اللهم بيِّض وجوهنا يا مولانا بأنوار حديث رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الدنيا والآخرة.

ولذلك كان الصحابة يهتمُّون بحفظ الأحاديث ومدارستها ونشرها:

فعن أنس رضي الله عنه قال: (كنا قعوداً عند النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يحدِّثنا الحديثَ ، ثم يدخل لحاجته فنراجعه بيننا؛ هذا ، ثم هذا ، فنقوم كأنما زُرِع في قلوبنا) رواه أبو يعلىٰ في (المسند) .

ودعا صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم برحمة الله تعالىٰ لِمَنْ يحفظ حديثه وَيُبلِّغه ، وكفىٰ المحدثين شرفاً أنهم دعا لهم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بذلك.

روىٰ الطبراني في (الأوسط) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «اللَّهمَّ ارحم خلفائي» .

قلنا: يا رسول الله وَمَنْ خلفاؤك؟

قال: «الذين يأتون من بعدي ، يَرْوون أحاديثي ويعلِّمونها الناس» .

وهكذا حضَّ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ نشر العلم

الذي جاء به صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبيَّن فضل ذلك واستمرار أجر ذلك:

فَعَنْ سَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «ما تصدق الناس بصدقةٍ مثل علم يُنْشَر»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «نِعْمَ العطيَّةُ كَلِمَةُ حقٍّ تَسْمَعُها ، ثم تَحمِلها إلىٰ أخٍ لك مسلم فتعلِّمها إيَّاه»[٢].

وروىٰ الإمام أحمد ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت: رجلٌ مات مرابطاً في سبيل الله ، ورجل علَّم علماً فأَجْرُهُ يجري عليه ما عُمِل به ، ورجل أجرىٰ صدقةً فأجْرُها له ما جرتْ ، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له».

كما حذَّر النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مِنْ كتمان حديثٍ؛ أو علمٍ يؤخذ عنه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «مَنْ سُئِل عن علمٍ فكتمه أُلجِمَ يوم القيامة بلجامٍ من نار»[٣].

وفي رواية لابن ماجه: «ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلاَّ أتىٰ يوم القيامة ملجوماً بلجامٍ من نار».

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في (الكبير) وغيره.

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في (الكبير) ويشبه أن يكون موقوفاً علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه أصحاب السنن.

فمن كتم علماً نافعاً ولو لم يُسأل عنه أُلجِم بلجام من نار ، كما دلَّ علىٰ ذلك رواية ابن ماجه المتقدمة ، وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين: ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار» رواه ابن ماجه.

ومن أجل ذلك كان أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يحرصون كلَّ الحرص علىٰ أن يبلِّغوا ما سمعوه من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولو قُبَيْل وفاتهم تأثُّماً ، وكانوا يخافون أن يموت أحدهم وعنده حديث من أحاديث النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لم يبلِّغه ، خوفاً من وعيد الكتمان.

فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، يحدث عند موته بحديث كان سمعه من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، مخافة أن يموت ولم يحدث به:

روىٰ البخاري وغيره ، عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ومعاذ بن جبل رديفه علىٰ الرحل:

قال: «يا معاذ بن جبل».

قال: لبَّيكَ يا رسول الله وسعدَيْكَ.

قال: «يا معاذ بن جبل».

قال: لبَّيكَ يا رسول الله وسعديْكَ (ثلاثاً).

قال: «ما من أحد يشهد أَنْ لا إلَه إلا الله وأَنَّ محمداً رسول الله: صِدقاً من قلبه إلَّا حرَّمه الله علىٰ النار».

قال: يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟

قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «إذاً يتّكلوا».

وأخبَرَ بها معاذ عند موته تأثماً ـ أي: بُعْداً عن إثم الكتمان ـ.

وهذا عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كما روىٰ أبو داود والترمذي، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه، قال لابنه عند الموت:

يا بُنيَّ إنك لن تجدَ طعم حقيقة الإيمان، حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول:

«إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا ربِّ وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيءٍ حتىٰ يوم القيامة».

يا بنيّ سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «مَنْ مات علىٰ غير هذا فليس مني».

وهذا أبو ذر رضي الله عنه يقول: (والله لو وَضَعْتُم الصمصامة علىٰ هذه ـ وأشار إلىٰ قفاه[1] ـ ثم ظننتُ أني أُنفِذ كلمةً سمعتها من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قبل أن تُجيزوا عليَّ لأنفذتُها) رواه البخاري.

ومِنْ هنا تفهم شدَّة خوف الصحابة رضي الله عنهم، من أن يموت أحدهم وعنده حديث عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لم يُبلِّغه للناس، فكانوا يحرصون علىٰ تبليغ أحاديثه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ويُحرِّضون علىٰ تبليغها عنهم:

---

(١) أي: إلىٰ قفا رأسه.

كما ورد عن سليم بن عامر قال: كنا نجلس إلىٰ أبي أمامة رضي الله عنه فيحدثنا حديثاً كثيراً عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإذا سكتَ قال: (أَعَقَلْتُمْ ، بَلِّغوا كما بُلِّغتُم).

وقال مكحول: دخلت أنا وابن زكريا وسليمان بن حبيب علىٰ أبي أمامة رضي الله عنه بحمص ، فسلَّمنا عليه فقال: (إنَّ مجلسكم هذا من بلاغ الله تعالىٰ لكم ، واحتجاجه عليكم ، وإن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد بلَّغ فبلِّغوا)[1] .

ثانياً: ترغيبه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بكتابة أحاديثه:

ولذلك كان الكتَبَة من الصحابة يتسارعون إلىٰ كتابة القرآن الكريم ، والحديث النبويِّ ، حتى قال لهم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «لا تكتبوا عني شيئاً غيرَ القرآن ، فمَنْ كتب عني شيئاً غيرَ القرآن فليمْحُهْ» الحديث.

فما نهاهم عن كتابة الحديث ، وقَصَرَهُم علىٰ كتابة القرآن إلاَّ لأنهم كانوا يحرصون علىٰ كتابتهما ، فنهاهم في أوَّل الأمر عن كتابة الحديث ، وقَصَرهم علىٰ كتابة القرآن الكريم بُعْداً عن الاشتباه ، أو عدم الانتباه ، باعتبار أنهم حديثو عهدٍ بالإسلام ، وباعتبار أن صغارهم ونساءهم ربَّما لا يُفرقون بينهما ، ثم أذن لهم بعدُ لإدراكهم الفرق بين الكلام المعجز والجامع من وجوهٍ متعددة وأساليب مختلفة ، فصاروا يكتبون الحديث النبويَّ ، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المكثِر ، ومنهم مَنْ يكتب لنفسه ، وقد يكتب لغيره ممن لا يُحسن الكتابة.

---

(١) قال الحافظ الهيثمي: رواهما الطبراني في (الكبير) وإسنادهما حسن. ا هـ.

ويدلك علىٰ اهتمام الصحابة بكتابة الحديث النبوي ما يلي:

رویٰ البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما من أصحاب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحد أكثر حديثاً عنه مني ، إلَّا ما كان من عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فإنه كان يكتب ولا أكتب).

وقد تقدم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه كان يكتب كل شيء سمعه من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال له: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقٌّ» ، وأومأ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بأصبعه إلىٰ فمه الشريف.

وروىٰ البخاري ، عن أبي جُحيفة قال: قلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم كتاب ـ أي: كتاب خاصٌّ بكم ـ.

فقال: لا. إلَّا كتاب الله ، أَوْ فَهْم أُعْطِيَه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة).

قال: قلتُ: وما في هذه الصحيفة؟

قال: (العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يُقتَل مسلم بكافر).

وفي الحديث المتفق عليه ، أنَّ رجلاً قال للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بعد أن خطب صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: اكْتُبْ لي يا رسول الله.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «اكتبوا لأبي فلانٍ» الحديث.

فأمر الكتَبَة أن يكتب أحدهم للرجل خطبته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

وَمِنْ هنا يتبيَّن حرص الصحابة علىٰ كتابة الحديث.

وفي حديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه، الذي رواه الحافظ الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي بسنده، عن محمد بن سعد قال: لمَّا مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذُؤابة سيفه كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم، سمعتُ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «إنَّ لربكم في بقية أيام دهركم نفحات؛ فتعرَّضوا لها، لعلَّ دعوةً أن توافق رحمةً، فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً» الحديث، وله شواهد كثيرة.

وروىٰ الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فيسمع من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقال: يا رسول الله إني لأَسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه.

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «استعِنْ بيمينك» وأومأ بيده إلىٰ الخَطِّ.

وقد كان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يوجِّه إلىٰ الكتبة تعليمات تساعدهم علىٰ حسن الكتابة:

فقد روىٰ الترمذي، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: دخلتُ علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وبين يديه كاتب، فسمعتُه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول له: «ضع القلم علىٰ أُذُنك؛ فإنه أَذْكَر للمُملي».

ومما تقدم ذكره يُعلم أن السنة النبوية قد بدأ تدوينها في الكتب

في عصر النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأنَّ الصحابة كتبوا من السنة كُتباً: منها مجامع كبرىٰ مثل كتاب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، فإنه كان يكتب فيه كلَّ شيء سمعه من النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما تقدم ، ومنها الوسطىٰ في جمعها ، ومنها الأجزاء ، وهكذا تتابع التدوين في كتب الجوامع ، والتصانيف ، والمسانيد ، والمعاجم ، ونحوها من كتب الحديث النبويّ الشريف ، إلىٰ جانب نشرها في مجالس حافلة جامعة ، يعقدونها لقراءة الحديث النبوي الشريف ، فحفظ الله تعالىٰ أحاديث رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ يوم الدين.

فقد ذكر الإمام البخاري في (صحيحه) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ ، أنه كتب إلىٰ أبي بكر بن حزم: (انظر ما كان من حديث رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فاكتبه ، فإني خِفتُ دُرُوسَ العلم وذهابَ العلماء ، ولا يُقبل إلا حديث النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولْيفشوا العلم ، ولْيجلسوا للناس حتىٰ يُعلَّم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلِك ـ أي: لا يذهب ويُقضىٰ عليه ـ حتىٰ يكون سِرّاً). اهـ.

أي: فما دام يُنشر في القراطيس ، ويغشىٰ في المجالس والحلقات العلمية؛ فهو باقٍ ومحفوظ. والحمد لله رب العالمين.

ولقد كانت مجالس التحديث تجمع جموعاً كبيرةً كثيرةً متنوعةً من جميع الطبقات ، فمنهم الذي يكتب ما يسمع من الحديث ، ومنهم الذي يحفظ ، وقد ذكر العلماء أن الإمام البخاري كان يحضر مجلس تحديثه في رحبة بغداد حين رحل إليها ، كان يحضر مجلسه: عشرة آلاف من مختلف طبقات الناس.

وقد ذكروا أن أبا مُسلم الكَجِّيَّ حضر مجلس حديثه أربعون ألفاً معهم المحابر يكتبون ، ما عدا بقية المستمعين ، وقد أعانه علىٰ إسماعهم سبعة مستملين يبلغون عنه ، إلىٰ غير ذلك كما هو مفصل في موضعه. والحمد لله رب العالمين.

الأمر الثالث: حفظ وبقاء حَمَلَة الكتاب والسُنَّة ، وتبليغ ذلك للأمة إلىٰ يوم الدين:

قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

فلا بد في كل عصر من علماء وقراء يحفظون القرآن ، أي: يَقْرؤون القرآن عن ظهر قلب ، وقد يَكثرون وقد يَقِلُّون ، ولكن ما ينقطعون إلىٰ يوم الدين ، يشير إلىٰ ذلك الحديث الذي رواه مسلم كما تقدم في الحديث القدسي: «وَأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان».

فإذا كانت محافظ القرآن هي الصدور فإن الماء لا يغسلها ، وأما السطور فإن الماء يغلسها ، إذاً لا بدَّ من بقاء هذه المحافظ حتىٰ يُبَلَّغ إلىٰ آخر الأمة.

فلا بدَّ من حفظ الكتاب وحفظ بيانه ، ولا بد لهما ممن يحملهما ويبلِّغهما إلىٰ يوم القيامة ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

فالكتاب الذي لبثوا فيه إلىٰ يوم البعث ما هو إلا هذا القرآن

الكريم ، وأما التوراة والإنجيل فقد جرىٰ عليهما ما جرىٰ من تحريف ، وزيادة ونقص ، وجاءت إلىٰ أزمنة معيَّنة ، ثم تبدَّلتْ وتبدَّدتْ علىٰ مدىٰ الأيام ، وهذا ظاهر ، وإن الآيات اللاحقة بعد هذه الآية تشير إلىٰ أن المراد بكتاب الله تعالىٰ هنا: القرآن كما سيأتي ، فيقال للذين كفروا بهذا القرآن: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن القرآن جاءكم بعلوم ومعارف ، وأدلَّة وبراهين يقينيَّـة ، فكنتم تُعرضون عنها ، فهذا الكتاب يقول لكم: اِعلموا ، وأنتم تعرضون ولا تعلمون ، ويقول لكم: لعلَّكم تعقلون ، وأنتم تُعرضون ولا تعقلون ما جاءكم به ، ولا تتفكَّروا ، إذاً فالنتيجة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن معرفة الحق ، وتعاميهم عن آياته ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ والاستعتاب: هو طلب العُتْبىٰ ، وهي الاسم من الإعتاب ، بمعنىٰ إزالة العَتْب ، فهم لا يُستعتبون لأنهم لا ينفعهم الاعتذار بعد التحذير والإنذار.

ومن ثَمَّ قال تعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بَيَّنَّا لهم في هذا القرآن المجموع في الكتاب الذي لبثوا فيه إلىٰ يوم البعث ، بَيَّنَّا لهم كلَّ دليلٍ واضح ، يجري مجرىٰ المَثَل في إثبات التوحيد ، وصدق النبوات والرسالات ، وإثبات اليوم الآخر ، وحَقِّيَّة الحساب والثواب والعقاب ، وغير ذلك من القضايا الإيمانية.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جحدوا الحقَّ وأعرضوا عنه ، يقولون للرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ومَن آمن به: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

وهذا نظير: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ثم يقول تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون العلم الحقَّ بعد ما جاءهم، ولا يفكِّرون فيه، ولا يسعَوْن إلىٰ علم ما جاءهم به كتاب الله تعالىٰ من البيِّنات والهُدىٰ، بل يعرضون وينكرون ويستهزؤون: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

فهذه الآيات كلها شواهد علىٰ أن المراد بكتاب الله تعالىٰ في قولهِ تعالىٰ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ هو القرآن الكريم، فهو باقٍ إلىٰ يوم الدين، وحملته أولوا العلم والإيمان أيضاً باقون خلفاً عن سلف، حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ، كما بيَّن ذلك النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الحديث المتواتر، الذي جاء بروايات متعددة، وفي ضمن أحاديث كثيرة، ولذا نصَّ علماء الحديث علىٰ تواتره:

وهو كما جاء عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين؛ حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

ورَوَى البخاري وغيره، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم؛ حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم علىٰ ذلك» هذا نصُّ بعض روايات البخاري.

وقد روىٰ هذا الحديث أهل الجوامع والسنن والمسانيد وغيرها.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في (التهذيب) مُبيِّناً هذه

الطائفة المخبَر عنها في الحديث قال: حَمَلَةُ العلماءُ أو جمهورهم علىٰ أهل العلم ، وقد دعا لهم النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بقوله: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، فأدَّاها كما سمعها» يشير إلىٰ الحديث المتقدم.

وقال رحمه الله تعالىٰ: وَجَعَلَهم النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عُدُولاً ، ففي الحديث ، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «يَحمِل هذا العلمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عدوله ، يَنْفُون عنه تحريف الضالين ، وانتحال المبطِلين».

قال النووي رحمه الله تعالىٰ: وهذا إخبار منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بصيانة العلم وحفظه ، وعدالة ناقليه ، وأن الله تعالىٰ يُوفِّق له في كل عصرٍ عُدُولاً يحملونه وينفون عنه.

قال رحمه الله: وهو من أعلام نبوَّته ، ولا يضرُّ معه كون بعض الفُسَّاق يعرفون شيئاً من العلم ، لأن الحديث ـ أي: قوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه» ـ إنما هو إخبار بأن العدول يَحملونه ، لا أن غيرَهم لا يعرف منه شيئاً. اهـ يعني: أن المعوَّل عليهم في حَمْلِهِ وحفظه وصيانته؛ هم عدولُ كل خلف.

وقال النووي رحمه الله تعالىٰ: يجوز أن تكون الطائفة ـ أي: المخبر عنها في الحديث الأسبق «لا تزال طائفة من أمتي. . . .» الحديث ـ متعددة من أنواع الأمة ، ما بين فقيهٍ ومُحدِّث ومفسِّر ، وقائمٍ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهدٍ وعابدٍ ، ولا يلتزم اجتماعهم ببلد واحد ، بل يَجوز اجتماعهم في قطرٍ

واحدٍ ، وتفرقُهم في الأقطار ، ويجوز أن يكونوا في بعض الأقطار دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أوَّلاً فأوّلاً إلىٰ أن لا يبقىٰ إلا طائفة في بلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله تعالىٰ بقيام الساعة[1] . ا هـ.

وهذا الحديث وهو: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه» هو كما أورده الإمام القسطلاني في مقدمته علىٰ شرح البخاري:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه ، يَنفُون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويلَ الجاهلين».

قال القسطلاني رحمه الله تعالىٰ: وهذا الحديث رواه من الصحابة: علي كرَّم الله تعالىٰ وجهه ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر بن سمرة ، ومعاذ ، وأبو هريرة رضي الله عنهم.

قال: وأورده ابن عديٍّ من طرق كثيرة كلها ضعيفة ، كما صرَّح به الدارقطني وأبو نعيم وابن عبد البرّ ، لكن يمكن أن يتقوَّىٰ بتعدد طرقه ، ويكون حَسَناً كما جزم به ابن كيكلدي العلائي[2] . ا هـ.

* * *

---

(١) وقد نقل ذلك القسطلاني في مقدمة شرح البخاري ، والزرقاني أيضاً نقل ذلك.

(٢) أي: ويكون حسناً لغيره كما هو المقرر في علم الحديث بلا شك.

حِفْظُ الله تعَالَىٰ لِهَذا القُرآن العَظِيْم مِنَ التَّحْرِيْفِ والتَّبْدِيْلِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ إلىٰ يوم الدين وإِثْبَاتُ ذلك بوجوه من الأدلة الموجبة لليقين

لقد تكفَّل سبحانه وتعالىٰ أن يحفظ هذا القرآن الكريم ، من التبديل والزيادة والنقصان إلىٰ يوم الدين ، وذلك ثابت قطعاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فأخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عن أمرين عظيمين :

الأول: أنه سبحانه هو الذي أنزل هذا الذكر ـ أي: القرآن الكريم ـ ولم يَنزل من عند غير الله تعالىٰ ، والمعنىٰ: أن هذا القرآن هو من عند الله تعالىٰ قطعاً لا من عند غيره ، لأنَّ غير الله تعالىٰ لا يقـدر علـىٰ الإتيـان بـه، ولا يستطيـع أن يـأتـي بمثلـه نصّـاً، ولا إعجازاً، ولا إحكاماً لآياته ، ولا أَحكاماً لشريعته ، ولا إخباراً عن المغيّبات ، ولا عن العوالم العلوية والسفلية ، ولا إحاطةً ببعض تلك العلوم والمعارف التي جاء بها هذا الكتاب الكريم والقرآن العظيم، فإعجاز هذا الذكر الذي ذكر الله تعالىٰ فيه ما يُعجز

الإنس والجن عن الإتيان بمثله؛ دليل على أنه حقاً ليس كلام مخلوق؛ بل هو كلام الله تعالىٰ الخالق؛ أنزله علىٰ رسوله سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: لا غيرنا. لأن غير الله تعالىٰ لا يستطيع ذلك.

الثاني: الذي أخبرت عنه الآية الكريمة هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

والمعنىٰ: أنه سبحانه الذي أنزل هذا القرآن الكريم هو تكفَّل أن يحفظه من التلاعب فيه ، والزيادة والنقصان ، فكما يجب الإيمان قطعاً بأن هذا القرآن أنزله الله تعالىٰ ، يجب أيضاً الإيمان قطعاً بأن الله تعالىٰ هو حافظ لهذا القرآن قطعاً.

وهذا من خصائص القرآن الكريم ، فإن الله تعالىٰ لم يتكفَّل بحفظ أيِّ كتاب أنزله علىٰ رسله السابقين.

فلم يتكفَّل بحفظ التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور وغيرها ، بل وكَّل حفظها للربَّانيِّين والأحبار:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: يحكمون بذلك ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ الآية.

فلقد استحفظهم الله تعالىٰ إيَّاها ، فما استطاعوا أن يحفظوها من الزيادة والنقصان والتحريف.

أما هذا القرآن العظيم فقد تولَّىٰ الله تعالىٰ حفظه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فلم ينله تبديل ولا تحريف ،

ولا زيادة ولا نقص ، ولن يناله ذلك أبداً ، لأن الله تعالىٰ الحفيظ العليم هو تولَّىٰ بنفسه أن يحفظه ، وشَتَّان بين حفظ الخالق وحفظ المخلوق.

ومن ثَمَّ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

فمن هذه الآيات الكريمة يتضح للعاقل وضوحاً جليّاً ، أَنَّ هذا القرآن هو مصون عن عبث العابثين ، وتلاعب المتلاعبين ، محفوظ من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقص ، أبداً إلىٰ يوم الدين.

وهذا أمر يجب الإِيمان به جزماً ، والاعتقاد به قطعاً ، لثبوت ذلك بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة:

الدليل الأول: قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فلو جرىٰ علىٰ هذا القرآن تبديل أو تغيير ، أو زيادة أو نقص ، لما صَحَّ الخبر في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ولَمَا صَدق الله تعالىٰ وعده بالحفظ لهذا القرآن العظيم ، وتعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

فإن الله تعالىٰ لا يُخلف وعده ، وإنَّ خبره صادق محتَّم الوقوع ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾؟ ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟ فإنه سبحانه لا يكذب خبره ، ولا يتخلَّف وعده ، ولا تُنقض كفالته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ هو كفالة من الله تعالىٰ موثَّقة ، وخبر مؤكد ، ووعد محتَّم ، يعلم ذلك من تدبَّر ، قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

الدليل الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فلو أنه جرىٰ علىٰ هذا القرآن العظيم تبديل، أو زيادة أو نقص، لكان ذلك منافياً ومعارضاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وذلك لأن الله تعالىٰ أخبر في هذه الآية أنَّ البَاطل لا يأتي هذا القرآن، ولا يتسرَّب إليه، لا في نصوصه، ولا في معانيه، فهو لا يُعارض ولا يناقض، ولا يزاد فيه ولا ينقص قطعاً، لأن الزيادة فيه هي باطلة؛ باعتبار أنها ليست منه، وإن النقص منه هو أيضاً باطل؛ لأن فيه إبطالاً لما هو من القرآن حقاً دالاً علىٰ حق.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ دليل صريح علىٰ صيانته وحفظه من التلاعب والزيادة والنقص، فإن الخبر القرآني لا يتخلَّف ولا يتبدَّل.

الدليل الثالث: قوله سبحانه ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ الآية الكريمة.

فقد أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يقول للناس: أُوحِي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به أيها الناس، أي: الذين بلَّغْتُكم وشافهتكم في قرني ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وأنذر به كلَّ مَنْ بلغه هذا القرآن إلىٰ يوم القيامة، ومعنىٰ ذلك: أن الله تعالىٰ أمر رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن ينذر بهذا القرآن الكريم أوَّل هذه الأمة، ووسطها، وآخرها، علىٰ حدٍّ سواء، ولذلك كان يَقول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه به

ثم يقرأ: «﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾»[1].

فقد جعل الله تعالىٰ القرآن الكريم حجةً لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ جميع العالم، وبلاغاً عنه لكافَّة العباد إلىٰ يوم المعاد، فإنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم صاحب الرسالة العامَّة إلىٰ جميع الثقلين، إلىٰ يوم القيامة، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يبقىٰ كتابه الذي أنزله الله تعالىٰ عليه، يبقىٰ محفوظاً إلىٰ يوم الدين، لتقوم الحجة علىٰ العباد، وليهتدوا به إلى سبيل الرَّشاد، فيبلِّغَهُ آخر هذ الأمة كما بلَّغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لأولها.

فلو جاز أن يجري عليه تحريف أو زيادة أو نقص، لما تحقَّق إنذاره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لِمَنْ يأتي من بعده، كما أنذر الذين في عصره، في حين أن الآية الكريمة تخبر بإنذاره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمن في عصره ولمن بعده علىٰ حدٍّ سواء.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وقل لهم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

فأكبر شاهدٍ شهادته هي أكبر من كل الشهادات بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو الله العلي الكبير، الذي أعلن شهادته بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، في الآيات التكوينية: السماوية والأرضية، والشجرية والمائية،

---

(١) رواه أبو نعيم والخطيب وابن مَرْدُوْيَهْ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروىٰ ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما نحو ذلك عن محمد بن كعب القرظي.

والطعام والشراب ، وغير ذلك ، وهي المعجزات التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يديه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، شهادةٌ له بأنه رسول الله تعالىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومِنْ تلك الآيات السماوية : انشقاق القمر وإمطار المطر ونحو ذلك .

كما أنه سبحانه أعلم عباده بشهادته أن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في آياته القرآنية :

قال الله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ ﴾ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فهذا معنىٰ : ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ الآية .

الدليل الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة بيَّن الله تعالىٰ أن إنزال هذا القرآن هو بالحق ، وأنه قد نزل بالحق ، فهو الحق الموجب لليقين ، والموجب للثقة كل الثقة به ، وبما جاء به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ الآية .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ فهو الحق الموجب للطمأنينة والثقة به ، وبما نزل به ، بلا شك ولا ارتياب .

فلو جاز علىٰ هـذا القرآن تحريف أو زيادة أو نقص ، لأدَّىٰ ذلك إلىٰ ذهاب الثقة به ، ولأدىٰ ذلك إلى عدم الإيمان الجازم بما جاء به .

وكيف لا يوثق به ولا يقطع جزماً بما جاء به ، مع أن الله تعالىٰ بَيَّن لعباده أن هذا الكتاب بجميع آياتِهِ هو الحق الموثوق بحقيته ،

والمقطوع بحقيقته ، لا يتطرق الباطل ولا الخَلَل إلىٰ جانب من جوانبه كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

فَإِنَّ فحوى هذه الآية ونصَّها يناديان العقلاء بأن الثقة كل الثقة ، واليقين كل اليقين ، والحق كل الحق؛ ذلك كله في هذا الكتاب العزيز الذي لا يجد الباطل إليه سبيلاً .

فلو جرىٰ عليه تحريف أو زيادة أو نقص ، لذهبت الثقة به ، واليقين بما نزل به ، وهما أمران ثابتان بنص ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الآية .

أما ذهاب الثقة بالمزيد: فالأَمْرَ بَيِّن ، لأنه ليس من كلام الله تعالىٰ بل هو كلام مفترىً .

وأما ذهاب الثقة بالمزيد عليه: فإن العاقل يقول: لعلَّ في هذا الأصل زيادة أيضاً ، فما يُدرينا أنها كلها أصل؟ .

وأما ذهاب الثقة به ـ القرآن ـ حالة النقص منه: فذلك لأن بين الأصل المنقوص والشيء الناقص منه ارتباطاً في المعاني والأحكام ، والإحكام والأخبار ، وغير ذلك من المناسبات المحكمة .

فلو جرىٰ عليه النقص لأدَّىٰ ذلك إلىٰ عدم الثقة بالناقص والمنقوص منه ، فلا يكون أحد من المسلمين علىٰ ثقة بدينه لاحتمال نسخ بعض الصلوات أو تغيير أوقاتها ، أو الزيادة عليها ، أو نسخ للزكاة ، أو نسخ مقاديرها ، أو نسخ الصيام ، أو الزيادة فيه ، أو بتبديله بغيره ، أو نسخ الحج ، أو تحليل بعض المحرمات؛

كالخمر والميسر ونحوهما من المحرمات ، أو تحريم بعض أنواعٍ من الحلال. . .

وبذلك لا يكون أحد من الناس على عبادة إلاَّ هو على شكٍ منها ، ولا يُحجم عن حرام إلا وهو متشكِّك ، فأين الإيمان والجزم بشرع الله تعالى ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وحينئذ لا يمكن الإيمان الجازم والحالة هذه إلا ببعثة نبيّ يبعثه الله تعالى يُبيِّن للناس ما نقص من هذا القرآن أو ما زيد فيه.

وكيف يكون ذلك وقد بين الله تعالى في كتابه أنه لا نبيَّ بعد سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بل هو خاتم النبيين: قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

فهو سبحانه يَعلم بعلمه القديم الذي لا يتبدل ولا يتغير ، أن ختم النبوات لا يليق به إلا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ولذا قال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «وأنا خاتم النبيين ولا نبيَّ بعدي» وهذا حديث متواتر عنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

ولذلك نرى أن الكتب السماوية السابقة لما كانت في معرض التحريف والزيادة والنقص ، اقتضتْ حكمة الله تعالى أن يتابع ويوالي بين بعثة الأنبياء ، بحيث ما يذهب نبيّ إلا بعث الله تعالى نبياً آخر ، وربَّما اجتمع في زمان واحدٍ عدة من الأنبياء:

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ ﴾ وذلك لأجل أن يُبَيِّنُوا للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم ، ويُبعدوهم عن الشك في دينهم ، بحيث يكونون على يقين في كتابهم وشريعتهم ،

وبذلك تقوم حجة الله تعالىٰ علىٰ العباد ، قال تعالىٰ: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

فأما هذا الكتاب العزيز الذي جاء به سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من عند الله تعالىٰ ، فهو باقٍ إلىٰ يوم القيامة ، محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، لأن رسالة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عامَّة ، باقية خالدة ، ليستْ خاصة لأقوام معينين ، ولا لأزمنة خاصة .

فها هنا أمران عظيمان هامَّان يجب الانتباه إليهما ، وهما متلازمان لا ينفكان عن بعضهما .

الأول: عموم رسالته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ جميع الثقلين إلىٰ يوم الدين .

الثاني: حفظ كتابه العزيز النازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وإبقاؤه مصوناً محفوظاً من التلاعب إلىٰ يوم الدين .

فالطعن في أحد هذين الأمرين هو طعن في الأمر الآخر ، لأنهما مرتبطان ببعضهما ، فكما أَنَّ عموم رسالته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ثابت بالنصوص القطعية:

نحو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وَقَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الآية.

كذلك أيضاً حِفْظُ الكتاب النَّازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ثابت بالأدَّلة القطعية.

الدليل الخامس: قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية.

لقد ذكر الله تعالىٰ التوراة النازل علىٰ موسىٰ عليه السلام بالمدح والتعظيم، ثم ذكر الإنجيل الذي أَنْزل علىٰ عيسىٰ عليه السلام بالمدح والتعظيم.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية.

ثم ذكر سبحانه هذا القرآن الكريم، وبيَّن منزلته من بين الكتب السماوية، ورفعة رتبته علىٰ جميع الكتب السماوية قبله، وأنه المهيمن علىٰ جميعها فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

فقد أخبر سبحانه عن رتبة هذا الكتاب العزيز بالنسبة لجميع الكتب قبله، بأنَّه مُصدِّق لما جاءت به من عند الله تعالىٰ؛ وأنه المهيمن علىٰ جميع الكتب قبله، بمعنىٰ: أنه الأمين المؤتمن

عليها ، والحَكَم الشاهد بصدق ما جاء فيها من عند الله تعالىٰ.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ في (صحيحه): باب كيف نزل الوحي ، وأول ما نزل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المُهَيْمِنُ: الأمين ، والقرآن أمين علىٰ كل كتاب قبله. اهـ.

فهذا القرآن الكريم هو الأمين الحكم علىٰ كل كتاب قبله ، يُحقّ ما فيه من حق ، ويبطل ما حُرِّف منها وأدخل عليها من باطل.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المهيمن: الشاهد.

وفي رواية عنه فَسَّر المهيمن هنا بمعنىٰ: الحاكم ـ وكلها متقاربة ومتلازمة.

فهذا القرآن هو الأمين علىٰ الكتب قبله والشاهد والحاكم.

فإذا كان موقف القرآن مع الكتب قبله ، أنه هو الأمين عليها والحاكم علىٰ ما فيها ، فلا يمكن أن يجري عليه تحريف ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص كما جرىٰ علىٰ الكتب قبله ، لأنه لو جرىٰ عليه تبديل أو تحريف ، أو زيادة أو نقص لاحتاج إلىٰ أمين آخر ، وَحَكَمٍ آخر يحكم علىٰ ما فيه. هذا من وجهٍ.

ومن وجهٍ آخر نقول: إذا جاز علىٰ هذا القرآن تحريف أو تبديل ، أو زيادة أو نقص ، فإنَّ الله تعالىٰ يكون قد نصب علىٰ كتبه السماوية السابقة أميناً غير مضمون ، وحكماً غير مأمون. تعالىٰ الله الحكيم العليم عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن في جعل الله تعالىٰ هذا القرآن الكريم مُهيمناً علىٰ الكتب قبله وأميناً وحَكَماً عليها ، إنَّ في

ذلك شَهادة من الله سبحانه بضمانة هذا القرآن العزيز ، وأمانته ، وحفظه من التلاعب والتبديل ، والزيادة والنقص.

ولذلك حُقَّ له أَنْ يكون مُهيمناً علىٰ الكتب السماوية قبله ، حكماً عليها ، وشاهداً أميناً ، يُحق ما فيها من حق ، ويُبطل ما حرِّف أو زيد فيها من باطل.

الدليل السادس: إن هذا القرآن الكريم قد خصَّه الله تعالىٰ من بين سائر الكتب الإلٰهية بالإعجاز ، فَإن جميع الكتب الإلٰهية هي كتب دعوة العباد إلىٰ الله تعالىٰ ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وأما هذا القرآن الكريم فهو كتاب دعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان وصلاحه ، وفلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة ، وأيضاً فهو كتاب إعجاز وحجة وبرهان ، فهو كتاب دعوة وحجة معاً لا ينفكَّان ، ففيه الدعوة والبيان القائمان علىٰ الإعجاز والبرهان ، علىٰ مدىٰ العصور وامتداد الأزمان.

ولذلك كانت معجزة القرآن الكريم وحجته هي أكبر المعجزات وأقوىٰ الحجج.

هي أكبر المعجزات التي شهد الله تعالىٰ بها وأعلنها لعباده ، وأشهدهم إياها بأن سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو رسول الله ، وهي أكبر معجزة أيَّده الله تعالىٰ بها ، وأبقاها حُجةً له علىٰ جميع العالمين إلىٰ يوم الدين.

روىٰ الإمام البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ما مِنَ الأنبياء نَبيٌّ إلاَّ

أُعطِيَ من الآيات ما مِثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله تعالىٰ إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة».

قال المحققون من العلماء: المراد من هذا الحديث أن معجزات الأنبياء السابقين صلوات الله تعالىٰ علىٰ نبينا وعليهم أجمعين قد انقرضتْ بانقراض أعصارهم ، فلم يُشاهِدْها إلاَّ من حضرها ، وأما معجزة القرآن الكريم فهي باقية مستمرة إلىٰ يوم القيامة ، وإنَّ خرقه للعادة ، وإعجازه في أسلوبه وبلاغته في إخباره بالمغيبات ، وفي أحكامه وتشريعه ، وحِكَمه وعلومه ، ومعارفه ومعانيه ، وعجائبه التي لا تنقضي ، وحججه التي لا تُعارض ولا تناقض ، كلٌّ ذلك مستمر ، فلا تمرّ في عصر من الأعصار إلاَّ ويظهر فيه من عجائبه ، ومما أخبر به القرآن الكريم أنه سيكون.

فخرقه للعادة بتلك الوجوه المتعددة وبغيرها: يدل علىٰ صحة دعواه ، وصدق الذي أُنزل عليه صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه ، وأنه رسول الله تعالىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

هذا. ومن وجهٍ آخر فإن المعجزات الماضية التي جرتْ مؤيدةً للأنبياء السابقين ، كانت حسيَّة تُشاهَد بالأبصار كناقة صالح ، وعصا موسىٰ ، وإحياء الموتىٰ علىٰ يد عيسىٰ علىٰ نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وأما معجزة القرآن الكريم فإنها تُشاهَد بالبصر والبصيرة ، فيكون من يتبعه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أكثر ، لأن الذي يُشاهَدُ بعين الرأس ينقرض بانقراض مُشاهِده ، وأما الذي يُشاهَدُ بعين

البصيرة ويُشهَد بنور العقل فهو باقٍ ، يُشاهده ويشهد به كل مَنْ جاء إلىٰ يوم القيامة ؛ من العقلاء وأولي البصائر ، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ الآية ، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فإنه كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، ولا بسورة من مثله ، يشهد بذلك كل ذي عقل ورويَّة.

وبناءً علىٰ ذلك فلا يمكن أن يُزاد فيه أو ينقص منه ، لأن المزيد فيه ليس بمعجز ، والناقص منه يخلّ بإعجاز الباقي ، وَيُخلّ بتركيبه وأسلوبه ومناسباته ، وبذلك يخرج عن كونه معجزاً ، حجة باقية إلىٰ يوم الدين ، كما أخبر عن ذلك رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الحديث المتقدم.

وإنَّ صفة الإعجاز هي صفة ذاتية للقرآن الكريم ، ملازمة له ، من المستحيل أن تنفكَّ عنه ، كما أن صفة العربية ذاتية ملازمة للقرآن الكريم لا يتصوَّر أن تفارقه.

فكما أنَّ الله تعالىٰ جعل القرآن عربياً قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلا يمكن تجريده عن العربية ، كذلك جعل القرآن معجزاً فلا يمكن تجريده عن الإعجاز ، ولا يُتصوَّر القرآن بحالٍ من الأحوال غير معجز ، كما لا يُتصوَّر القرآن بحالٍ من الأحوال غير عربي قطعاً.

وهذا الجعل المتقدم ذِكْره ليس تخليقياً ، بل هو جعل التقدير والتصيير ، فإن القرآن الكريم غير مخلوق أصلاً ووصفاً.

ومن هذا كله يتبين للعاقل جلياً أنه لا يمكن أن يجري علىٰ هذا

القرآن الكريم تحريف أو زيادة أو نقص ، فإنه لو أمكن أن يجري ذلك لكانت هذه المعجزة الكبرىٰ التي أبقاها الله تعالىٰ حجةً علىٰ العباد إلىٰ يوم الدين ، مصدِّقةً لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؛ لكانت تلك الحجة غير موثقة ولا مضمونة ولا مصونة ، بل يدخلها الدخيل ، وتتسرَّب إليها الأباطيل والأضاليل ، إذاً فأيُّ حجة له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأيُّ بينة له باقية بعده ، تَثْبُتُ بالقرآن الذي هو مُعَرَّض للتحريف والزيادة والنقص. تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

كلاَّ. بل صدق رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القائل: «وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله تعالىٰ إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

الدليل السابع: إن القرآن العظيم هو الأصل الأصيل ، والركن الركين في الشريعة المحمدية ، المشتملة علىٰ القضايا الإيمانية ، والأحكام العملية والقولية ، والأمور التعبدية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وقد جاءت السنة الشريفة النبوية المشتملة علىٰ أقواله صلَّىٰ الله عليه وآله و سلَّم ، وعلىٰ أفعاله وتقريراته: بياناً للقضايا الإيمانية ، والأحكام العملية ، وسائر الأوامر الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقد بيَّن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما جاء في القرآن الكريم من العقائد الإيمانية ، وبيَّن ما جاء به أيضاً من الأحكام

والأوامر والمناهي ، والحلال والحرام ، إلىٰ ما وراء ذلك من أحكام الشريعة.

فلو جاز أن يجري علىٰ القرآن الكريم تبديل ، أو زيادة أو نقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلل والعبث في الشريعة المحمدية الواجب اتباعها ، والعمل بها إلىٰ يوم القيامة.

ولو جاز أن يجري علىٰ القرآن الكريم شيء من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ تحليل الحرام وتحريم الحلال ، والنقص من الأوامر والمناهي ، التي جاءت في القرآن الكريم.

وَيَخْرُج حينئذٍ عن كونه شرعاً حكيماً مصوناً موثوقاً ، يجب التمسك به إلىٰ يوم القيامة ، لأنه حينئذ قابل للتبديل والزيادة والنقص في كل آنٍ وزمان ، بل في كل ساعةٍ ودقيقة.

بل لو جاز علىٰ القرآن تبديل ، أو زيادة أو نقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلاف بين البيان والأصل المبيَّن ، فإنَّ البيان المحمدي الوارد في سنته الشريفة هو بيان لأصلٍ أصيل نازل من عند الله تعالىٰ وهو القرآن الكريم ، النازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإذا أُجريَ علىٰ القرآن تبديل أو تغيير في نصوصه ، اختلف البيان المحمدي مع الأصل القرآني الذي بَيَّنه قبل أن يعتريه التغيير والتبديل والزيادة والنقص.

وهذا كله محال شرعاً وعقلاً ، وواقعاً وذوقاً وفطرةً ، فإننا نرىٰ أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد أمر وأوصىٰ بالتمسك بالكتاب والسنة معاً إلىٰ يوم الدين ، وأمر العباد بإحلال الحلال وتحريم

الحرام الوارد فيها ، دون أن يحلّوا أو يحرِّموا من تلقاء أنفسهم ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

جاء في (الموطأ) عن مالك أنه بلغه ، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتُم بهما: كتاب الله تعالىٰ ، وسنة رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم».

وروىٰ الحاكم نحو هذا في (المستدرك).

وروىٰ الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يوماً كالمودِّع فقال:

«أنا محمد النبيُّ الأميّ ـ ثلاثاً ـ ولا نبيَّ بعدي ، أُوتيتُ فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ، وتُجُوِّز بي وعرفت وعرِّفت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمتُ فيكم ، فإذا ذُهِبَ بي؛ فعليكم بكتاب الله تعالىٰ: أحلُّوا حلالَهُ ، وحرِّموا حرامه».

وروىٰ الطبراني بإسناد جيد ، عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: «أليس تشهدون أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله»؟ قالوا: بلىٰ.

قال: «إنَّ هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسَّكوا به ، فإنكم لن تضلُّوا ولن تهلكوا بعده أبداً».

وروىٰ الطبراني بسند رواته ثقات ، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

فقال: «أطيعوني ما كنت بين أظهركم ، وعليكم بكتاب الله تعالىٰ: أحلُّوا حلاله ، وحرِّموا حرامه».

فلو جاز أن يجري علىٰ القرآن تحريف في كلمة ، أو زيادة أو نقص؛ لأدىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلل في هذه الشريعة المحمدية ، التي كلَّف الله تعالىٰ العباد أن يتمسّكوا بها إلىٰ يوم القيامة ، فلا بُدَّ وأن هذا القرآن محفوظ ، وأن هذه الشريعة المحمدية محفوظة باقية بتمامها إلىٰ يوم الدين ، كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «تركتُكم علىٰ مثل البيضاء ، ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك» رواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) بإسنادٍ حسن ، ورواه غيره أيضاً بأسانيد متعددة.

* * *

الرُّوْحُ القُرآني وَتَأْثِيْرُهُ
فِي القُلُوْبِ والنُّفُوْسِ

إنَّ من أقوىٰ البيِّنات الدالَّة علىٰ أن هذا القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وأنه كلام رب العالمين ، أنزله علىٰ سيدنا محمد رسول الله الصادق الأمين ، أنه جاء بروحٍ من أمر الله ، ليسري في قلوب العباد ، بحيث إنهم يشعرون بتأثيره وفعَّاليته ، وذوق حلاوته وطلاوته ، فيعرفون الحق واضحاً جلياً ، فبعد ذلك: منهم المقرّ المعترف بما عرف ، ومنهم المنكِر الجاحد للحق عناداً بعد ما عرف: كِبراً ، أو عصبية جاهلية.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية.

ومن المعلوم بداهةً أن من شأن الروح وفعَّاليتها أنها تعطي الحياة لِمَنْ سَرَتْ فيه.

فهناك الروح الإنساني الذي تحيا به الأجساد قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، والمعنىٰ: أن الروح الإنساني من عالَم الأمر الربَّاني اللطيف ، الذي به حياة جسم الإنسان ، كما دلَّ علىٰ ذلك الحديث الذي رواه البخاري وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

بينما أنا أمشي مع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في حَرثٍ ، وهو متوكِّيءٌ علىٰ عسيبٍ ، إذ مَرَّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم: ما رابكم إليه؟ ، وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيءٍ تكرهونه ، فقال: سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحىٰ إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية .

فالروح المسؤول عنها في هذه الآية هو الروح الإنسانيّ ، يدل علىٰ ذلك رواية ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود قالوا للنبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذَّب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من أمر الله ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ الآية .

وأيضاً فإن اليهود لم يقصدوا بذلك الروح الجبريلي ، لأنهم يعادونه ويبغضونه ، ولم يقصدوا الروح القرآني لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم ، فلم يبق لهم مقصود من السؤال إلا الروح الإنساني الذي يحيا به جسم الإنسان .

وأما الروح القرآني فهو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهذا الروح به تحيا الأرواح الإنسانية ، وبه تحيا القلوب التي هي أبواب الاتصال بين الأرواح والأشباح .

فأمر هذا الروح القرآني أعظم من الروح الإنساني ، وشأنه أكبر ، ولذلك جاء ذكره غير معرَّف تعظيماً وتفخيماً ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ أي: روحاً عظيماً قويَّ التأثير

والفعَّالية ، تعطيكم حياة إيمانية تسعدون بها سعادة الأبد ، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الآية.

يعني: أن الرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاءكم بالروح القرآني الذي به حياتكم السعيدة.

فإذا سرىٰ روح القرآن في قلب الإنسان ، دبَّتْ فيه الحياة الإيمانية ، ما لم يُعرض صاحب القلب عمَّا سرىٰ في قلبه ، ولم يتعامَ عن ذلك ، ويصمَّ تكبراً وتجبراً ، أو يشغل عنه قلبه متبعاً لأهواء نفسه ، متمسكاً بضلالها وَغيِّها ، فحينذاك يُطبع بالكفر علىٰ القلب ، ويزيغ وينغمس في الغفلات ، ويُحجب بها ، فلا تسري فيه الحياة.

فَمَنْ أعرض عن ذلك الروح القرآني واستكبر ، طُبع علىٰ قلبه الكفر ، قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ ﴾ أي: مالوا عن الحق الذي جاءهم وأعرضوا عنه ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ لأنه فرط بالحياة وضيَّعها.

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الآية.

وقد بيَّن الله تعالىٰ لعباده قوة سريان القرآن الكريم في القلوب، وفعاليته وتأثيره فيها، وكيف حال الكفار المعاندين المعرضين تكبراً، وكيف موقفهم من تأثير القرآن وفعاليته في قلوبهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: القرآن ندخله ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

فقد أخبر سبحانه أنه يسلك هذا القرآن ـ أي: يُدخل روحه ـ في قلوب المجرمين، فهي تتحرك وتهتز له، فيعرفون حقِّيَّته، ويذوقون حلاوته، ويَطْعَمون طلاوته، ولكن يجحدون ولا يؤمنون، ويعرفون ولا يعترفون؛ عناداً وكبراً، واتِّباعاً لأهوائهم الفاسدة.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنة الله تعالىٰ في الأمم السابقة، أنَّهم لمَّا أعرضوا عن قبول الحق بعد ما تبيَّن

لهم ، أخذهم بأنواع العذاب ، كقوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم صالح ، وغيرهم.

ثم بيَّن سبحانه شدة معاندة الكفار ومعارضتهم للحق بعد ما تبين لهم ، وسوء كبرهم وجحودهم للحق بعد ما عاينوه وأبصروه ، جلياً ساطعاً ، وأن ذلك هو رأيهم وشأنهم فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي: يصعدون فيه صعوداً محسوساً مشهوداً ، وانتهوا إلىٰ السماوات ، وشاهدوا ما فيها من الآيات وعجائب المخلوقات بأعينهم ثم سُئِلوا: ماذا ترون؟ ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي: أطبقت أبصارنا وأغلقت ، فما نرىٰ شيئاً ما ، في حين أنهم يرون بأعينٍ مفتَّحة ، ولكن لا يعترفون بأنهم يرون بل ينكرون ، فإذا غُلبوا في الحجة عليهم بأنهم يرون ، وكيف ينكرون ما يرون؟! قالوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أي: نحن نرىٰ ، ولكن من باب السحر والتخييل ، لا من باب الحق والحقيقة ، كلُّ ذلك بسبب عنادهم وجحودهم ، وكبرهم وعتوِّهم عن قبول الحق بعد ما رأوه.

وقد ذكر الله تعالىٰ لنا وقائع متعددة عن الكفار المعاندين ، وعن جحودهم وكبرهم لما سمعوا القرآن الكريم ، وسرىٰ روحه في قلوبهم ، فتحركَتْ وبشَّت له قلوبهم ، وذاقت حلاوته وطلاوته ، وأبصروا ببصائر قلوبهم نور الحق الذي جاء به القرآن الكريم ، راحوا يعاندون فينكرون ويجحدون بعد ما عرفوا الحق ، وراحو يهزؤون ويعرضون عن الحق بعد ما تبيَّن ، كما قال الله تعالىٰ في الوليد بن المغيرة: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ

لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ .

قال الإمام البغويّ: لما نزل على النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قام النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في المسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يسمع قراءته، فلما فطن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لاستماعه أعاد القراءة، فانطلق الوليد إلىٰ مجلس قومه بني مخزوم.

فقال: والله، لقد سمعتُ من محمد ـ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ كلاماً آنفاً ـ أي: الآن ـ ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلو ـ أي: فوق كل كلام ـ ولا يُعلىٰ عليه.

فقالت قريش: صبأ والله أبو الوليد ـ أي: رجع عن دين قومه وآبائه وهو عبادة الأصنام ـ والله لتصبأنَّ قريش كلُّهم.

فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزيناً، وكلَّمه بما أحماه.

فقام الوليد فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً ـ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: كاهن، فهل رأيتموه قطّ يتكهّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطىٰ شعراً؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جرَّبتم عليه شيئاً من الكذب؟.

فقالوا في كل ذلك: اللهم لا.

ثم قالوا: فما هو؟

ففكَّر فقال: ما هو إلاَّ ساحر ، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل. فارتجَّ النادي فرحاً ، وتفرَّقوا معجبين بقوله ، متعجِّبين منه . اهـ.

قال ابن جرير في رواية ذلك عن عكرمة: فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

فلقد سرت روح القرآن في قلب الوليد ، وذاق حلاوته ، وتبشبش له قلبه ، ثم عاند وعارض وتكبّر وتجبّر؛ فجحد وأنكر .

وهكذا أبو جهل وأشباهه كلهم عرفوا حَقِّيَّة هذا القرآن الكريم ، وذاقوا حلاوته بقلوبهم ، وعرفوا صدق سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأنه نبيٌّ الله تعالىٰ ورسوله ، ولكن لم يعترفوا بذلك ولم يذعنوا ، كبراً وتعصُّباً جاهلياً.

قال الإمام محمد بن إسحاق في السيرة:

حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حُدِّث: أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو يصلي بالليل في بيته .

فأخذ كلٌّ واحدٍ منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق ـ أي: حين عادوا إلىٰ بيوتهم ـ تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا ، فلو رآكم

بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ـ أي: إلىٰ بيوتهم ـ.

حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية عاد كلّ رجل منهم إلىٰ مجلسه ، فباتوا يستمعون له صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، ـ أي: لأن روح القرآن جذبتْ قلوبهم فأرغمهم أن يعودوا ويستمعوا ، لِمَا ذاقوا من الحلاوة ـ حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا ، وجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أوّل مرة ، ثم انصرفوا.

حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلّ رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتىٰ نتعاهد أن لا نعود. فتعاهدوا علىٰ ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتىٰ أتىٰ أبا سفيان بن حرب في بيته فقال له: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم؟

فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها ، وسمعتُ أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به ـ أي: مثلك ـ.

ثم خرج الأخنس من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعتَ من محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم؟.

فقال أبو جهل: ماذا سمعت!! أي: سمعتُ كلاماً عظيماً حكيماً ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام ربّ البشر ، نازل علىٰ

رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولكن هناك المانع التعصُّبي الجاهلي الذي يحول دون الاعتراف بذلك ، والإذعان إلىٰ ذلك.

ثم بيَّن أبو جهل ذلك فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ـ أي: صار كلٌّ منا ينافس الآخر ويتعالىٰ عليه بالشرف ـ فأطعموا ـ أي: بنو عبد مناف ـ فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتىٰ إذا تجاثينا علىٰ الرُّكَب ، وكنا كفرسَيْ رهان ـ أي: متساوين في المفاخر ـ قالوا ـ أي: بنو عبد مناف ـ: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء ـ أي: نحن نفخر ونعلوا علىٰ غيرنا بالشرف والفضل ، بسبب أن الله تعالىٰ بَعث منا نبياً يوحىٰ إليه ، وهذا شرف وفضل لا يعادِلُهُ شيء ـ.

قال أبو جهل: فمتىٰ ندرك هذه؟ ـ أي: فمن أين نأتي بنبيٍّ حتىٰ ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوىٰ معهم ـ؟

قال أبو جهل: والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه ـ أي: وإن كان نبياً حقَّاً ـ حتىٰ لا تفتخر عليهم بنو عبد مناف.

ولو أن أبا جهل تَعَقَّل لآمن بسيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، بعد أن عرف أنه رسول الله حقاً ، وبإيمانه بمحمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يدخل تحت راية شرفه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويستظلُّ بظل لواء مجده الرفيع صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولكن العصبية الجاهلية أعمت قلبه ، وأظلمتْ عليه عقله. أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك ـ آمين.

وروىٰ الحافظ ابن كثير ، عن الإمام محمد بن إسحاق بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان

سيِّداً في قومه ـ قال يوماً ـ وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جالس في المسجد وحده ـ: يا معشر قريش ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأَعْرِض عليه أموراً ، لعلَّه أن يقبل بعضها فنعطيه أيَّها شاء ويكفّ عنا؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يزيدون ويكثرون ـ.

فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد فقم إليه فكلِّمْه.

فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: يا ابن أخي إنك حيثُ علمتَ من البسطة في العيش والمكان في النسب ـ أي: أنت المعروف في النسب والحسب ، والمكانة العلية والرتبة العصباء ـ وإنك قد أتيتَ قومك بأمرٍ عظيم: فرَّقتَ به جماعتهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وَعِبتَ به آلهتهم ودينهم ، وكَفَّرتَ به من مضىٰ من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «قل: يا أبا الوليد أسمع».

قال: يا ابن أخي إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً: جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً: سوَّدناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً: ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك: طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع علىٰ الرجل حتىٰ يُداوىٰ منه ـ يريد بذلك الجن ـ.

حتىٰ إذا فرغ عُتبة ، ورسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَسْتَمعُ منه .

فقال له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أفرغتَ يا أبا الوليد» ؟ قال: نعم.

قال: «فاستمعْ مني» قال: أفعلُ.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .

ثم مضىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يستمع من رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، حتىٰ انتهىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ السجدة فسجد ، ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ ، فأنتَ وذاك».

فقام عتبة إلىٰ أصحابه ، فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ .

قال: وَرَائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكَهانة.

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه؛ فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ نبأً ، فإن

تُصِبْه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يَظْهرْ علىٰ العرب فمُلْكه مُلككم ، وعزُّه عزكم ، وكنتم أسعدَ الناس به.

وقد روىٰ هذه القصة الحافظ أبو يعلىٰ ، وعبدُ بن حُميد في (مسنديهما) نحو ذلك.

روىٰ الطبراني بإسناده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ ، قال ابن عباس: إنهم كانوا قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم القرآن آمنوا وفاضتْ أعينهم.

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «لعلكم إذا رجعتم إلىٰ أرضكم انتقلتم إلىٰ دينكم»؟

فقالوا: لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله مخبراً عن قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وروىٰ البخاري وغيره ، عن جبير بن مُطْعِم عن أبيه قال: سمعت النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ الآيات ، كاد قلبي أن يطير ـ وكان ذلك سبب إسلامه بعدُ ـ.

فبالروح القرآني تحيا الأرواح والقلوب حياة إيمانية ، فهناك يُخصب بلد القلب بالخيرات ، ويأتي بالثمرات العملية والقولية ، فيصير بلداً طيباً ، وربيعاً مرتعاً ، وكَرْماً يانعاً يافعاً ، لأن القرآن الكريم صار ربيعَه.

روىٰ الإمامان الترمذي وأحمد وغيرهما ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ما أصاب عبداً همٌّ ولا حَزَن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك» إلىٰ قوله: «أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي» الحديث كما تقدم.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

فقد ضرب الله تعالىٰ مثلاً لسريان الروح القرآني في القلوب، وتأثيره فيها: بنزول الماء المتدفِّق من السماء علىٰ بطون الأدوية، وفعَّاليته فيها: الخصب والخضار والنضار، والخيرات والثمرات، فالقلوب المؤمنة هي أودية القرآن، وحديقة الفرقان، وبستانه وكَرْمه.

روىٰ الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «لا تُسَمُّوا العِنَب الكرْم، إنما الكرم قلب المؤمن».

فبسماع كلام الله تعالىٰ تَتَفتَّح القلوب، وتَنْتَعشُ الأَرواح، وتَتَنشَّط النفوس، وتنهض العقول، ولذلك أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يبذل جهده في إسماع المشركين كلام الله تعالىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك الأمان، وهذا عامّ لمشركي العرب والعجم ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وإن لم يفقه تمام معناه، فإنَّ له روحاً ساريةً،

وحلاوةً إلىٰ القلب جارية ، وتذكرة لمن له أذن واعية.

فَأُمِرَ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يسمعهم كلام الله تعالىٰ ولو لم يفهموا معانيه ، لأن كلام الله تعالىٰ له روح فعَّالة في القلوب ، كما تقدم في قول أبي سفيان وغيره: وسمعتُ أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ـ أي: ومع ذلك أثَّرت في قلبه وذاق حلاوتها ـ.

وأما أهل القلب السَّليم ، والعقل القويم ، فإنهم إذا سمعوا القرآن الكريم اهتزَّتْ له قلوبهم ، وسرىٰ فيها روح القرآن الكريم ، ودَّبتْ فيها الحياة ، وبشَّتْ له القلوب وآمنوا به ، كما وصفهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي: فاكتبنا مع الشاهدين من أتباع هذا الرسول الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، الذين يشهدون يوم القيامة علىٰ الأمم قبلهم.

* * *

النُّـوْرُ القُرْآنِـــيُّ
وَإِضَاءَتُهُ علىٰ العُقُوْلِ وَالقُلُوْبِ

إنَّ للقرآن نوراً يُشرق علىٰ القلوب فيبصِّرُها ، وعلىٰ العقول فينوِّرها ، ثم يَسري ذلك في جميع الحواسِّ الفكرية والسمعية والبصرية ، والمدارك الإنسانية ، فيهتدي الإنسان إلىٰ طريق الحق الثابت بالبيِّنات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ يمدح المتَّبعين هذا النور : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ ﴾ أي : برسول الله سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : هم أهل الظَّفَر بالبُغية والنجاح في المقصود ، والفائزون بالمطلوب ؛ هم ولا غيرهم .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ومن المعلوم قَطعاً أنَّ نور البصر وحده يريك النور ، ويريك الظلمة ، ولكن لا يريك الأشياء المادية والمرئية إلا بنور آخر خارجيّ ، فيلتقي نور البصر مع نورٍ خارجيٍّ فترىٰ الأشياء وتنكشِف لك الأمور.

وأما إذا كنتَ في ظلمة ، فلا ترىٰ بنور بصرك وحده غير الظلمة ، فأنت والأعمىٰ سواء في تلك الحالة ، لأنَّ نور البصر وحده لا يكفيك في التهدي إلىٰ رؤية الأشياء وتمييزها.

فكذلك العقل هو نور منحه الله تعالىٰ العاقل ، فهو يُعرِّف العاقل ويميِّز له بين النور الذي يهدي إلىٰ الحق ، وبين الظلمة التي تُلْقي صاحبها في الضلالات والمتاهات ، ولكنْ لا يُميِّزُ بين الصلاح والفساد ، وما ينفعه وما يضرُّه؛ وما يسعده وما يشقيه ، وما فيه خيره وشره ، إلا إذا مشىٰ نور عقله علىٰ نور الحق النازل من عند الله تعالىٰ ، وهو وحي الله تعالىٰ إلىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: كتابه وسنة رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فبذلك يهتدي إلىٰ معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة ما فيه الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والنفع والضرّ.

فيلتقي نور العقل مع نور وحي الله تعالىٰ ، النازل علىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فيهتدي ولا يضلّ ، ويسعد ولا يشقىٰ ، ويصلح ولا يفسد ، ويمشي سوياً علىٰ صراطٍ مستقيم ، يوصله إلىٰ رب العالمين ، وإلىٰ هذا كله يشير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

اللهم اهدنا فيمن هديتَ ، وعافنا فيمن عافيت.

فإذا سمع الإنسان العاقل هذا القرآن وأنصتَ له ، وأنصف معه ، أشرق قلبه واستنار عقله ، وتجلَّت له أنوار الحكمة الإلٰهية ، وأسرار المعارف الربَّانية ، وهذا مما يحمله علىٰ الإذعان للحق الذي جاء به ، والاهتداء بنوره إلىٰ السلوك علىٰ الصراط المستقيم ، فيمشي عليه سوياً ، وهو علىٰ بصيرة من أمره ، وبينةٍ من سَيْره ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾.

ومن هذا إسلام عثمان بن مظعون ، وأكثم بن صيفي ، وغيرهما ممن لا يحصيهم التعداد:

روىٰ الإمام أحمد بإسناد جيد متصل حسن ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بفناء بيته جالس ، إذ مرَّ به عثمان بن مظعون ، فَكَشَر إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ أي: ضَحِك وأبدىٰ أسنانه ـ.

فقال له رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ألا تجلس»؟ ـ أي: لتسمع مني ـ فقال: بلىٰ.

فجلس رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مستقبله ، فبينما هو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُحدِّثُهُ إذ شَخَص رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ببصره إلىٰ السماء ـ أي: بسبب أَنَّ الوحي صار ينزل عليه ، صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ فنظر ساعةً إلىٰ السماء ، فأخذ يضع بصره حتىٰ وضعه علىٰ يمينه في الأرض ، فتحرَّف رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن جليسه عثمان إلىٰ حيث وضع بصره

ـ أي: عن يمينه ـ فأخذ يُنغض رأسه ـ أي: يحرّكه ـ كأنه يستفقه ـ أي: يستفهم ـ ما يقال له ، وابن مظعون ينظر ، فلما قضىٰ حاجته واستفقه ما يقال له ، شَخَص بصر رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتىٰ توارىٰ إلىٰ السماء ، فأقبل صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ عثمان بن مظعون بجلسته الأولىٰ.

فقال عثمان: يا محمد فيما كنتُ أجالسك ، ما رأيتُك تفعل كفعلك الغداة.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وما رأيتَني فعلتُ»؟.

قال عثمان: رأيتُكَ تشخص بصرك إلىٰ السماء ، ثم وضعته حيث وضعته علىٰ يمينك ، فتحرّفْتَ إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وَفَطِنتَ لذلك»؟

فقال عثمان: نعم.

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أتاني رسول الله ـ أي: جبريل عليه السلام ـ آنفاً ـ الآن ـ وأنتَ جالس».

قال عثمان: رسول الله ـ أي: جبريل ـ أتاك؟.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «نعم».

قال عثمان: فما قال لك؟

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

قال عثمان: فذلك حين استقرَّ الإيمان في قلبي، وأحببتُ محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم[1] ـ أي: وذلك لإشراق أنوار حِكَم هذه الآية الجامعة لمجامع الخير كله، والمحذِّرة من ألوان الفساد والشرِّ كله، فاستنار بها عقله، وانفتح لها قلبه، وانشرح لها صدره ـ.

ومن ذلك: ما رواه الحافظ أبو يعلىٰ في كتاب (معرفة الصحابة) بإسناده المتصل، أَنَّ أكثم بن صيفي، لما بلغه مخرج النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، أراد أن يأتيه، فأبىٰ قومه أن يَدَعوه ـ أي: يتركوه ـ وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخفّ إليه، قال: فليأته مَنْ يُبلِّغُه عني ويبلّغني عنه، فانتدب رجلان ـ وروي أنهما ولداه ـ فأتيا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك: مَنْ أنتَ، وما أنتَ؟ وفي رواية: وبِمَ جئتَ؟.

فقال النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أمّا مَنْ أنا؟ فأنا: محمد بن عبد الله، وأَمّا ما أنا؟ فأنا: عبد الله ورسوله، جئتكم بقول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾».

فقالا: رَدِّدْ علينا هذا القول، فردَّده عليهم حتى حفظوه.

فَأتيا أكثم فقالا: أبىٰ أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسَطاً في مُضَر ـ أي: أشرفهم وأمجدهم ـ، وقد رمىٰ إلينا بكلماتٍ قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكثم قال: إني أراه يأمر

---

(١) انظر (المسند) وتفسير ابن كثير ٢: ٥٨٣.

بمكارم الأخلاق ، وينهىٰ عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ـ أي: أسرعوا إلىٰ الدخول في دين هذا الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تكونوا رؤوساً سادةً وقادةً ـ ولا تكونوا فيه أذناباً.

ولقد كان أكثم من الأذكياء الفطناء ، فلما سمع هذه الآية الكريمة أشرق قلبه بأنوار حكمتها ، واستضاء عقله بمجامع خيرها وآدابها ، فاعتبرها وتدبَّرها ، فتذكَّر المحاسن والمكارم التي انطوت فيها؛ فأسلم وأسلم قومه ، فكان ممن قال فيهم سبحانه في آخر الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ومِنْ ذلك: ما رواه البيهقي في (الدلائل) وكذلك أبو نعيم ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله تعالىٰ نبيه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يَعْرِض نفسه علىٰ قبائل العرب ، خرج إلىٰ مِنىٰ وأنا معه ، وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً نسَّابةً ـ أي: خبيراً بأنساب العرب ـ فوقف علىٰ منازلهم ومضاربهم في منىٰ ، فسلَّم عليهم وردُّوا السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وابن هانىء بن قبيصة ، والمثنىٰ بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب القوم إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه مفروق ، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً ، فالتفت إلىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال له: إلىٰ مَ تدعو يا أخا قريش؟.

فتقدَّم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فجلس ، وقام أبو بكر رضي الله عنه يظله بثوبه.

فقال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أدعوكم إلىٰ شهادة أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأنِّي رسول الله ، وأَنْ تُؤوني

وتنصروني ، وتمنعوني حتىٰ أؤدّي حق الله الذي أمرني به ، فإنَّ قريشاً قد تظاهرت علىٰ أمر الله تعالىٰ ، وكذّبتْ رسوله ، واستغنتْ بالباطل عن الحق ، والله هو الغنيّ الحميد» .

فقال له مفروق: وإلىٰ مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلىٰ قوله ﴿ تَتَّقُونَ﴾ .

فقال له مفروق: وإلىٰ مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية .

فقال له مفروق: دعوتَ والله يا قرشي إلىٰ مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِكَ قوم كَذَّبوك وظاهروا عليك .

وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعتُ مقالتك ، واستحْسنتُ قولك يا أخا قريش ، ويعجبني ما تكلَّمتَ به .

ثم قال لهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إنكم لم تلبثوا إلا يسيراً حتىٰ يمنحكم الله بلادَهم وأموالهم ـ يعني: أرض فارس ـ ، وأنهار كسرىٰ ، فعليكم أن تسبّحوا الله وتقدّسوه» .

فقال له النعمان بن شريك: اللهمَّ وإن ذلك لكَ يا أخا قريش .

ونعوذ بالله من حاسدٍ إذا حسد ، ومن حاقد إذا انتقد ، ومن جاهل إذا اعترض ، ومن مبغض إذا امتعض .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنَّ أجمع آية في القرآن هذه

الآية ، وذلك لأنَّ الله تعالىٰ يأمر فيها بمكارم الأخلاق ومعاليها ، وينهىٰ عن ملائمها وسَفْسافها.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الطبراني ، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما ، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال: «إن الله تعالىٰ يُحِبُّ معالي الأخلاق وأشرافها ، ويكره سَفْسَافها».

وفي رواية الحاكم ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال: «إن الله تعالىٰ يُحبّ معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها».

وقد يقول القارىء الكريم: لو أنَّك فَصَّلتَ لنا الكلام علىٰ هذه الآية ، وكونها أجمع آية كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

فيقول عبد الله: إن تفصيل الكلام علىٰ هذه الآية الكريمة يتطلب كتاباً مستقلاً ، ولكن لا بدَّ من كلمة مجملة حول جانب من جوانبها فأقول: إنَّ هذه الآية الكريمة جَمعت مجامع الفلاح والصلاح والنجاح في الدين والدنيا ، والآخرة والأولىٰ ، كما أنها قَمَعَتْ وسدَّتْ ثغور الفساد والضلال والشرور.

وقد قرأ الحسن البصري رضي الله عنه هذه الآية يوماً: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية إلىٰ تمامها ، ثم وقف فقال:

إنَّ الله تعالىٰ قَد جمع لكم الخير كلَّه ، والشرّ كلَّه في آيةٍ واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عزَّ وجلَّ إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله تعالىٰ شيئاً إلاَّ جمعه اهـ. كما في (الحلية).

فجاءت الآية تبين أن الله تعالىٰ يأمر بالعدل المطلق ، والإطلاق

يشمل ويعمُّ ، فيدخل تحت عمومه : **العدل بالنسبة لموقف العبد مع ربه سبحانه ، والعدل بالنسبة لموقفه مع نفسه ، والعدل بالنسبة لموقفه مع مخلوقات الله تعالىٰ .**

أما الموقف الأول : فإن العدل يوجب علىٰ العبد أن يكون موقفه مع الله تعالىٰ رب العالمين موقف الموحِّد اعتقاداً وعبادةً ، فإن هذا رأس العدل ومصدر العدل ، وهو العدل فوق كل عدل ، ولذلك قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية قال : (إن الله تعالىٰ يأمر بلا إلٓه إلا الله) .

نعم لأن كلمة لا إلٓه إلا الله هي كلمة التوحيد ، وتوحيد الله تعالىٰ هو العدل القويم ، والشرك بالله ظلم عظيم ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ جاء في الحديث أن المراد بالظلم في هذه الآية هو الشرك .

فالتوحيد هو العدل ، والشرك هو الظلم ، فإن اعتراف العاقل وإثباته الحق لصاحب الحق هو عدل ، وأما إنكاره الحق وإثباته لغير صاحبه فهو ظلم .

فإيمان الموحِّد وإثباته الألوهية لله تعالىٰ وحده هو العدل القويم ، لأنَّه إثبات الحق لمن له الحق ، فإنَّ الله تعالىٰ هو الربُّ الخالق البارىء المصوِّر الرزاق المدبّر ، فإثبات الألوهية له وحده هو العدل ، لأنه اعتراف وإقرار بالحق لصاحبه .

وأما إثبات الألوهية لغير الله تعالىٰ فهو وضع الشيء في غير

موضعه المستحق له ، وهذا ليس من العدل بل هو الظلم العظيم ، وهذا ليس من الحكمة في شيء ، بل هو العبث والفساد والضلال، فإن الربّ الذي هو يخلق ويرزق ، ويُحيي ويميت هو الإِلَه الذي يُعبَد حقاً ، وأما مَنْ لا يملك من ذلك شيئاً فإنه لا حظَّ له في الألوهية ، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

فإعطاء المشرك الألوهية لغير الله تعالىٰ هو ظلم عظيم ، صَدَر عن ظالم لنفسه ، وظالم في حكمه ، وظالم في أقواله وأفعاله ، فأيُّ ظلم أعظم من ذلك.

وأما الموحِّد فهو العادل في توحيده ، والعادل في اعتقاده ، والعادل في عباداته لربه ، والعادل في حبه لربه ، وفي إرضائه وقربه وتعظيمه لربه ، وحمده وتسبيحه وتكبيره ودعائه ربه.

فإن الموحِّد أيقن أن الإِلَه واحد لِمَا ثبت بالدليل القطعيِّ ، والذوق الفطريِّ ، فتوجَّه الموحِّد بكليته إلىٰ ذلك الإِلَه الواحد في عبادته له ، وثنائه عليه ، وفي دعائه ومحبته له ، ورهبته منه ، ورغبته فيما عنده ، ومخافته منه ، ومراقبته له.

وأما المشرك الذي جعل مع الله إِلَهاً آخر فهو علىٰ ظُلمه العظيم ؛ في جعله مع الله إِلَهاً آخر ، علاوة علىٰ ذلك لو أنه طُولب أن يعدل بين الإِلَهين بأن يحبهما علىٰ السواء ، ويعظمهما علىٰ حدٍ سواء؛ ويعبدهما علىٰ حدٍ سواء ، ويحمدهما ويثني عليهما علىٰ حد سواء ، وأن يَدعوهما ويتضرَّع إليهما علىٰ حدٍّ سواء ، أو يخافهما ويرهبهما علىٰ حد سواء ، أو يرجوهما علىٰ حدٍ سواء ، أو يراقبهما علىٰ حدٍ سواء؛ لو أنه طولب بذلك لما استطاع ، بل

لا بدَّ أن يميل إلىٰ أحدهما أكثر من الآخر ، فهو ظالم في إشراكه ، وجعله من ليس بإلٰه إلٰهاً ، وهو ظالم في معاملته لهما ، وإلىٰ هذا كله يشير قوله تعالىٰ منبهاً للعقلاء : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي: فإيايَ فارهبون ، وأحبوني ، واحمدوني ، وادعوني ، وراقبوني ، فإنَّ ذلك مستطاع لديكم ، فالحمد لله رب العالمين ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً .

فالإشراك بالله تعالىٰ ظلم عظيم ، ليس بمرضيٍّ شرعاً ، ولا مقبول عقلاً .

جاء في حديث الحارث الأشعري ، الذي رواه الترمذي وغيره وفيه: قال يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام لبني إسرائيل ، وقد جَمَعهم في بيت المقدس ، وامتلأ بهم حتىٰ جلسوا علىٰ الشُّرَف ـ وذلك ليبلّغهم ما أمرهم الله تعالىٰ به ـ فقال لهم :

«إن الله تعالىٰ أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، فإنَّ مَثَل ذلك ـ أي: مَثَل من أشرك بالله تعالىٰ ـ كمثل رجل اشترىٰ عبداً من خالص مالِه: ذهب أو وَرِق ـ أي: فضة ـ فقال له ـ أي: قال الرجل المالك: لعبده الذي اشتراه ـ: هذه داري وهذا عملي ، فٱعمل وأدِّ إليَّ ، فكان هذا العبد يعمل ويؤدِّي إلىٰ غير سيده ، فأيّكم يَرضىٰ أن يكون عبده كذلك» الحديث .

فعبد يعيش في دار مولاه ، ويأكل من رزقه ، ويرتع في رحابه ، ويتمتَّع بنعمه ، إذا عمل وأدَّىٰ عمله لغير مولاه؛ إنه لظالم حقاً ، وليس بعادل أصلاً .

وأما عدل الإنسان مع نفسه فإنَّ للنفس علىٰ صاحبها حقاً ، وذلك بأن لا يُعرِّضها إلىٰ ما يُضرّها في دينها أو دنياها .

فلا يُلقي بنفسه في المعاصي فيكون ظالمها غير عادل ، ومن ثَمَّ وصف الله تعالىٰ المخالف لأوامره سبحانه ، أو المرتكب لما نهىٰ عنه ، وصفه بأنه ظالم نفسه :

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

كما أَنَّ من الحق لنفسه عليه أن لا يُحمِّلها من العبادات النافلة فوق طاقتها ، حتى يقعد بها ، فقد قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : «ألم أُخبر أنك تصوم الدهر وتقوم الليل» ـ أي : كله ـ؟

قلتُ : بلىٰ يا رسول الله .

قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : «فلا تفعل ، صُمْ وأفطر ، ونم وقُم . فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك ـ أي : ضيفك ـ عليك حقاً» الحديث .

كما أَنَّ من حقها عليه أن لا يَحرمها طيبات ما أحلَّ الله تعالىٰ

له ، بأن يحرِّم ذلك على نفسه ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ .

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الآية .

وأما ما ورد عن السلف الصالح رضي الله عنهم من إمساك النفس عن بعض المباحات والطيبات شرعاً ، فذلك من باب الحِمْية المؤقَّتة ـ ومن القواعد الطبية المقرَّرة: الحمية رأس كلِّ دواء ، وعوِّدوا كلّ جسم ما اعتاد. اهـ ـ وليس ذلك من باب تحريم المباحات والطيبات ، كما يتوهّمه بعض الجهلة، فإن أهل الله تعالىٰ هُم أشدُّ تمسكاً بشريعة الله تعالىٰ.

وأما العدل مع المخلوقات: فهو إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم ، وهذا باب واسع ، **تدخل فيه الأقوال:** قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ فيشمل الحُكم والقضاء ، والذَّم والثناء ، **وتدخل فيه الأفعال:** فتشمل البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وجميع القضايا التجارية ، والمعاملات المالية .

ويدخل في ذلك حقوق الآباء والأمهات ، والأبناء ، والأقرباء ، والجيران ، وحقوق سائر بني الإنسان ، كما يدخل تحت ذلك حقوق الحيوان فيعامَلُ بالرفق ، ولا يُحَمَّلُ فوق طاقته إلىٰ آخر ما هنالك.

وأما الإحسان المأمور في الآية الكريمة ، فهو يشمل إحسان المعاملة مع الخالق جلَّ وعلاَّ ، ويشمل إحسان المعاملة مع المخلوقات .

أما إحسان المعاملة مع الله تعالىٰ: فهو إحسان عبادته ، والدوام علىٰ مراقبته ، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «فأخبرني عن الإحسان».

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك».

وجاء في رواية لمسلم: «أن تخشىٰ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث. وذلك باستحضار العبد مقامَ القرب ، وأنه أمام جناب حضرة الرب سبحانه ، مُشاهِداً له كأنه يراه ، فإن لم يستطع ذلك فليراقب أن الله تعالىٰ يراه.

كما أَنَّ من إحسان المعاملة مع الله تعالىٰ أن يكون المسلم في سائر أموره مع الله تعالىٰ بالصدق والإخلاص له ، والإقبال عليه سبحانه.

وأما الإحسان مع المخلوقات: فهو يشمل الإحسان بالقول: قال تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ، وإحسان الأعمال ؛ وهذا يتطلب الإحسان إليهم حسب ما يَقتضيه الموقف معهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وروىٰ الطبراني ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إذا حكمتم فاعدلوا ، وإذا قتلتم فأحسنوا ، فإن الله محسن يحب المحسنين».

بل إنَّ مِنْ شريعة دين الإسلام الإحسان في كل شيء ، وإلىٰ كلِّ شيء ، كما جاء في الحديث الشريف ، الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما ، عن أبي يعلىٰ شدَّاد بن أوس رضي الله عنه ، عن النبي

صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال: «إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدَّ أحدكم شفرته ، وليُرِحْ ذبيحته».

وهذا الحديث كما نقل العلامة المناوي وغيره عن السلف الصالح: أنَّه من قواعد الدين ودعائمه.

فالله تعالىٰ كتب: ـ أي: شرع ، فالكتابة تشريعه ـ الإحسان علىٰ كلِّ شيء ، فتدخل: الأقوال ، والأفعال ، والأخلاق ، والمعاملة ، والمعاشرة ، والمجاورة ، وتشمل الإحسان إلىٰ بني الإنسان ، وأنواع الحيوان.

وإنَّ تفصيل الكلام علىٰ بقية معاني الآية الكريمة له موضع آخر إن شاء الله تعالىٰ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب أن يحمد ويرضىٰ.

وقد تمَّ الجزء الأول ، وسيتبعه الجزء الثاني إن شاء الله تعالىٰ بحول الله تعالىٰ وقوته.

وصلَّىٰ الله العظيم علىٰ سيدنا محمد، إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليماً، وعلينا، وعلىٰ والدينا، والمسلمين أجمعين ، صلاةً وسلاماً دائمين بدوام ملك الله الكريم ـ آمين.

* * *

المحتويـــات

والحمد لله في البدء والختام
وصلَّى الله وسلم على سيد الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

❊ ❊ ❊

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
- حول تفسير سورة الحجرات.
- حول تفسير سورة قٓ.
- حول تفسير سورة الملك.
- حول تفسير سورة الإنسان.
- حول تفسير سورة الكوثر.
- حول تفسير سورة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾.
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
- شهادة لا إلٓه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها.
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
- الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
- الصلاة على النّبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
- الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن.
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.
- مناسك الحج ويليها زيارة النبي ﷺ وآدابها.

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب: أقيول
أمام جامع أسامة بن زيد هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧